المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

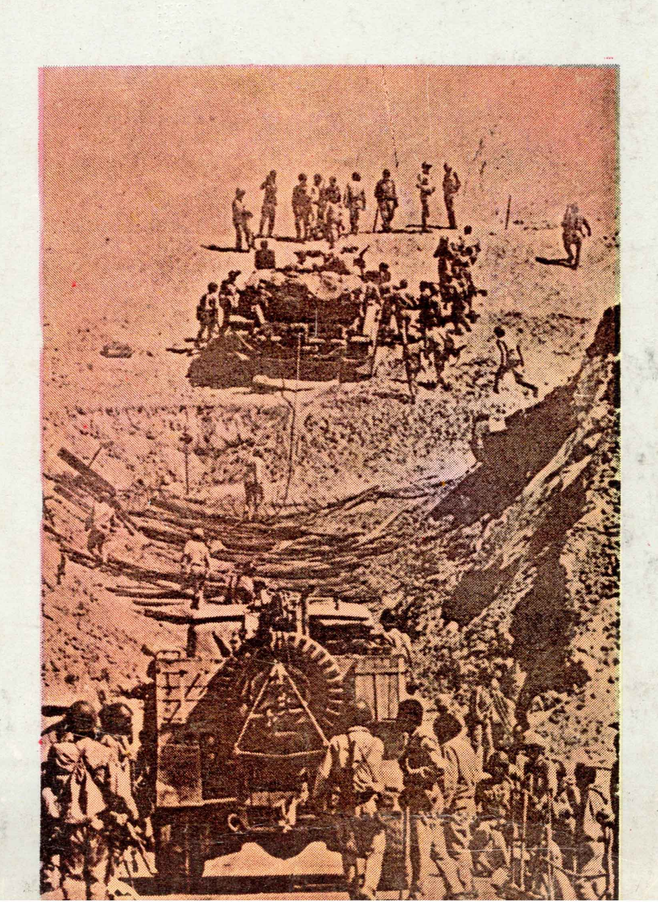
الجنرال د.ك. باليت

الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة

العودة الى سيناء

ترجمة :

طلال الكيالي



الحرب
العربية
الإسرائيلية
الرابعة

الجنرال د.ك. باليت

الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة

العودة الى سيناء

طلال الكيالي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١١
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى تشرين اول (أكتوبر) ١٩٧٥

مقدمة

لم يسبق في اي من التقارير التي وضعت عن الحروب التي خاضها العرب ضد الاسرائيليين طيلة السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ان عرضت وجهات نظر الجانب العربي منها عرضا وافيا . بل ان العرب انفسهم لم يجشموا انفسهم قط مؤونة التحدث او الكتابة عن حروبهم ، وهذا امر لاغرابة فيه ، فما من احد يتوق الى الاعلان عن اخبار فشله . فالجيوش العربية لم تخرج في حالة تحسد عليها من اي من جولات الحروب السابقة . ولئن تخللت حرب سنة ١٩٤٨ بعض الوقائع التي وقفت فيها الجيوش العربية موقفا مشرفا كدفاع الجيش الاردني عن مدينة القدس او صمود الحامية المصرية في جيب الفالوجة وهو الصمود الذي لعب فيه ضابط برتبة رائد اسمه جمال عبد الناصر دورا بطوليا بارزا ـ فقد فشلت الجيوش العربية في المهمة التي اضطلعت بها وخرجت اسرائيل في نهاية هذه الحرب كدولة حديثة المولد بمزايا لا يستهان بها . وفي حرب سنة ١٩٥٦ ، ادى تواطؤ الفرنسيين والبريطانيين مع الاسرائيليين الى شل قدرة القوات المصرية منذ بداية الحرب . ومهما يكن من أمر ، فلم يكن في تلك الحرب من المآثر العسكرية ما يستحق الاشادة به . اما حرب ١٩٦٧ فكانت وبالا على المصريين والسوريين وسجل الاسرائيليون فيها على العرب نصرا عسكريا مبينا .

وقد نشر الاسرائيليون ودعاتهم في العالم الغربي كتبا ومقالات عديدة تشيد بانتصارات اسرائيل ولم يستنكفوا عن حشوها بالكثير من المبالغات . كما انهم لم يكتفوا بذلك ، بل شنوا في السنوات الاخيرة حملة منظمة للحط من قدر العرب والاستخفاف على وجه التخصيص بقدرتهم القتالية . ولذا بدا لي ان هذه فرصة مؤاتية لتصحيح الكثير من الافكار المضللة التي نشرت في السابق ولعرض صورة اكثر توازنا لما جرى في كل من فترة الاعداد لحرب تشرين الاول ١٩٧٣ وفي اثناء تسيير دفة معاركها .

في سنة ١٩٤٩ كنت ملحقا عسكريا لسفارتنا في القاهرة ، وكنت معتمدا بهذه الصفة كذلك لدى الاردن وسوريا ولبنان . وقمت بصفتي هذه بزيارة القوات المسلحة لتلك البلدان بعد حرب ١٩٤٨ وتمكنت من وضع تقييمي الخاص عن سير عملياتها . وحتى بعد انتهاء فترة مهمتي في القاهرة ، حافظت على اتصالاتي باصدقائي وزملائي في العالم العربي واجتمعت برجال الحامية المصرية في قطاع غزة بعد حرب ١٩٥٦ . ومنذ سنة ١٩٦٧ ، قمت بزيارات متعددة لمصر والعراق ولبنان القيت خلالها محاضرات على اساتذة المدارس الحربية وغيرها من المعاهد العسكرية في تلك البلدان . ومن هنا استطعت ان اتابع بعين العناية والتفهم ما يواجهه العرب ، لا سيما مصر ، من مشكلات عسكرية ، وكذلك الاحداث الاستراتيجية التي وقعت منذ ١٩٦٧ ، واذكر من هذه الاحداث حرب الاستنزاف ودور الفدائيين الفلسطينيين وتغلغل النفوذ الروسي في المنطقة وسنوات الحرب واللاسلم المخيبة للآمال .

وفي تشرين الثاني ١٩٧٣ ، وفيما كانت تراودني فكرة القيام بزيارة اخرى للشرق الاوسط لاعداد كتاب عن الهجوم العربي ، عرض علي معهد الدراسات والتحليلات الدفاعية الذي كان يرغب في تكوين انطباع عن حرب ١٩٧٣ ان يدفع تكاليف زيارتي هذه ، فقبلت العرض شاكرا على الفور . وفي كانون اول ١٩٧٣ زرت الكويت وبغداد وبيروت والقاهرة وعمان ودمشق واطلعت عن كثب على النواحي العسكرية من الحرب . واثناء وجودي في مصر ، تمكنت من زيارة الضفة الشرقية للقناة ومن الاجتماع بهيئة اركان حرب الجيش المصري والقيادة العربية المشتركة وغيرهما من الهيئات . اما في العراق وسوريا والاردن فقد اقتصرت ابحاثي على الاوساط غير الرسمية ، الا ان ما لقيته من سفاراتنا وملحقينا العسكريين من ترحاب ومساعدة كان له عون قيم جدا في مهمتي .

ان كتاب « العودة الى سيناء » يستعرض حرب ١٩٧٣ من وجهة نظر هندية ، وآمل في الا يؤدي تعاطفي مع القضية العربية الى تشويه موضوعية الكتاب . ومع انني حصلت على تفاصيل العمليات من مصادر عربية ، فان الاطار الشامل لهذه المعلومات مشتق من الصحافة العالمية التي لم تكن محابية للعرب . ويؤسفني ان حكومة اسرائيل لم تسمح لي بزيارة السلطات العسكرية الاسرائيلية اذ ان سلطات تل ابيب لم تكن تنظر الى ابحاثي بعين الارتياح . غير انني تمكنت من الاستعانة ببعض المواد المستقاة من المصادر الاسرائيلية ، لا سيما فيما يتعلق بالهجوم الذي شنه الجنرال شارون عبر القناة في منطقة الدفرسوار . وقد اوردت بصورة مستفيضة بعض ما جاء في بيان الجنرال دايان امام محرري الصحف الاسرائيلية يوم ٩ تشرين الاول ، الذي نشر في شهر شباط ١٩٧٤ .

ان نطاق الكتاب يقتصر بصورة اساسية على دراسة العمليات العسكرية ومع انني تناولت بالبحث الاسباب السياسية والاستراتيجية التي حملت الرئيس السادات على شن الحرب ، الا ان تفاصيل التطورات السياسية كتحركات الدولتين العظميين واستراتيجية العرب النفطية لم يتطرق اليها البحث الا بالقدر الذي يتعلق منها بسير العمليات الحربية .

وفيما كانت الحرب تدور رحاها ، كانت ادعاءات المتحاربين متضاربة تضاربا كبيرا ، وكثيرا ما كانت متناقضة تماما ، لا سيما خلال الاسبوع الاول . وكانت ارقام الخسائر التي اذاعها الطرفان مبالغا فيها كثيرا ، وبوجه خاص ما يتعلق منها بخسائر دبابات العدو وطائراته . الا ان البيانات المصرية كانت مبنية ـ كما اوضحت في هذا الكتاب ـ على تقارير الخطوط الامامية من الجبهة ولم تكن تهدف الى تحقيق اغراض دعائية . ومع ذلك ، اتضح ان ارقام الطائرات التي ادعى المصريون اسقاطها كانت ايضا تتسم بالمبالغة . ولذلك تعمدت ان لا ابني تقديراتي للمعارك على هذه الارقام . وقد اوضحت في سياق ذكر الخسائر البشرية ان الارقام ليست حقائق ثابتة .

ولم تقتصر البيانات المضللة على ادعاءات العرب والاسرائيليين . بل لقد ادى اشتراك الدولتين العظيمتين في شؤون الحرب بالصحافة العالمية الى الجنوح عن الموضوعية في نشر اخبار ما كان يجري في مؤخرة ساحات القتال . فقد كانت جميع تقارير الصحافة العالمية تميل الى التحيز ضد الروس ، وكان لهذا بطبيعة الحال تأثير عكسي في الجانب العربي . ونذكر على سبيل المثال انه قامت منذ البداية ضجة كبرى

حول مدى الدعم المادي الذي قدمه الاتحاد السوفياتي الى العرب ، ولم نسمع شيئا على الاطلاق عن ان ما نقله الامريكيون عبر جسرهم الجوي من المعدات العسكرية الى اسرائيل فاق في الواقع الى حد بعيد ما نقله الروس جوا الى مصر وسوريا . فاستنادا الى ما نشرته مجلة « « افيايشن ويك » في عددها الصادر يوم ١٠ كانون الاول ١٩٧٣ ، نقلت الطائرات الامريكية الى اسرائيل ٢٢٣٩٥ طنا من المواد الحربية في ٥٦٦ رحلة جوية مقابل ١٥٠٠٠ طن نقلها الروس في ٩٣٤ رحلة جوية .

كذلك تعمدت الصحافة العالمية التغافل في ذلك الوقت عن قيام السلطات الاسرائيلية باستغلال فرصة الوقف الاول لاطلاق النار من اجل انزال ضربة قاضية بالجيش الثالث المصري . فقد وجهت الصحافة العالمية جل همها عوضا عن ذلك الى خلق جو من الذعر من خلال تقارير وهمية جدا اوردتها حول استعداد قوات روسية (قيل انها سبع فرق محمولة جوا) للانتقال بطريق الجو الى مصر للتدخل في القتال . وقد ادت هذه الادعاءات الى ايهام الرأي العام السياسي بان القوات المصرية اصبحت تواجه هزيمة محققة وان الفضل في انقاذها من قضاء القوات الاسرائيلية عليها انما يعود الى مجرد الخوف من قيام الدولتين العظيمتين بالتدخل في القتال . والدليل على كذب هذا الادعاء ان الجنرال شارون نفسه كان اكثر تحفظا في ادعاءاته بهذا الشأن .

ان كل من زار منطقة القناة بعد الحرب لا بد ان يوافق على ان الجيش المصري كان ابعد ما يكون عن التعرض للهزيمة . فالقوات المرابطة في المواقع الامامية من الجبهة تتمتع بمعنويات عالية . وهناك روح من الالفة الحميمة بين الضباط والجنود لم تكن قائمة من قبل . وكل من افراد هذه القوات يوحي شعورا بالثقة من انهم تمكنوا اخيرا من اختبار قوة العدو على حقيقتها . والدلائل على هذا كثيرة منها انتظام الافراد في تدريباتهم وتنقلاتهم وانضباطهم في التدريبات البرية والبحرية واعتناؤهم بأسلحتهم الشخصية . وفي ذلك شواهد كثيرة على ان الجيش الذي لحقت به الهزائم في الماضي قد تحول الان الى قوة مقاتلة شامخة الانف .

واخيرا لا بد لي ان اسجل شكري للسلطات المصرية لا لسماحها لي بالوصول الى المواقع الامامية فحسب ، بل كذلك لسماحها لي بالتحدث الى الضباط والجنود وطرح الاسئلة عليهم بدون اي من القيود التي تفرضها البروتوكولات واعتبارات الامن مهما كان نوعها . وانني اخص بالشكر صديقنا القديم اللواء حسن البدري الذي يشغل الان منصبا رفيعا في كلية ناصر العسكرية العليا ويمثل الجيش على ما اظن في معهد الدراسات الاستراتيجية (في مبنى الاهرام في القاهرة) لتفضله بتخصيص ساعات عديدة من وقته الثمين للتحدث الي في مكتبه . واني مدين كذلك بالشكر الى الكثير من الاصدقاء الاخرين في بغداد وعمان وبيروت ودمشق ، المتقاعدين منهم والذين لا يزالون في الخدمة ، لما اسدوا الى من عون في تحقيقاتي . وهنا لا بد من التنوية بانهم زودوني بالوقائع المجردة . اما الاستنتاجات والانتقادات فاني احمل تبعتها وحدي .

بالوبور ، ديهرا دون
د . ك باليت
١٥ مارس ١٩٧٤

الفصل الاول

التمهيد للجولة الرابعة

بتاريخ ١٤ تشرين الاول ١٩٧٣ ، بعد ان ظل الجنرال شارون يتميز غيظا طيلة سبعة ايام في رمال سيناء ، شعر اخيرا بأن القيود التي كانت تحد من حريته في العمل اخذت تتراخى . ذلك ان القيادة الاسرائيلية العليا بدأت تستعيد روعها بعد النكسات الاولى التي منيت بها الى حد يكفي لان تطلق يد هذا القائد المغامر النزق كي ينفذ خطته في جبهة القناة .

ان « عملية الغزال » التي اضطلع بها الجنرال شارون من اجرأ المغامرات العسكرية في التاريخ . فقد اجمع المراقبون بعد تنفيذ تلك المغامرة انها تجاوزت الحد المقبول « للمجازفة المحسوبة العواقب » وان كفة نجاحها قد رجحت بفرق « ذرة او اقل » والواقع ان الهجوم المضاد الذي شنه الجيش المصري الثاني في الضفة الشرقية كاد يقطع موطىء الجسر الذي اقامه شارون على القناة وان تنفيذ البرنامج الذي اعده شارون لتلقي الامدادات جاء متأخرا اكثر من ٢٤ ساعة عن الموعد المخطط له . ولو قدر لاحتياطي الجيش المصري في الضفة الغربية ان يقوم بهجوم مضاد خاطف لتمكن من القضاء على رأس الجسر الصغير الذي اقامه شارون بين بساتين النخيل في منطقة الدفرسوار . قد يكون كل هذا صحيحا ، ولكنه لم يعد ذا موضوع في هذا الكتاب . فالحقيقة الثابتة ان شارون نجح في مغامرته تلك وانه نفذها طبقا لاسلوب حربي تخصصت فيه القوات الاسرائيلية ويستند هذا الاسلوب اساسا الى الخبرة التي اكتسبها الاسرائيليون خلال ثلاث جولات من القتال في حربهم المستمرة مع العرب . ومن وجهة نظر عسكرية بحتة ليس هناك عسكري واحد يستطيع القول ان هذا الاسلوب لم يكن صحيحا .

في الجولة الاولى التي شهدت معارك ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، قامت جيوش مصر والاردن وسوريا والعراق ولبنان بمهاجمة دولة حديثة المولد تتكون من مهاجرين يهود تتنازعهم العقائد الحزبية ولا يملكون جيشا نظاميا . وقد تمكن هؤلاء الاسرائيليون بسعة حيلتهم وجرأتهم العسكرية من تحقيق معجزة ليس من حيث صد الهجوم فحسب ، وانما من حيث توسيع رقعة الارض المخصصة لدولتهم بموجب مشروع التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة . وبعد ثماني سنوات تمكنت قواتهم ، بالتواطؤ مع فرنسا وبريطانيا من طرد الجيش المصري من سيناء . وفي سنة ١٩٦٧ اعاد الاسرائيليون الكرة دون معونة احد على الاطلاق .

ونشأ من هذه الاختبارات اسلوب عسكري اسرائيلي محض مبني على اخذ زمام

المبادرة والهجوم وسرعة الحركة وتحويل القوات في الوقت المناسب من جبهة الى اخرى للتغلب على العوائق الجغرافية والبشرية ، وبالاضافة الى عجرفة نابعة مع الاسف من الاستخفاف بالاعداء . والادهى من هذا انه نشأت في اسرائيل استراتيجية لها طابع مميز هدفها ليس حل النزاع بل المماطلة والتسويف فيه، لان الحل يقتضي تقديم تنازلات والتخلي عن مكاسب جغرافية . واصبحت العقيدة الدبلوماسية العسكرية الاسرائيلية تعتمد الهجوم واعطاء الاولوية للتوسع الاقليمي على نقيض عقيدة « خلق مناخ متسامح » ومن البديهي ان مثل هذه العقيدة قلما تأخذ بعين الاعتبار اي اجحاف قد يلحق بالعرب . وكانت كل من حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ قائمة على هذه الاستراتيجية التوسعية . وفي ١٩٥٦ ارغم الرئيس ايزنهاور اسرائيل على التخلي عن جني ثمار عدوانها . اما في ١٩٦٧ ، فكان اتجاه الرأي الامريكي قد اختلف بحيث انه لم يسمح لاسرائيل باحتلال الاراضي العربية فحسب ، بل شجعها على احتلال تلك الاراضي التي تشكل حسب المفهوم الاستراتيجي الاسرائيلي « حدودا آمنة » لاسرائيل الكبرى – اي قناة السويس في الجنوب ونهر الليطاني وجبل الدروز في الشمال ونهر الاردن في الشرق .

اما ان يكون بامكان العرب كذلك ان يضعوا اسلوبا حربيا خاصا بهم ومبنيا على تجاربهم ، فذلك امر اسقطه الاسرائيليون من حسابهم . وقد ادى انتصارهم السهل في حرب الايام الستة الى ترسيخ افتراضهم بان العرب دائمو الانقسام وان قواتهم العسكرية ضعيفة بالنسبة الى القوات الاسرائيلية . بل ان حرب الاستنزاف في سنتي ١٩٦٩ – ١٩٧٠ اخفقت في حمل الاسرائيليين على الاعتقاد بان في امكان العرب ان يشكلوا خطرا على « اسرائيل الكبرى » في اية معركة من معارك المواجهة الحقيقية ، فكانت تحصينات خط بارليف والجولان تضمن في نظرهم امنا كافيا لاسرائيل . وما كان لهم ان يتصوروا على الاطلاق انه يمكن للعرب ان ينهضوا عسكريا ، مما جعلهم يدفعون الثمن غاليا لقاء هذه العجرفة .

اما الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة ، فقد انتهت بعملية الجنرال شارون الدراماتيكية التي حرمت المصريين من كثير من المزايا الاستراتيجية التي كسبوها من اقامة رأس جسر لهم في سيناء في بداية الحرب . وفي الجبهة الشمالية تمكن الاسرائيليون ايضا من صد الهجوم السوري في مرتفعات الجولان وانهوا الحرب باستيلائهم على مساحات من الاراضي اكثر مما كانوا يحتلونه عند بدء القتال . الا ان تقدير نتائج الحرب على اساس الخسارة والربح في الاراضي تقدير خاطىء كليا ، اذ ان المدى الكامل لما حققه العرب من مكاسب لا تقاس بهذا المقياس بل بمراعاة الاحداث التي طرأت منذ سنة ١٩٦٧ حين اخذت اسرائيل تعتمد وضعا عسكريا تكنولوجيا قائما على اساس تفوقها العسكري على جيرانها العرب وتشن ضدهم حربا دعائية عنصرية تحط من قدرهم وتدعي لنفسها تفوقا عسكريا .

لقد كان انتصار اسرائيل سنة ١٩٦٧ نقطة تحول بارزة في النزاع العربي – الاسرائيلي ، اذ قلب الاوضاع في غربي آسيا بشكل ملموس لاسباب عدة خارجة عن نطاق الهزيمة العربية . وكان اول هذه الاسباب واهمها تحول موقف الجالية اليهودية الامريكية ازاء اسرائيل . فبعد ان كان يهود امريكا قد اخذوا يفقدون اهتمامهم باسرائيل ويحجمون عن الهجرة اليها ويقلصون معوناتهم لها عادوا فجأة بعد تلك

الحرب الى توثيق علاقاتهم بها ، وتصاعد من جديد نشاط اللجان اليهودية في الضغط المستمر على الحكومة الاميركية والكونغرس لتزويد اسرائيل بالعون الكامل غير المشروط .

واستعداد امريكا الرامي لتبني القضية الصهيونية ناشيء من جهلها شعوب الشرق الاوسط بقدر ما هو ناشيء من تأثرها بالدعاية الصهيونية . ذلك ان الولايات المتحدة لم تنجب افرادا تعاطفوا مع الشعوب العربية وقضاياهم كاولئك الذين انجبتهم شعوب اوروبا الغربية من امثال لورنس ودوتي وبلانت وجاك بيرك . ولذا ، ففي غضون السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الاولى والتي استجمعت الحركة الصهيونية خلالها قواها وركزت جهودها على مسألة اعادة توطين اليهود في فلسطين ، لم تكن لدى الشعب الامريكي صورة واضحة عن العرب لان هؤلاء كانوا يشغلون حيزا ضيقا من التفكير الامريكي . ولذا كان من السهل على الدعاية الصهيونية التي لها كلمة مسموعة بوضوح في امريكا الشمالية ان تملأ هذا الفراغ بصورة مشوهة تتسم بالاستخفاف بالعرب وباهدافهم . وهكذا اصبح العرب في نظر الامريكيين رمزا لجماهير بائسة تعادي بلا تعقل شعبا عانى قدرا كبيرا من الاضطهاد طوال الحرب العالمية الثانية .

وقد تكون في الولايات المتحدة خلال حرب ١٩٦٧ انطباع سيء عن العرب صورهم بانهم شعب هستيري مجهول يفر من ساحات القتال في حين رسمت الصحف للاسرائيلي صورة الانسان الصلب الشجاع الذي انتزع من حرب الصحراء نصرا ساحقا . وكانت الدعايات تملأ اعمدة الصحف الاميركية مستحثة الشعب الامريكي على مساندة اسرائيل عند الحاجة الى هذه المساعدة حتى في الوقت الذي كان فيه الجيش الاسرائيلي يحتل قطاعات واسعة من الاراضي العربية .

وفي حين ان الجالية اليهودية في الولايات المتحدة لا تشكل اكثر من ثلاثة في المائة من الناخبين الاميركيين ، فانها تسهم في التبرعات التي تقدم لكلا الحزبين الرئيسيين في اثناء الحملة الانتخابية بنسبة تتراوح بين ٢٥ و ٣٠ في المائة من مجموع النفقات . ويتركز اهتمامها بوجه خاص على الولايات المهمة وهي نيويورك ونيوجرسي والينوي وكاليفورنيا ، تلك الولايات التي لها اكبر نصيب من اصوات هيئة المنتخبين . ولهذا كان نفوذ الجالية اليهودية في الولايات المتحدة نفوذا بعيد الاثر . ففي الستينات لم يكن على المسرح السياسي الاميركي بطل قومي له وزن كوزن ايزنهاور الذي تحدى حتى قبيل الانتخابات العامة في سنة ١٩٥٦ الناخبين اليهود وشجب علنا حملة السويس واكره الاسرائيليين على الانسحاب من الاراضي العربية التي احتلوها على الرغم من انهم سبق ان اعلنوا عن عزمهم على الاحتفاظ بجزء على الاقل من الاراضي التي غزوها . اما في عام ١٩٧٢ ، فقد اضطر كلا المرشحين للرئاسة الرئيس نيكسون والسناتور ماكغفرن الى الانحناء امام الضغط الصهيوني بل الى المزايدة في التعهد بتقديم التأييد الكامل لاسرائيل . ونتيجة لذلك تمكنت المسز مائير بعناد وتحد سافر من رفض مقترحات وزارة الخارجية الاميركية ــ الرامية الى فرض حل متوازن في النزاع الناشب في منطقة غربي اسيا ــ ومن قبيل ذلك ان اسرائيل رفضت مشروع روجرز .

اما الامال التي عقدت على ان تكون حكومة نيكسون في ولايته الثانية اقل انقيادا للضغط الاسرائيلي مما كانت في ولايته الاولى ، فقد خابت بسبب ما حدث من تغير في سياسة البيت الابيض نفسه . فمن ناحية خلق تغلغل النفوذ السوفياتي في غربي آسيا

عنصرا جديدا في الاستراتيجية الاميركية ، فاصبحت هذه الاستراتيجية تتساءل عما اذا كان هناك ما يبرر متابعة سياسة تنطوي على السعي لاكتساب الصداقة العربية ما دام استمرار احتلال دولة صديقة مثل اسرائيل لصحراء سيناء كفيلا بخدمة اهداف الاستراتيجية الاميركية في البحر الابيض المتوسط وغربي آسيا على نحو افضل .

والواقع ان التأييد السياسي والاقتصادي والعسكري الذي قدمته الولايات المتحدة بعد ذلك الى اسرائيل ، قد ادى الى توثيق العلاقة بين البلدين بحيث اصبحت هذه العلاقة علاقة تكافل ثنائي تجاوزت بكثير مجرد حدود مستوى التحالف . وليس في الامكان تفسير تزويد اسرائيل باحدث الاسلحة التكنولوجية الاميركية ، تدريب طياريها والتعاون الوثيق بين استخبارات البلدين الا في ضوء ذلك الوضع الذي اصبحت فيه اسرائيل عمليا الولاية الحادية والخمسين من الولايات المتحدة الاميركية . وهكذا اندمجت اسرائيل شيئا فشيئا في النظام العسكري والصناعي والمالي لاعظم دولة في العالم – وهذه صورة تختلف كل الاختلاف عن علاقة مصر وسوريا بالاتحاد السوفياتي . وهكذا تبادل الجانبان دوري داود وجالوت (جليان الجبار) اللذين صورا في غير دورهما المعروفين .

ومنذ حزيرن ١٩٦٧ اخذت هذه العلاقة الوثيقة بالولايات المتحدة تتخذ شكل اجراءات متصاعدة في العجرفة والوحشية من جانب اسرائيل ضد جيرانها العرب . وكان انهيار الجيوش العربية في سنة ١٩٦٧ قد دفع بمشكلة الفلسطينيين وجماعات المقاومة الفلسطينية الى المقدمة . وحاول الزعماء الاسرائيليون في باديء الامر ان يحلوا هذه المشكلة عن طريق شن الغارات الانتقامية عبر خطوط الهدنة وضد الفدائيين انفسهم . وكانت اول غارة منها في الكرامة وذلك في آذار ١٩٦٨ . وقد شجع التأييد الاميركي الضمني لهذه الغارات ، اسرائيل على تصعيد نطاقها فاخذوا يوجهونها الى الاقطار التي يمارس الفدائيون نشاطهم فيها. وكان الاسرائيليون بذلك يستخفون علنا بالقانون الدولي ويتجاهلون بوقاحة كل ما صدر عن الجمعية العامة للامم المتحدة ، من قرارات تندد بهذه الغارات . ومن سوء الطالع ان هذه السياسة الاسرائيلية قد نجحت بفضل انقسام العرب على انفسهم الامر الذي وصل الى حد قيام بعض الاقطار العربية باتخاذ اجراءات ضد الفلسطينيين لامن خلال تقييد تحركاتهم فحسب ، وانما من خلال شنها غارات منظمة تهدف الى القضاء على اللاجئين الفلسطينيين داخل مخيماتهم كما حدث في الاردن ولبنان . ولقد كشف النقاب عن مدى المساندة التي تلقتها اسرائيل من الولايات المتحدة عندما هددت هذه الدولة الاخيرة خلال ازمة خريف عام ١٩٧٠ بالتدخل المسلح للحؤول دون قيام السوريين بمساعدة الفدائيين ، وتمادى الاميركيون في هذا الشأن الى نقطة كان من المحتمل عندها ان تنشب حرب عالمية ثالثة .

وهكذا تمكنت اسرائيل بفضل تفوقها التكنولوجي العسكري الساحق من ان تفرض وهي آمنة سياسة قمع انتقامية وقائية ضد الاقطار العربية المعنية . فالى جانب الجرأة العسكرية وما ثبت من المستوى العسكري والتكنولوجي الرفيع الذي توصلت اليه اسرائيل ، كانت الروابط الوثيقة التي تربط الدولة الصهيونية مباشرة بالولايات المتحدة الاميركية هي التي مكنت الدولة الصهيونية من القيام في تشرين الثاني ١٩٦٨ بغارة شنتها وحدات عسكرية محمولة بطائرات الهليكوبتر والتوغل في اعماق مصر ونسف

عدد من بوابات القناطر في نجع حمادي وتدمير المنشآت الكهربائية في تلك المنطقة وضرب منطقة قناة السويس من الجو بالقنابل واغارة طائرات الفانتوم على المصانع والمدارس في دلتا النيل فضلا عن الغارة التي شنها الكوماندوز الاسرائيليون على الزعفرانة والتي استطاعوا خلالها ان يحملوا معهم الى اسرائيل جهاز رادار بكامله بطائرات الهليكوبتر وان يشنوا غارة منسقة بدقة على الفدائيين داخل بيروت في ربيع سنة ١٩٧٣ .

وقد صاحب هذه الغارات العسكرية الوحشية حملة دعائية جديدة شنتها الصهيونية بغية تصوير العرب كأنهم شعب متخلف غير موحد ثقافته بدائية وذات مستوى منحط مما لا يتيح له المحافظة حتى على مصالحه الخاصة ويبرر بالتالي طرده من اراضيه لكي يحل محله شعب ارقى منه مدنية ، تماما على غرار النغمة التي عزفتها النازية من قبل . وكان الغرض الرئيسي من هذه الحملة تشويه الحقائق الاساسية من حيث الظلم الذي لحق بالعرب واللعب بعواطف الفئات الغربية الميول من الرأي العام الدولي والاخلال بتوازن عواطفه من اجل التحيز لاسرائيل .

وفي الشؤون العسكرية ايضا شنت المؤسسات الصهيونية سلسلة من الحملات الدعائية ضد القوات العربية المسلحة ونشرت كل من المصادر الاسرائيلية والغربية عددا من الكتب عن حرب الايام الستة تضمنت مبالغات في منجزات قوات الجنرال دايان وتشويها لسمعة الجيوش العربية من اجل تصوير اندحارها كانه جاء نتيجة لفشل طبيعة عرق الشعوب العربية اكثر من نتيجة لفشل السياسة الاستراتيجية العسكرية التي انتهجتها القيادة العربية العليا . ولم تتطرق هذه الكتب على الاطلاق الى الاسباب الحقيقية الكامنة وراء هزيمة العرب . كما ان الدول العربية لم تذع على الاطلاق اية معلومات عن العمليات التي ادت الى هذه الهزيمة .

فليس المعروف على وجه العموم مثلا انه عندما شن الاسرائيليون هجومهم في ٦ حزيران ١٩٦٧ ، كانت القوات المصرية تتقدم الى الامام من اجل احتلال مواقع لم تكن قد استطلعت بعد على طول الحدود الاسرائيلية . بعد ان اضطرت لاسباب سياسية الى التخلي عن مواقعها الممهدة في عمق سيناء وقد حدث هذا نتيجة لشرح خطط العمليات العسكرية في اللحظة الاخيرة امام الرئيس جمال عبد الناصر . وبد ان عرف الرئيس عبد الناصر لاول مرة بان خطة الدفاع الرئيسية المصرية كانت تهدف الى احتلال مواقع في عمق سيناء تبعد اميالا عديدة عن الحدود المصرية الاسرائيلية ، اعترض بشدة على هذه الخطط التي تقوم على « تسليم » بعض الاراضي العربية طوعا وأمر الجيش بالتقدم الى خط الحدود نفسه وبالاحتفاظ به . وقد فشل القادة العسكريون المصريون في اقناع المشير عبد الحكيم عامر بالتدخل نيابة عنهم والحيلوله دون تغيير الخطة العسكرية المقررة في الاصل في آخر دقيقة . وبذلك بقيت اوامر الرئيس عبد الناصر نافذة وكانت الحالة على هذا النحو عندما شن الاسرائيليون هجومهم . وهكذا بوغت معظم الجيش المصري وهو ما زال بعد يتحرك الى الامام نحو مواقع لم تستطلع او تعد للدفاع .

وحتى الهجوم الجوي الصاعق الذي استهلت به اسرائيل هجومها والذي كان السبب الرئيسي في هزيمة العرب اللاحقة ما كان ليحرز النجاح الذي حققه لولا التدخل السياسي وتدخل القيادة العليا . فقد كان وزير الحربية المصري شمس الدين بدران قد اصدر تعليماته قبل ثلاثة ايام من الهجوم الاسرائيلي الجوي بتغيير شبكة الاتصالات الذي كان معمولا به آنذاك بين مختلف القوات المسلحة العربية ، وقد منعت هذه

التعليمات بصفة خاصة اجراء اي اتصال مباشر بين القوات المسلحة الاردنية والجيش المصري وقواته الجوية . ذلك ان هذه التعليمات كانت تقضي باجراء اي اتصال من هذا النوع منذ ذلك الوقت فصاعدا عن طريق مكتب وزير الحربية . ولولا هذا التدخل الاحمق لتمكنت محطة الرادار الاردنية التي كانت موجودة في عجلون من اشعار القواعد الجوية المصرية المتقدمة في صحراء سيناء بالهجوم الجوي الاسرائيلي في الساعة ٨ : ٣٨ صباحا حين التقطت شاشات محطة الرادار المذكورة اشارات تدل على اقلاع مئات الطائرات الاسرائيلية من قواعدها ، وذلك في الوقت المناسب لانقاذ سلاح الطيران المصري من الابادة شبه التامة في الساعات الاولى من ساعات الحرب . وبدلا من ان تصل هذه الرسالة الحيوية الى القواعد المذكورة في الوقت المناسب ، فانها بقيت قابعة على مكتب وزير الحربية المصري وقتا طويلا من الزمن فيما هو ينفق وقته متنقلا من مكتب الى اخر .

ومهما يكن من امر ، فان اكثر ما شوه وقائع الحرب المذكورة كان الانطباع الذي صوره الاسرائيليون عن وضع الجيش المصري . فقد اوهم الاسرائيليون العالم بانهم انزلوا بالجيش المصري ضربة قاضية منذ اللحظة التي شنت فيها طوابير المدرعات الاسرائيلية هجومها المتشعب . صحيح ان المصريين فقدوا ١٦٠٠٠ قتيل وان ٩٠٠ دبابة و ٧٠٠ مدفع وقعت في ايدي القوات الاسرائيلية . غير ان عاقبة تلك الكارثة قد القيت على الجهات غير المسؤولة عنها . فالواقع انها حدثت بسبب رد فعل القائد العام عبد الحكيم عامر الذي استسلم للذعر وبسبب عدم كفاءة بعض القادة العسكريين وليس بسبب تدني القدرة القتالية للجيش المصري . بل لقد اتضح الان ان الجيش المصري ابدى مقاومة في جميع الجبهات حتـى اصدر عبد الحكيم عامر امره المنكود للقوات المصرية بالانسحاب في عشية اليوم الثاني للحرب دون ان يكون هناك مبرر لذلك . (وقد ظل الرئيس عبد الناصر على غير علم بامر الانسحاب المذكور لمدة تزيد على سنة) . وحتى وقت اصدار ذلك الامر ، لم تزد الاصابات التي تكبدها الجيش المصري حسب البلاغات الصادرة بهذا الشأن على ٢٨٦ اصابة . كما ان القوات الاسرائيلية لم تكن بعد قد اخترقت خط الدفاع المصري الثاني . وقد قدرت لجنة خاصة امر الرئيس عبد الناصر بتشكيلها فيما بعد للتحقيق في هذا الامر ان خط الدفاع الثاني كان من الممكن ان يصمد امام الهجوم الاسرائيلي عدة ايام كانت كفيلة بان تتيح للرئيس عبد الناصر ان يجني ثمار تحركاته الدبلوماسية .

حرب الاستنزاف ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠

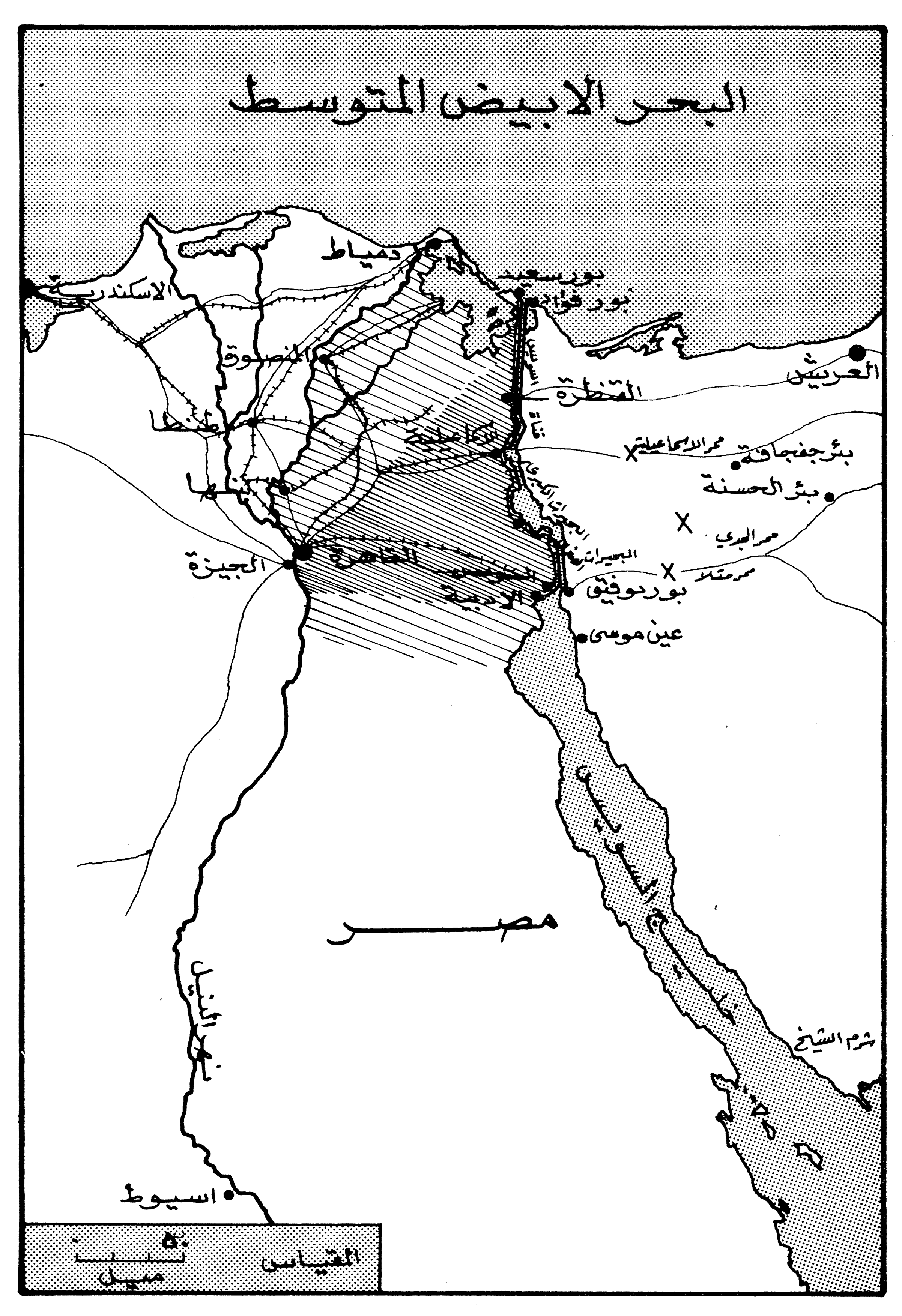
لقد حقق الهجوم الاسرائيلي في حزيران ١٩٦٧ نصرا حاسما . غير ان هذا النصر لم يكن حاسما الا بمعناه العسكري لا السياسي . فقد تمزقت الجيوش المصرية والسورية والاردنية شر ممزق . بيد ان تصميم الحكومات العربية على الاستمرار في مجابهة اسرائيل لم تلن له قناة . صحيح ان السنوات التي تلت حرب ١٩٦٧ شهدت بالفعل نوعا من التراجع عن روح التصلب السابقة الى تقبل اسرائيل كدولة ذات سيادة . ولكن لم يحدث في اي وقت من الاوقات اي تعديل في مطالبة الدول العربية اسرائيل بالانسحاب انسحابا كاملا من الاراضي العربية المحتلة . وقد اعلن التصميم على مواصلة الحرب

ضد اسرائيل حتى فيما كانت القوات المصرية تتراجع الى ما وراء الضفة الغربية من قناة السويس وفيما كان الجيش السوري يتراجع نحو مشارف دمشق . وليس هناك من ينكر ان الاردن خر راكعا على قدميه لمدة طويلة من الزمن وان روح الانهزامية قد تعززت في لبنان . غير ان ذلك لم يحدث قط لا في مصر ولا في سوريا ولا في اي جزء آخر من العالم العربي ككل .

لقد اضطرت مصر خلال السنوات الاولى التي تلت الحرب الى السكوت عى مضض فيما اخذت تعيد بناء قواتها مساعدة الروس . بيد ان مخططاتها الرامية الى مجابهة اسرائيل لم تتوقف قط . ولكن بعد ان تمت مصر اعادة بناء قواتها لم يكن لديها من خيار مفتوح امامها سوى حرب الاستنزاف لان هذه الحرب هي النوع الوحيد من الحروب الذي من المفروض ان تكون فيها العوامل الاستراتيجية في صالح العرب .

وفي حزيران ١٩٦٨ بدأت اشتباكات محدودة بالمدفعية وفي آب قامت مصر باول غارة اجتازت خلالها القوات المصرية قناة السويس لاول مرة منذ حرب الايام الستة . وقد ادى تراشق عنيف جدا بالمدفعية في شهر تشرين الاول الى قيام اسرائيل باول غارة انتقامية ، وتصاعدت حدة الاشتباكات في غارة نجع حمادي التي تقع ٢٠٠ كيلومتر داخل الاراضي المصرية . وفي الوقت ذاته قررت اسرائيل تعزيز التحصينات التي اقامتها على طول القناة وبدأت في انشاء خط بارليف . وكانت هذه هي الخطوة التي اعتبرتها مصر محاولة من جانب اسرائيل لخلق حدود واقعية دائمة لها بل لقد كانت هذه هي نقطة الانطلاق في بدء حرب الاستنزاف في اذار ١٩٦٩ ، وهي اشبه باستئناف حرب ١٩٦٧ . وكان الهدف المباشر الذي كانت مصر تصبو اليه هو تدمير خط بارليف (وبحلول ذلك الوقت كان حوالي ٣٠٠ طيار مصري قد اتموا تدريباتهم في موسكو وبدأت مصر في انشاء مواقع صواريخ ارض ــ جو « سام ــ ٢ » في منطقة القناة آملة ان تستطيع من خلال ذلك ان تتوصل الى التكافؤ الجوي مع اسرائيل في منطقة القناة) .

وفي ٨ آذار ١٩٦٩ ، قام المصريون بقصف مدفعي مركز وعنيف على المواقع الاسرائيلية في خط بارليف ، استمر من ظهيرة ذلك اليوم وطوال الليل حتى اليوم التالي بحيث انهم اطلقوا ذلك الهجوم حوالي ٤٠٠٠٠ قذيفة مما الحق بالجانب الاسرائيلي اصابات جسيمة . وقد استمرت الحال على هذا المنوال خلال شهري اذار ونيسان ومنذ ١٩ نيسان ، قامت قوات الكوماندوز المصرية بشن عدد من الهجمات ايضا عبر القناة . واعلن الرئيس عبد الناصر في ١ ايار ان ٦٠٪ من خط بارليف قد دمر . وقد انطوى ذلك الاعلان على مبالغة لاشك فيها . وكان رد فعل الجانب الاسرائيلي سريعا ومن النوع الذي تخصصت فيه اسرائيل فقامت باطلاق نيران مدافعها على المنشآت الصناعية والاهداف المدنية عبر القناة . كما قامت بغارات بقوات محملة جوا في عمق الاراضي المصرية وخاصة على الاهداف « الحساسة » . وتعرضت مدينة السويس ومنشآته النفطية والمناطق الاهلة بالسكان في الاسماعيلية وبور سعيد وبور فؤاد وبور توفيق لنيران اسرائيلية كثيفة مما الحق بالسكان المدنيين اصابات عديدة واحدث في تلك المناطق دمارا واسعا . وفي ٢٠ تموز ، قامت القوات البرية والبحرية الاسرائيلية بشن هجوم على الجزيرة الخضراء قرب ساحل خليج السويس . وفي اليوم نفسه حدث اول اشتباك جوي بين الجانبين ادعت فيه اسرائيل بأنها اسقطت خمس طائرات مصرية بينما قالت مصر انه لم يسقط لها سوى طائرتين .



كثافة غطاء صواريخ سام فوق الأراضي المصرية

وقد نقلت الاشتباكات الجوية زمام المبادرة الى ايدي الاسرائيليين فقاموا بشن اول غارة جوية بتاريخ ٢٤ تموز على مواقع صواريخ ارض ــ جو (سام ــ ٢) . وبعد ان بدأت طائرات الفانتوم بالوصول الى اسرائيل من الولايات المتحدة في اوائل شهر ايلول ، بدأ الاسرائيليون بتكثيف غاراتهم الجوية على مواقع صواريخ ارض ــ جو التي بلغت ذروتها في تشرين الاول ١٩٦٩ . وبعد ذلك ادعى الاسرائيليون بانهم دمروا جميع مواقع صواريخ ارض ــ جو ومعظم محطات شبكات الرادار المصرية . والواقع ان طاقات وسائل الدفاع الجوي المصري بدت كما لو انها قد تلاشت تلاشيا شبه كلي . حتى ان الرئيس عبد الناصر قد تخلى عن اي امل ربما كان يراوده في اقامة موطىء قدم للقوات المصرية على الشاطىء الشرقي للقناة ، وذلك في وجه التفوق الجوي الاسرائيلي الكامل في منطقة القناة واجواء دلتا نهر النيل . كما هبطت الروح المعنوية ، التي لم تستعد بعد المستوى الذي كانت عليه قبل سنة ١٩٦٧ ، الى مستوى متدن جديد . وقد واصلت مصر بين الفينة والاخرى شن غارات برية وبحرية متفرقة ولكن السلاح الجوي المصري لم يجرؤ قط من بعد ذلك على مواجهة سلاح الطيران الاسرائيلي بينما تمكنت اسرائيل فيما بين سنة ١٩٦٧ واوائل سنة ١٩٧٠ من القيام بما مجموعه ٢٧٠٠ طلعة جويه فوق الاراضي المصرية .

وقد بلغت الغارات الجوية الاسرائيلية في اعماق الاجواء المصرية ذروتها في كانون الثاني ١٩٧٠ عندما شنت سلسلة من الغارات الجوية المركزة في اعماق الاراضي المصرية بهدف تفتيت الروح المعنوية للشعب المصري وبالتالي الاطاحة بحكم الرئيس عبد الناصر . وفي ١٨ كانون الثاني قامت الطائرات الاسرائيلية بشن غارات جوية على مواقع الصواريخ في كل مــن حلوان والقاعدة العسكرية المجاورة لمطار القاهرة الدولي في آن واحد فيما قامت بشن غارات اخرى على القنطرة وغيرها من الاهداف في منطقة القناة . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى نهاية شهر نيسان . ولم تجد مصر من سبيل آخر سوى الاتجاه الى الاتحاد السوفييتي طالبة منه المزيد من العون والالتزامات الثابتة . وقد اسفرت الزيارة السرية التي قام بها الرئيس عبد الناصر لموسكو عن انشاء قواعد لصواريخ من طراز سام ــ ٣ وبحلول شهر اذار ١٩٧٠ ، كان الخبراء الروس قد تدفقوا على مصر باعداد كبيرة وكان منهم طيــارون لقيادة طائرات الميغ ٢١ س ، وفنيون لتشغيل بطاريات الصواريخ وشبكات الرادار .

وفي شهر شباط قامت الطائرات الاسرائيلية بآخر غارة جوية كبيرة لها بطــائرات الفانتوم على ابو زعبل في دلتا نهر النيل . (وقد ادت هذه الغارة الى مقتل عدد كبير من المدنيين) واشتملت على قصف وضيع لمدرسة اطفال في بحر البقر . وفي شهر نيسان توقفت الغارات الجوية الاسرائيلية فجأة وربما كان السبب يعود جزئيا الى ان الاسرائيليين قد تحققوا من انهم فشلوا في تحقيق الاهداف السيكولوجية التي كانوا ينشدونها من غاراتهم الجوية . ولكن السبب الرئيسي يعود الى وجود الروس في مصر مما كان يعني التزام الاتحاد السوفييتي ضمنا بالدفاع عن قلب الاراضي المصرية . وقد ادى هذا الالتزام الى ردع سلاح الطيران الاسرائيلي الذي اقتصرت غاراته فيما بعد على منطقة القناة .

وقد انتهزت مصر هذه الفرصة فأنشأت قواعد لصواريخ من طراز سام ــ ٣ وبحلول تموز ١٩٧٠ كانت قد اقامت شبكات مكثفة من الصواريخ في المثلث الذي تشكل قناة

السويس قاعدته وتشكل القاهرة رأسه . وفي الوقت ذاته اخذت قوات الجيش المصري تتقدم نحو القناة بمساعدة مستشارين سوفييت على مستوى وحدات الجيش . وبتاريخ ٢٩ ايار ١٩٧٠ ، اعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن وجود مستشارين سوفييت في وحدات الجيش المصري وقال « انهم يعملون مع جميع قواتنا المسلحة في كل مكان » . وقدر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن انه كان في مصر بحلول تموز ما بين ١٠٠ الى ١٥٠ من الطيارين السوفييت وبين ١٠٠٠٠ الى ١٣٠٠٠ خبير يشرفون على تشغيل ما بين ٤٥ و ٥٠ قاعدة لصواريخ ارض ـ جو وما بين ٢٥٠٠ و ٤٠٠٠ مستشار في الجيش .

وقد ادى هذا التغيير الاستراتيجي الى نقل زمام المبادرة مرة اخرى الى ايدي المصريين الذين بدأوا يتخذون من جديد موقفا هجوميا في جوهره وان كان ذلك لمدة موقتة . وقد صعدت القوات المصرية هجماتها من حيث قوتها وتكرارها برا وبحرا على المواقع الاسرائيلية الموجودة في عمق سيناء وصلت في بعض الاوقات الى العريش . غير ان الغارات الانتقامية الاسرائيلية كانت من العنف بحث اجبرت الجانب المصري في نهاية المطاف على التخلي عن شن هجـماته . ففي اوائل شهر حزيران شنت اسرائيل غارات جوية على بور سعيد طيلة ثلاثة ايام فقامت طائراته باربعـمائة طلعة في يوم واحد القت خلالها ٤٠٠٠ قنبلة . ولم تؤد هذه الغارة الى الحاق عدد كبير من الاصابات بالمدنيين فحسب ، وانما ادت ايضا الى عزل مدينة بور سعيد عمليا عن بقية انحاء مصر لعدد من الايام .

وفي اثناء هذه المرحلة بالذات صدر مشروع روجرز واعلن الرئيس عبد الناصر القبول بالمشروع في تموز كما اعلنت الحكومة الاسرائيلية القبو ل به بعد شهر واحد من ذلك . وفي ٧ آب ١٩٧٠ ، بدأ تنفيذ وقف اطلاق النار وكانت مدته في المرحلة الاولى تسعين يوما فقط ، ثم تم تمديد هذه المدة وبقي الجانبان يراعيان وقف اطلاق النار بعد وفاة الرئيس عبد الناصر في ايلول ١٩٧٠ (وان لم يخل الاتفاق من بعض الانتهاكات) حتى نشوب حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

حالة اللاحرب واللاسلم

على الرغم من ان حرب الاستنزاف قد انتهت باكتساب المصريين مزايا استراتيجية من خلال انشاء مواقع صواريخ ارض ـ جو وتقدم قواتهم المسلحة الى منطقة قناة السويس ، فقد تبعت هذه الحرب حالة من خيبة الامل المتزايدة لدى العرب لسببين رئيسيين : اولهما انهيار الجبهة الشرقية وثانيهما استيقاظ المصريين من الاوهام الخادعة التي كانوا يعلقونها على الاتحاد السوفييتي . وقد كان قيام نشاط على الجبهة الشرقية نتيجة واردة ضمنا في مفهوم حرب الاستنزاف . ففي اذار ١٩٦٩ ، كتب الاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الاهرام الواسعة النفوذ قائلا ما معناه : « من الضروري ان تقوم جبهة قتال على كلا الحدود الشرقية والغربية وان يكون هناك تنسيق كامل بين الجبهتين . وقد تحقق الشرط الاول بالفعل من خلال النشاط الذي ابدته القوات الاردنية والفلسطينية والعراقية والسورية والسعودية على طول الحدود الاردنية ـ الاسرائيلية والحدود الاسرائيلة ـ الاردنية ـ السورية التي تمتد

٨٠٠ كيلو متر من خليج العقبة في الجنوب الى المنحدرات الجنوبية لجبل الشيخ في الشمال فيما كان المصريون يشنون حرب الاستنزاف في منطقة القناة . غير ان التنسيق الكامل كان ابعد ما يكون عن التحقيق . فقد كانت جميع هذه القوات تتصرف تقريبا وفق خططها الخاصة مما اضعف فعالية نشاطها العام بشكل ملموس . وبعدئذ ، اي بعد ان قام الملك حسين في ايلول ١٩٧٠ بشن هجومه على رجال المقاومة الفلسطينية انهارت الجبهة الشرقية انهيارا تاما .

وقد كانت الحملة ضد رجال المقاومة الفلسطينية بمثابة نصر كبير لسياسة الحملات الانتقامية الواسعة الرادعة في وادي الاردن كثيرا ما كانت تصل الى عمق الاراضي الاردنية . وبلغ عدد الغارات التي شنتها في شهري اب وايلول وحدهما ما مجموعه ٢٠٠ غارة لم تكن تهدف الى تدمير قواعد الفدائيين فحسب ، بل كانت تهدف ايضا الى تدمير جميع المدن والقرى الواقعة الى الشرق من نهر الاردن ، بما فيها تدمير اهم مشروع اردني للري وهو مشروع قناة غور الاردن . وقد تعمد الاسرائيليون القاء عدد كبير من قنابل النابالم على القرى حتى حولوها الى اكوام من الانقاض وجعلوها قاعا صفصفا .

وقد اضطرت المجموعات الفدائية الى هجر مستوطنات الضفة الشرقية وبدأت تركز قواتها في المدن ، وخاصة في عمان حيث تصرفت في كثير من الاحيان كما لو انها جيش مستقل . ومن هنا فقد ساءت العلاقات بينها وبين قوات الشرطة الاردنية والجيش الاردني النظامي حتى بدأت الاشتباكات بين الجانبين تتكرر . وكثيرا ما اتخذت السلطات الاردنية اجراءات عنيفة ومتطرفة اولا لطرد الفدائيين من عمان ومن ثم تصفيتها تصفية تامة . وبتصفية المقاومة الفلسطينية من الاردن ، تبخرت جميع الامال لاحياء الجبهة الشرقيةلمدة طويلة من الزمن . قد ادى ذلك الى قيام سوريا والعراق ومصر بقطع علاقاتها بالاردن .

وهذا لم يعن انه حدثت في تلك الفترة من الزمن اية اشتباكات تذكر على الجبهة المصرية . فالواقع ان الروس كانوا قد زودوا مصر بالاسلحة والمعدات وبعدد من الخبراء لضمان الدفاع عن الاراضي والاجواء المصرية ولكنهم رفضوا المضي الى ابعد من ذلك . اذ انهم رفضوا رفضا مهذبا ولكن باصرار جميع طلبات مصر من الاتحاد السوفييتي تزويد مصر بقاذفات قنابل وطائرات قاذفة مقاتلة وقد تزايدت الدلائل آنئذ على ان الاتحاد السوفياتي كان معنيا اكثر بامكان تحسين علاقاته بالولايات المتحدة الاميركية . وفضل الروس ترك مسألة نزاع الشرق الاوسط معلقة على نحو ما كانت عليه من حالة اللاحرب واللاسلم التي كانوا مرتاحين اليها . وقد استمرت الامم المتحدة في اتخاذ قرارات تقضي بانسحاب الاسرائيليين من الاراضي التي كانوا قد احتلوها ولكن لم تظهر اي من الاطراف استعدادا لعمل اي شيء لتنفيذ هذه القرارات . ومما زاد الطين بلة ظهور بعض الدلائل التي تشير الى ان الروس كانوا يعتزمون القيام بمبادرات ترمي الى اعادة اقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل .

وفي شهر نيسان ١٩٧٢ قام الرئيس انور السادات بزيارة موسكو لابلاغ المستر بريجنيف بأنه سوف يشن حربا يوما من الايام لانه لم يعهد يرى امامه حلا آخر . غير ان المستر بريجنييف لم يشجع الرئيس السادات على هذا الامر ، تحدوه الرغبة في تجنب قيام مجابهة بين الدولتين العظميين . وقال له الرئيس السادات ان الروس كانوا

يماطلونه طوالي فصلي الصيف والخريف من سنة ١٩٧٢ ، فاجاب بريجنييف بانهم كانوا ينتظرون نتائج الانتخابات الاميركية في شهر تشرين الثاني وكانت جميع الدلائل تشير الى ان الروس كانوا يودون مواصلة الضغط على الرئيس السادات لمنعه من اللجوء الى القوة . وربما قرر الرئيس السادات بعد زيارته لموسكو انه كان يتعين على مصر ان تمضي قدما في اللجوء الى القوة معتمدة على نفسها فقط .

ولكن عندما تبوأ الرئيس السادات المنصب الكبير الذي خلفه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كبطل قومي ، اكتشف انه ورث ايضا تركة مثقلة بالمشاكل . فبعد الهزيمة المريرة المخزية التي لحقت بالعرب سنة ١٩٦٧ ، مع ما كانت تنطوي عليه تلك الهزيمة من مسائل حساسة تمس كرامة وشرف الامة العربية ، اخذ العرب يتطلعون بوضوح الى مصر لكي تتولى قيادة مواصلة الحرب ضد اسرائيل مما وضع على كاهل مصر عبء مسؤوليات ثقيلة .

وجدير بالذكر ان نظرة اسرائيل الاستراتيجية الى مصر قائمة على اساس يختلف عن نظرتها الاستراتيجية الى غيرها من الدول العربية الأبعد عن اسرائيل ، ومن قبيل ذلك ان المقاومة التي تبديها الدول المذكورة لاسرائيل ، كالمملكة العربية السعودية والكويت ودول افريقيا الشمالية ، ليست فعالة الا بمقدار كونها مقاومة كامنة على النقيض من التهديد المباشر لامن اسرائيل من جانب الدول المجاورة لها . غير ان اسرائيل كانت تنظر الى الاردن وسوريا ولبنان والعراق من زاوية تفوقها العسكري مع نزعة الى السيطرة عليها . ولكنها كانت ترى ان تفوقها على مصر وحدها مقيد بشروط . وهذه النظرة الاستراتيجية المشروطة وما يتبعها من رغبة كلا البلدين في البقاء على قيد الحياة هما العاملان اللذان كانا يتجهان الى اظهار النزاع العربي ـ الاسرائيلي كما لو انه نزاع ينحصر بصورة رئيسية بين مصر واسرائيل .

وبصرف النظر عن الدور الذي كان يتعين على مصر ان تلعبه بوصفها ناطقة باسم العالم العربي ، فقد كانت هناك بالمثل عوامل اضطرارية داخلية لا تقل ضغطا والحاحا على الرئيس السادات فيما كانت شهور حالة اللاحرب واللاسلم تمر واحدا تلو الاخر دون ان تبدو في الافق اية دلائل على تحركات نحو ايجاد تسوية لمشكلة الشرق الاوسط . وكان من الصعب ان ينشأ اعتقاد بان المفاوضات من شأنها ان تؤدي الى اي تحسن في الوضع لان كل مشروع نحو هذا الحل تقدمت به الامم المتحدة او غيرها من الاطراف كان يعتمد على قيام اسرائيل بتقديم تنازلات ـ ولم يكن لدى الحكومة الاسرائيلية اي ميل نحو التوصل الى تسوية ـ وفي الوقت نفسه اضطرت مصر الى الاحتفاظ بقوات مسلحة كانت نفقاتها تستنفد اكثر من ربع ميزانيتها كما بقيت قناة السويس مغلقة بحيث وجدت مصر نفسها مجبرة على الاعتماد بصورة متزايدة على المساعدات التي كانت تتلقاها من ليبيا والمملكة العربية السعودية والكويت .

اما متى قرر الرئيس السادات ان يلجأ الى الهجوم المسلح لتحريك ساكن المجتمع الدولي وخاصة الدولتين العظيمتين فيتعذر التكهن به . ولكن لا بد ان يكون ذلك في احد اشهر صيف سنة ١٩٧٢ اذ كان السادات قد قرر فيما اذا فشلت المساعي الدبلوماسية ، ان يلجأ الى الحرب ، ولكنها حرب محدودة ، املت تحديدها عوامل سياسية وعوامل تقدير الرئيس السادات لطاقة قواته المسلحة . وكانت اول خطوة في نظره هي ازالة الوجود الروسي من مصر ، ذلك الوجود الذي كان يغل يديه .

وهكذا في خطوة جريئة ولكن محسوبة العواقب ، امر الرئيس السادات بطرد جميع المستشارين والفنيين السوفييت الذين كان لوجودهم في مصر تأثيرات نفسية لايستهان بها على القوات المسلحة المصرية . وكان الرئيس السادات يعلم علم اليقين ان اخراج الروس من مصر سيكون له اثر مباشر وان كان مؤقتا في الحد من فعالية القوات المسلحة المصرية ، وخاصة في وسائل دفاعها الجوي حيث كان الطيارون والفنيون الروس يلعبون دورا بارزا في توفير مظلة جوية فوق قناة السويس ومنطقة الدلتا . وبالنسبة الى الدفاع الجوي ، فقد تأثرت فعاليته تأثرا كبيراً حتى ان بعض المراقبين العسكريين الاجانب قدره بنسبة تتراوح بين ٩٠ و ٦٠ في المائة ، وخاصة لان عددا كبيرا من صواريخ ارض ــ جو ذاتية الحركة من طراز سام ــ ٦ التي كانت تغطي الفجوة القائمة بين صواريخ ارض ــ جو سام ــ ٢ وسام ــ ٣ المضادة للطائرات التي تحلق على علو شاهق ومتوسط اما اخذه الروس معهم او اصبح مؤقتا عاطلا عن العمل . اما بقية فروع القوات المسلحة المصرية فلم تتأثر تأثرا كبيرا باخراج الروس . ومع ذلك فقد انخفضت طاقة القوات المسلحة المصرية الدفاعية والهجومية انخفاضا لا يستهان به ، حتى ان عددا قليلا من الناس في القاهرة وخارجها ، او على الاقل في اسرائيل ، اعتقد ان القوات المصرية ستقوى على الشفاء من هذه اللطمة ، ولا شك ان الفضل كل الفضل في اعادة بناء القوات المسلحة المصرية خلال الاشهر الأربعة عشر التي تلت انسحاب الروس بحيث تمكنت من شن هجوم مسلح رئيسي ناجح عبر القناة ضد عدو كان يعتقد معظم العالم ، بمن فيه العديد من المصريين ، انه لا يقهر ، انما يعود الى الرئيس السادات ووزير حربيته الجديد المشير احمد اسماعيل (الذي خلف الفريق صادق كوزير للدفاع في تشرين اول ١٩٧٢) .

وبعد انسحاب الروس كانت اول مهمة واجهت الرئيس السادات هي اعداد القوات المسلحة للحرب . فامر بفرض حظر على الاتصالات بين ضباط القوات المسلحة ورجال البعثات الدبلوماسية والاجانب حتى لا تتسرب اخبار تحركاته الى الخارج . وقد انيطت بكبار الضباط مهمة البدء باعداد خطط عسكرية مفصلة على الرغم من انهم لم يبلغوا باي شيء يشير الى الغرض من هذه الخطط . كما ان الضباط الشبان كلفوا بالقيام باعداد تدريبات القوات المسلحة على نطاق واسع . ولكي تضم القوات المسلحة كوادر جديدة من الافراد الذين تلقوا تدريبا تكنولوجيا ، تم تجنيد الاف من طلاب الجامعات في القوات المسلحة المصرية .

حرب طاحنة

كان اول قرار اتخذه الرئيس السادات يتعلق بطبيعة الحرب التي كان يعتزم شنها على اسرائيل . ولم تكن مسألة القيام بهجوم في العمق لتحرير صحراء سيناء واردة على الاطلاق اذ لم يكن في وسع الرئيس السادات ان يكلف جيشه ما لا قبل له به . فقد كان الرئيس السادات على بينة من تفوق اسرائيل في حرب الحركة وخاصة من تفوقها الجوي فيما يتجاوز مدى مظلة وسائل الدفاع الجوي المصري . ومن هنا فقد استبعد القيام بهجوم في العمق منذ البداية . ولهذا فلم يكن امامه الا الاختيار بين العودة الى التراشق بالمدفعية والاشتباكات الجوية مما تميزت به حرب الاستنزاف وبين شن هجوم محدود يهدف الى اقامة رأس جسر على الضفة الشرقية من القناة .

وكان شن حرب استنزاف ثانية يعني انتقال زمام المبادرة من جديد الى ايدي الاسرائيليين ، الذين كان من المتوقع ان يكون ردهم على مثل هذه الحرب ، خاصة بعد رحيل المستشارين السوفييت ، من العنف بحيث يصعد المعارك وينقل الحرب الى داخل الاراضي المصرية . واذن فان النوع الوحيد من الحرب الذي تستطيع فيه مصر ان تحتفظ بزمام المبادرة وتستدرج الاسرائيليين الى حرب استنزاف كان اجتياز القناة واقامة رأس الجسر على ضفتها الشرقية يكون من الكبر بحيث يشكل تهديدا دائما للقوات الاسرائيلية . اذ ان الهجوم المضاد الذي كان من المنتظر ان يشنه الاسرائيليون فيما بعد ، قد يوفر للمصريين فرصة للفتك بهم فيما وصفه الفريق الشاذلي « بحرب طاحنة » . وكانت نتيجة الاستراتيجية التي تم التوصل اليها من خلال تقليب وجهات النظر المختلفة هو ان تقوم القوات العربية بشن الهجوم على جبهتين : الجبهة الجنوبية من قناة السويس والجبهة الشرقية اما من الاردن او من سوريا .

وبناء على ذلك ، اصدر الرئيس السادات الى وزير الحربية الهدف السياسي الذي توخاه من شن الحرب الا وهو :

اعداد القوات المسلحة لضمان النجاح في هجوم تشنه لكسر الجمود السياسي .

وكان هذا الهدف السياسي واضحا وضوحا كافيا وهو لا ينطوي على تحقيق مكاسب اقليمية . وقد اطلق الرئيس السادات على العملية اسم « الشرارة » اي الشرارة التي تولد مناخا سياسيا دوليا .

نحو التضامن العربي

كان الرئيس السادات يتوخى من الهجوم على اسرائيل هدفين سياسيين : اولا ان يبذل مسعى اخيرا للتوصل الى تسوية قضايا النزاع العربي ـ الاسرائيلي عن طريق المفاوضات ، واذا فشل في ذلك ، ان يسعى الى انشاء جبهة عربية سياسية متضامنة قبل شن الهجوم .

وكانت قد مضت ست سنوات من المساعي الدبلوماسية الفاشلة منذ ان تبنى مجلس الامن التابع للامم المتحدة بالاجماع القرار رقم ٢٤٢ الذي يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية في مقابل اعتراف باسرائيل ، وبالتالي مقابل التوصل الى سلام في غربي اسيا . وعلى الرغم من ان سوريا لم تقبل بالقرار المذكور ، فقد قبلت به كل من مصر والاردن كما قبلت به اسرائيل مع اشتراطها بان تقوم بينها وبين العرب مفاوضات مباشرة دون شروط مسبقة . غيرانه لم يحدث في غضون السنوات الست المذكورة ما يحمل للعرب بارقة امل في ان يستعيدوا في يوم من الايام الاراضي التي فقدوها . بل على النقيض من ذلك ، فقد اقامت اسرائيل دليلا ساطعا على اعتزامها تحويل غزواتها الى احتلال دائم ، ومن قبيل ذلك قيامها بانشاء مستوطنات يهودية في هضبة الجولان وفي قطاع غزه وفي شرم الشيخ بل وحتى في صحراء سيناء . ومع ذلك فقد قرر الرئيس السادات بذل مجهود اخير للقيام بمسعى لاحلال السلام .

وفي شباط ١٩٧٣ ، اوفد الرئيس السادات مستشاره لشؤون الامن القومي حافظ اسماعيل في جولة حملته الى موسكو وبون ولندن وواشنطن وغيرها من مدن الولايات المتحدة . وفي الوقت نفسه اوفد وزير خارجيته محمد حسن الزيات الى نيودلهي وبكين . وكانت مهمة الرجلين ابلاغ الزعماء العالميين انهم اذا عجزوا عن اقناع اسرائيل بتقبل

مبدأ الانسحاب الكامل من جميع الاراضي العربية ، فان مصر ستكون على استعداد لتقبل مبدأ الانسحاب الجزئي اذا كان مقرونا بتعهد اسرائيل بالانسحاب من جميع الاراضي المحتلة . وفي لندن عندما سأل حافظ اسماعيل المستر ادوارد هيث بعد المحادثات التي عقدها معه ما اذا كان هناك اي شيء آخر تستطيع مصر ان تفعله لضمان التوصل الى اتفاقية سلام اجابه المستر هيث قائلا : « لا ! فمن الواضح انكم تعملون كل مافي وسعكم في هذا الشأن . « امافي واشنطن فكان الامر مختلفا تماما . فعلى الرغم من ان الرئيس نكسون اعرب عن رغبته في تحريك مفاوضات السلام ، فانه بعد اسبوع واحد من تصريح المسز غولدا مائير بلا لبس ان هضبة الجولان وشرم الشيخ (وكذلك القدس) ليست مناطق خاضعة للتفاوض ، صدر في واشنطن اعلان عن ارسال ٤٨ طائرة قاذفة مقاتلة اضافية من طراز فانتوم الى اسرائيل . وكانت الرسالة واضحة : اي ان رئيس الولايات المتحدة الذي اعيد انتخابه لم يكن مستعدا لتغيير السياسة الاميركية في غربي اسيا . ولم يترك هذا الصد الاخير الذي لقيه الرئيس المصري من حكومة الرئيس نيكسون امام الرئيس السادات من خيار سوى اللجوء الى الحرب . وكان الرئيس المصري على علم تام بأنه لا مصر ولا اية دولة عربية اخرى كانت في وضع يمكنها من استعادة الاراضي المحتلة بالقوة . ولكن اذا تضافرت جهود هذه الدول على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، فقد تحقق الجيوش العربية نجاحا محدوداً من شأنه ان يستحث المساعي الدبلوماسية الساكتة في العالم الغربي وان يكون بالتالي بداية تحرك دبلوماسي نحو التوصل الى تسوية .

وفي تشرين الثاني ١٩٧٢ عقد وزراء خارجية ودفاع اثنتي عشرة دولة من دول الجامعة العربية اجتماعا في الكويت من اجل حل خلافات هذه الدول وتعبئة الطاقات العربية للقيام بمجهود موحد ضد اسرائيل . وقدم في هذا الاجتماع وزير الحربية المصري المشير احمد اسماعيل خطة لتحويل الاقتصاد العربي برمته الى « مجهود حربي» على ان تخصص كل دولة منه ما بين ١٠ و ١٥٪ لخدمة الاغراض العسكرية . وتم في هذا الاجتماع ايضا بحث اقتراح تبني خطة جوية موحدة والانتفاع من جهاد قوات المقاومة الفلسطينية . واهم من هذا كله تم بحث مشروع لاحياء الجبهة الشرقية . غيران هذا المشروع لم يتمخض عن اي شيء لانه لقي معارضة قوية من الاردن الذي تغيب عن الاجتماع . وبناء علي ذلك ، لابد ان يكون الرئيس السادات قد قرر في احد ايام شهر مارس ان يأخذ بزمام الموقف بيده . فاعلن امام مجلس الشعب في القاهرة بانه سيتولى شخصيا رئاسة مجلس الوزراء قائلا ان مرحلة المواجهة التامة اصبحت لا مفر منها . واضاف قائلا إننا لا بد ان ندخل في هذه المرحلة سواء شئنا او ابينا اذ لابد من تحريك الوضع العسكري بكل ما ينطوي عليه من تضحيات ».

وكانت اول مهمة مباشرة اعادة احياء الجبهة الشرقية باشتراك سوريا والاردن . وكل هذا يعني انه لا يتعين على كل من مصر وسوريا ان يستأنف علاقاته الدبلوماسية مع الاردن فحسب ، وانما كان يتعين على سوريا ان تخفف من حدة تصلب سياستها الدبلوماسية نحو اسرائيل بحيث يكون لها هدف سياسي مشترك مع مصر . وكان هذا يعني من ناحية عملية تأييد اهداف سياسة مصر اكثر من تأييد اهداف سياسة سوريا .

وقد تلت اتصالات اجراها الرئيس السادات مع الرئيس السوري حافظ الاسد في

اواخر آذار اجتماعات عقدها رؤساء اركان الجيوش العربية في القاهرة دون ان تؤدي هذه الاجتماعات ايضا الى اية نتائج ملموسة . وربما كان مرد ذلك يعود الى ان المصريين الذين كانوا يرغبون في البوح باسرار قراراتهم الى اقل عدد ممكن من الاشخاص قد اقتصروا في مناقشة استراتيجية العسكرية العربية على مسائل عامة .

وقد اسفرت الغارة التي شنها رجال الكوماندوز الاسرائيليون على بيروت في نهاية شهر نيسان عن حادث خطير نشب خلاله اشتباك دموي في لبنان كان اشبه بحرب صغيرة اهلية بين اللاجئين الفلسطينيين والقوات المسلحة اللبنانية . وفي خلال الايام التسعة التي استغرقتها تلك الاشتباكات سقطت الوزارة اللبنانية : وقد بدا لاسرائيل آنئذ ان هذه الاشتباكات ستمتد الى سوريا التي كان يتوقع ان تتدخل لدعم المقاومة الفلسطينية وهو امر كان من السهل ان يؤدي الى نشوب حرب بين اسرائيل وسوريا . وقد وضعت اسرائيل قواتها في حالة استنفار وحشدت مراكزها على الحدود بكل طواقمها ، وهو امر كلف خزينة اسرائيل اربعة ملايين ونصف مليون ليرة . (وقد كان ذلك الاجراء في نهاية المطاف في صالح العرب من حيث انه اثبت لهم فيما بعد تردد الحكومة الاسرائيلية في تقويض اقتصادها من اجل تعبئة احتياطيها عند اول دلائل تشير الى تعرض امنها) .

وكان من النتائج الاخرى التي تمخضت عن حوادث شهر ايار ان الرئيس السوري حافظ الاسد قد اقتنع اخيرا بوضع استراتيجية مشتركة مع مصر كاجراء وقائي وحيد ضد امكان قيام اسرائيل بهجوم انتقامي على سوريا . وقد قام الرئيس السوري بزيارة عاجلة لموسكو بهدف تعزيز قواته واعادة تسليحها وعاد من هذه الزيارة بتعهدات من الاتحاد السوفييتي بتزويد سوريا بشبكات وسائل دفاع جوي كاملة في جبهة دمشق تضاهي المظلة الجوية التي زودها الاتحاد السوفييتي للدفاع عن قناة السويس . وتعهد الاتحاد السوفييتي ايضا بتزويد سوريا بمعدات عسكرية تبلغ قيمتها ٨٠ مليون جنيه بما فيها ٤٠ طائرة اضافية من طراز ميغ س وبعدد من احدث الدبابات الروسية من طر از ت ــ ٦٢ كما تعهد الاتحاد السوفييتي بتزويد مصر بعدد آخر من صواريخ ارض ــ جو من طراز سام ــ ٦ وعدد من الدبابات من طراز ت ــ ٦٢ .

وفي شهر ايار قام الملك فيصل بزيارة القاهرة ومن المرجح انه قد توصل خلال هذه الزيارة مع الرئيس المصري الى نوع من الاتفاقيات العسكرية تعهدت بموجبها المملكة العربية السعودية بارسال قوات الى جبهات القتال في حالة نشوب حرب وبزيادة مساعداتها المالية الى مصر . كذلك من المرجح ان يكون الملك فيصل قد قبل استعمال النفط كسلاح سياسي للضغط على الولايات المتحدة شريطة ان تثبت كل من مصر وسوريا ان في وسعهما على الاقل شن هجوم يحقــق نجاحا جزئيا .

وكان اول من دعا الى فكرة استعمال استراتيجية النفط كسلاح سياسي محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الاهرام . بيد ان فكرة استراتيجية النفط هذه قد استمدت فيما بعد تأييدا اكبر من خلال الخطوة القيادية المتطرفة الناجحة التي اتخذها الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي عندما بدأ باملاء شروطه على شركات النفط الاجنبية . ولم يبد من الملك فيصل اي تشجيع لهذه الفكرة حتى ذلك الوقت . وكان لا بد من ان يأتي تبني اية استراتيجية مشتركة في هذا الشأن بطبيعة الحال من جانب الملك فيصل بالذات . ومن المحتمل انه في خلال منتصف سنة ١٩٧٣ بدأ يمعن النظر في

هذه الفكرة مع انه كان يود انتظار نتيجة الهجوم العربي قبل اتخاذ خطوات ترمي الى وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ .

وكان التقارب مع الملك فيصل نقطة تحول رئيسية في البدلوماسية العربية لانه كان اوسع رؤساء الدول العربية المحافظة نفوذا كما كان يعتبر دائما اكبر رؤساء الدول العربية سنا فضلا عن ان علاقته بالولايات المتحدة كانت علاقة ودية وثيقة . ولكن ذلك لم يكن ليحول دون تصميمه على الوقوف بحزم ضد الصهيونية ، وانما الشك الوحيد الذي كان يراوده بوصفه حامي الاماكن المقدسة الاسلامية ومسلما محافظا هو قدرة العرب على شن حرب على اسرائيل . ومتى اقتنع بهذه القدرة ، كان لا بد من ان يلقي بثقله دون تحفظ لدعم الجانب العربي ولو لمجرد تحقيق امنيته في ان يصلي في المسجد الاقصى بالقدس قبل ان توافيه المنية .

وقد أتبع السادات نجاح مساعيه الدبلوماسية العربية بزيارة سرية قام بها لدول الخليج العربي والمملكة العربية السعودية في شهر آب سعى خلالها الى دعم تأييد اقتراح استعمال النفط كسلاح . ولا يعرف مدى التأكيدات التي عاد بها الرئيس السادات من هذه الزيارة . ولكن قيل انـــه عاد بتعهدات بتزويد مصر بمبلغ الف مليون جنيه على شكل مساعدات مالية لاعادة تزويد قواتها المسلحة بالمزيد من صواريخ ارض ــ جو من طراز سام ٦ وطائرات الهليكوبتر للقيام بعمليات الانزال . كذلك تردد ان الملك فيصل اشار على الرئيس السادات بان يبعث من يجس نبض الملك حسين من اجل تضامنه في احياء الجبهة الشرقية قبل شن الهجوم على اسرائيل . وفي الوقت ذاته كان المشير احمد اسماعيل قد زار بالفعل بغداد في شهر ايار في سياق جولة روتينية حملته الى دول الخليج العربي ودمشق . وقد بحث خلال تلك الزيارة خطط العراق في دعم الجبهة الشرقية وتبع ذلك اجتماع عسكريين على مستوى عال بين العراق وسوريا دون ان يتوصل الجانبان الى اي قرارات نهائية . وكان العراق قد عرض دائما ان يرسل قواته الى الجبهة الشرقية السورية ولكن الجانب السوري لم يقبل هذا العرض مباشرة .

وقد توجت المساعي المذكورة التي كانت تهدف الى تحقيق التضامن العربي بنجاح المساعي الدبلوماسية التي بذلها الرئيس السادات في عقد مؤتمر القمة بين الرئيس السادات والرئيس حافظ الاسد والملك حسين في القاهرة في شهر ايلول . وكانت سوريا قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الاردن في اعقاب حملة الاردن على قوات المقاومة مما ادى الى اشتباك القوات السورية والاردنية في معركة قصيرة بالقرب من مدينة درعا التي تقرب من الحدود الاردنية ــ السورية . اما مصر فقد قطعت علاقاتها مع الاردن في سنة ١٩٧٢ بعد اعلان الملك حسين عن مشروعه الرامي الى انشاء مملكة عربية متحدة على ضفتي نهر الاردن . وقد بدا ان تزايد الخلافات السياسية بين مصر وسوريا من جانب والاردن من الجانب الاخر اصبح يتعذر التغلب عليه . الا ان الملك فيصل تدخل في هذا الشأن ولعب دورا رئيسيا في ازالة هذه الخلافات . وقد كان اصرار الملك فيصل على وجوب قيام الاردن بدور في احياء الجبهة الشرقية هو الذي ادى في النهاية الى اقناع مصر وعلى الاخص سوريا بالجلوس الى مائدة مفاوضات مع الاردن .

وقد قامت مصاعب كبيرة في وجه التوصل الى اتفاق مع الملك حسين . فقد ابدى كل من العقيد معمر القذافي وقوات المقاومة الفلسطينية والعراق معارضة شديدة للتوصل

الى اي اتفاق مع الاردن . ولكن بما ان عبء الحرب ضد اسرائيل انما كان يقع بالدرجة الاولى على كل من مصر وسوريا ، فقد امكنهما تجاهل هذه المعارضة .

كذلك بذل الملك فيصل بعض المساعي لاقناع الملك حسين بالاتفاق مع مصر وسوريا . وهناك ما يشير الى ان المساعي الاولى التي بذلها الملك فيصل في هذا الشأن قد باءت على الارجح بالفشل . وقيل آنذاك انه ارسل مذكرة الى مقر الحكومة الاردنية قال فيها : « لقد اتضح الان ان الدول العربية اصبحت تعد العدة لشن حرب جديدة وقد تأتي المعركة قبل الاوان » .

غير ان الرئيس السادات كان مصمما على كسر الجمود الذي ساد قضية الشرق الاوسط . وفي حزيران دعا رئيس الوزراء الاردني عبد المنعم الرفاعي الى القيام بزيارة للقاهرة وقد قام الرفاعي بعد هذه الزيارة بزيارات متابعة لدمشق والمملكة العربية السعودية والقاهرة . وقد امكن احراز نجاح تدريجي في غضون الشهرين التاليين فقام الملك حسين بزيارة القاهرة لعقد اجتماع قمة في ١٠ ايلول حيث تمكن من حل معظم خلافاته مع سوريا ومصر وتمخض الاجتماع عن اعلان استئناف علاقات البلدين مع الاردن حسب الاصول في ١٢ ايلول .

وفي خلال اجتماع القمة المذكور اوضح الملك حسين بجلاء انه ليس في مركز يتيح له الدخول في حرب ضد اسرائيل حيث انه لم يكن يتلقى مساعدة من الاتحاد السوفييتي ولم يكن لديه صواريخ ارض ــ جو تحمي قواته البرية وقال ان اشتباكاً مع القوات الاسرائيلية بدون مظلة جوية ، انما هو بمثابة انتحار . ولكنه قال ان القوات الاردنية يمكن ان تلعب دورا مهما ليس فقط من خلال شغلها جانبا من القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية من نهر الاردن فحسب ، بل ومن خلال توفير حماية للجناح الجنوبي للقوات السورية التي كان من المقرر ان تهاجم المواقع الاسرائيلية في هضبة الجولان . وربما كان هذا هو كل ما تم التوصل اليه في مؤتمر القمة المذكور الذي عقد في القاهرة . بيد انه كان كافياً من حيث انه مهد الطريق امام القوات المصرية والسورية لشن الهجوم المقرر على القوات الاسرائيلية . اما الصوت المعارض الوحيد الذي ارتفع في تلك المرحلة ، فقد جاء من الاجنحة المتطرفة للمقاومة الفلسطينية التي شكت في ان يكون المؤتمرون قد ضحوا بتطلعاتها وامانيها . وقد اذاعت احدى محطات اذاعة القاهرة نقلا عن بغداد قولها ان الاتفاق مع الاردن انما يهدف الى الرضوخ الى النظام الاردني والمصالحة معه بسبب الضغوط التي مارستها النظم الرجعية العربية وعلى رأسها حكومة المملكة العربية السعودية .

وقد اتفق ممثلو كل من الدول الثلاث الذين اجتمعوا في القاهرة على اتخاذ خطوات لاجهاض معارضة المقاومة الفلسطينية للحيلولة دون اضعاف المجهود الحربي المشترك . فاقفلت سوريا محطة اذاعة المقاومة الفلسطينية التي استمرت في الاعراب عن معارضتها للاتفاق مع نظام الملك حسين . كما اعلن الملك حسين عفوا عاما عن جميع رجال المقاومة الفلسطينية الذين كانوا وراء قضبان السجون الاردنية . وفي الوقت ذاته جرت اتصالات مع زعماء المقاومة المعتدلين كياسر عرفات بهدف اكتساب دعم المقاومة الفلسطينية للقوات العربية في حالة نشوب حرب . وهكذا ساد الجو السياسي الذي كان قائما انذاك اعتقاد بانه اذا تمكن العرب من شن حرب محدودة ضد اسرائيل ، فان ذلك سيتيح لهم معالجة القضايا الاخرى التي كانت معلقة بينهم ومن هنا اصبح هدف الحرب جليا واضحا .

الفصل الثاني

العرب يعدون
العدة للحرب

في الوقت الذي تولى فيه الرئيس السادات مهمته الرامية الى تحقيق التضامن العربي ، اوكل الى وزير الحربية والقائد العام للقوات المصرية المشير احمد اسماعيل مهمة اعداد الخطط العسكرية استعداداً للمعركة القادمة . وربما كانت اصعب المهمات التي كانت تواجه المشير اسماعيل ورئيس هيئة اركان القوات المصرية انئذ الفريق سعد الدين الشاذلي اعادة تكييف وتدريب القوات المسلحة المصرية ،التي سيطرت على تفكيرها طوال السنوات الست السابقة العقلية الدفاعية والتي لم تكن قد استعادت بعد روحها المعنوية منذ هزيمتها الساحقة في حرب الايام الستة .

وكان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد عين المشير اسماعيل قائداً لجبهة القناة بعد نكسة سيناء مباشرة . وقد شاهد المشير اسماعيل بأم عينه شراذم الجيش المصري وهي تسعى جاهدة الى التقهقر الى ما وراء الضفة الغربية من القناة . وقال آنذاك « انه لم تكن هناك لا جبهة ولا جيش » . وبعد ان تولى المشير اسماعيل مهمة اعادة بناء الجيش المصري واعداده للحرب ، صمم على عدم المجازفة بتعريض هذا الجيش مرة اخرى الى مثل هذا الخطر . وصرح بهذا الشأن في مقابلة اجراها معه الاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الاهرام آنذاك بقوله :« ان اهم ما يشغل تفكيري طوال مدة الحرب هو سلامة قواتي » . مما يعني ضمناً ان اية خطة عسكرية نهائية كان سيتبناها تهدف الى ضمان سلامة الجيش المصري . واضاف المشير اسماعيل قائلا « لقد اطلعت على المجهود الذي بذلته مصر لاعادة بناء جيشها . وكان علي ان اوفق بين اطلاعي على ضخامة هذا المجهود ـ الذي لا يمكن قط اعادته بسهولة ـ وبين تحقيق اهدافي العسكرية . « انني اقدر ماذا تعني خسارة جيشنا مرة اخرى . انها تعني استسلام مصر ويعني استسلام مصر بالتالي تدميرها تدميراً تاماً في هذا الجيل والاجيال التي تليه » . وكان هذا من العوامل الرئيسية التي استند اليها المشير اسماعيل في تقدير مدى المهمة التي يجب ان توكل الى القوات المسلحة المصرية .

واذا كان على القوات المسلحة المصرية ان تبذل قصارى جهدها وينتظر منها ان تهزم قوات العدو التي لقيت على يديها هزيمة منكرة في هجومين صاعقين ، فلا بد ان يخضع نظام تدريباتها المادية والمعنوية لتغييرات جذرية ويجب ان تتوفر لدى افراد هذه القوات

ثقة كاملة في قادتها وفي اسلحتها ومعداتها العسكرية كما يجب ان تتوفر لها حوافز جديدة » .

« وكان في طليعة مقتضيات هذه الامور الجوهرية وجوب اقتناع القوات المسلحة بأن القتال لا مفر منه وانه لن يكون هناك حل بدون اللجوء الى القتال » . وكان المشير اسماعيل قد قرر بدهائه ان حالة اللاحرب واللاسلم التي اطمأنت اليها القوات المصرية لا بد ان تنقلب الى يقين لدى هذه القوات بأنه اصبح من واجبها ان تقاتل من اجل استعادة الاراضي المصرية . وهكذا بدأت حملة سيكولوجية واسعة في صفوف القوات المسلحة المصرية بهدف خلق روح قتالية جديدة في نفوس افرادها وقام المشير اسماعيل شخصياً بزيارة مواقع القوات المصرية حيث اوضح الظروف التي كانت قائمة آنذاك لافرادها ، مؤكداً لها ان الوسيلة الوحيدة المفتوحة امام مصر هي القيام بهجوم على القوات الاسرائيلية . وقد غرس في نفس كل فرد من افراد القوات المسلحة المصرية قناعة بانه اذا لجأ الى القتال ، فانه انما يسعى بذلك الى تحرير الاراضي المصرية التي كانت تابعة لمصر منذ آلآف السنين .

وكان من رأي المشير اسماعيل ان المسألة الجوهرية التالية كانت بث الثقة في نفوس القوات المسلحة بالاسلحة التي بين ايديها . فقد كان هناك شيء من الشعور لدى افراد هذه القوات ان الاسلحة الروسية ــ وخاصة الدبابات والطائرات ــ ادنى مستوى من الاسلحة التي تزود بها الولايات المتحدة اسرائيل . وكانت الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها ازالة هذا الشعور هو بث الثقة في نفوس افراد القوات المسلحة المصرية بأن الدبابات وغيرها من الاسلحة والمعدات الروسية ، وان كانت اقل تطوراً من الاسلحة الامريكية ، فان بالامكان الانتفاع منها الى اقصى قدر ممكن في القيام ببرنامج تدريب مكثف بحيث تستوعب القوات المسلحة استعياباً كاملا طريقة استعمالها وتثبت لنفسها ان استعمال هذه الاسلحة على النحو الصحيح قد يؤكد انها فعالة ضد القوات المعادية .

وقد اختيرت شتى مناطق الدلتا والمناطق المتاخمة للقناة لاجراء التدريبات العسكرية عليها ، حيثما كانت ظروفها وثيقة التشابه بالظروف الحقيقية للمعركة ولطبيعة المهمة التي كان من المقرر ان تناط بالقوات المسلحة المصرية ، وخاصة مهمة اجتياز قناة السويس . وقد تلقت القوات المصرية تدريبات مكثفة على القيام بهذه المهمة على طول مجرى القناة بحيث امتدت حتى وادي النطرون في الصحراء التي تقع الى الغرب من القاهرة ، وفي منطقة البحيرات الى الجنوب من الاسكندرية وعلى طول عدد كبير من مقاطع الممرات المائية لدلتا نهر النيل بل حتى على طول الضفة الغربية للقناة على الطريق ذي خط السير المزدوج الذي يقرب من القنطرة . وقد اقيمت منشآت دفاع تشابه تماماً المنشآت الدفاعية المقامة على ضفتي القناة الشرقية بل لقد اصطنع تيار مشابه لتيار قناة السويس . وتم تدريب القوات المصرية على عبور القناة واختراق خط بارليف المرة تلو الاخرى .

وجدير بالذكر ان الجيش المصري يتكون بصورة رئيسية من قوات من المشاة التي كان عليها ان تواجه قوات معادية تعتمد بصورة رئيسية على القوات المدرعة التي استطاعت من خلالها تحقيق نصر حاسم على القوات المصرية في حربين سابقتين . ولكي يضمن المشير اسماعيل ازالة الخوف السيكولوجي من نفوس افراد القوات المصرية في

مواجهة الدبابات ، فقد عكف على تدريب هذه القوات على صورة وحدات متخصصة في اقتناص الدبابات باستعمال الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات (وهي صواريخ توجه من الكتف من طراز ميلوتكا) بل حتى تدريبها على استعمال القنابل اليدوية المضادة للدبابات . وبعد تدريبات متواصلة على هذا النوع من القتال ، بدأ افراد القوات المسلحة المصرية يتحققون من ان باستطاعة المشاة ان يدمروا بالفعل الدبابات المعادية اذا زودوا بالاسلحة الصالحة والتدريب الصحيح . وهكذا اصبح رجال القوات المسلحة يشعرون في الوقت المناسب بثقة من ان الاسلحة والمعدات العسكرية التي بحوزتهم يمكن ان تعينهم على تحقيق الانتصار في المعركة .

وكان المشير اسماعيل حريصاً قبل كل شيء آخر على عدم تكليف القوات المسلحة المصرية بما ليس في وسعها تحقيقه . لقد نشرت بعض التعليقات في الصحف الغربية تنتقد تقاعس مصر عن استغلال النجاح الذي احرزته في المراحل الاولى من الحرب من حيث اقامة رؤوس جسور على الضفة الشرقية من القناة بشن هجوم في اعماق صحراء سيناء على القوات الاسرائيلية التي كانت ما تزال تترنح تحت وطأة الصدمة التي المت بها . والواقع انه لم يكن لدى المصريين قط اية نية في القيام بعملية عسكرية تتجاوز النطاق اللازم لتحقيق الهدف السياسي الذي وضعه الرئيس السادات نصب عينه . وكان هذا الهدف قد حدد بوضوح وهو القيام بهجوم يكفي فقط لتوليد شرارة ازمة عالمية وبالتالي اقناع الدولتين العظيمتين بأن الوضع في غربي آسيا ينطوي على اكثر مما تتوقعان من اخطار التفجر اذا ما بقيت ازمة الشرق الاوسط دون حل الى ما لا نهاية .

وكان المشير اسماعيل واقعياً تماماً منذ البداية في كل من تقدير طاقة القوات المصرية المسلحة ومتطلبات القيام بتلك المهمة . وعلى هذا الاساس ، حدد قائد العمليات آنئذ اللواء عبد الغني الجمسي هدف القوات العسكرية المصرية بأبسط العبارات الا وهو : شن هجوم محدود لاقامة رأس جسر عبر القناة .

اما حجم رأس الجسر الحقيقي فقد ترك تقديره لقادة القوات العسكرية بعد ان يقلبوا وجهات النظر في الخطط البديلة عندما يقومون بتقييمها بانفسهم . وكانت التعليمات قد صدرت الى قادة القوات البرية منذ كانون الثاني ١٩٧٣ بالمباشرة في العمل على هذا المشروع . اما تقييم المشير اسماعيل الخاص للقوات المعادية فكان على النحو التالي : كان العدو يتمتع بمزايا التفوق الجوي والدراية التكنولوجية والتدريب الدقيق الفعال كما كان ينتظر ان يتلقى مساعدات فورية من الولايات المتحدة الامريكية . ولكن كانت تحد من مزاياه السابقة مساوىء اهمها : طول خطوط مواصلاته وعدم قدرته على تحمل خسائر بشرية وظروفه الاقتصادية الشاقة التي تحول دون تحمله حرباً طويلة الامد وغروره الوضيع . اما العوائق التي تحد من فعالية القوات المصرية فكانت في نظره تدني نوعية الدبابات والطائرات التي تملكها القوات المصرية وهبوط الروح المعنوية المزمن في صفوف هذه القوات نتيجة لسلسلة الهزائم الساحقة التي لحق بها وعدم درايتها بفنون التحرك بسرعة والقيام باعمال خاطفة » . واما المزايا التي كانت تتمتع بها القوات المصرية في رأي المشير اسماعيل فكانت تفوقها العددي في الرجال والمعدات ونزعتها الى القتال بانضباط وتلاحم في معركة مدروسة ومنظمة ومظلة دفاع جوي شبه كاملة تمتد فوق منطقة القناة دعامتها شبكات متكاملة من صورايخ ارض ــ جو .

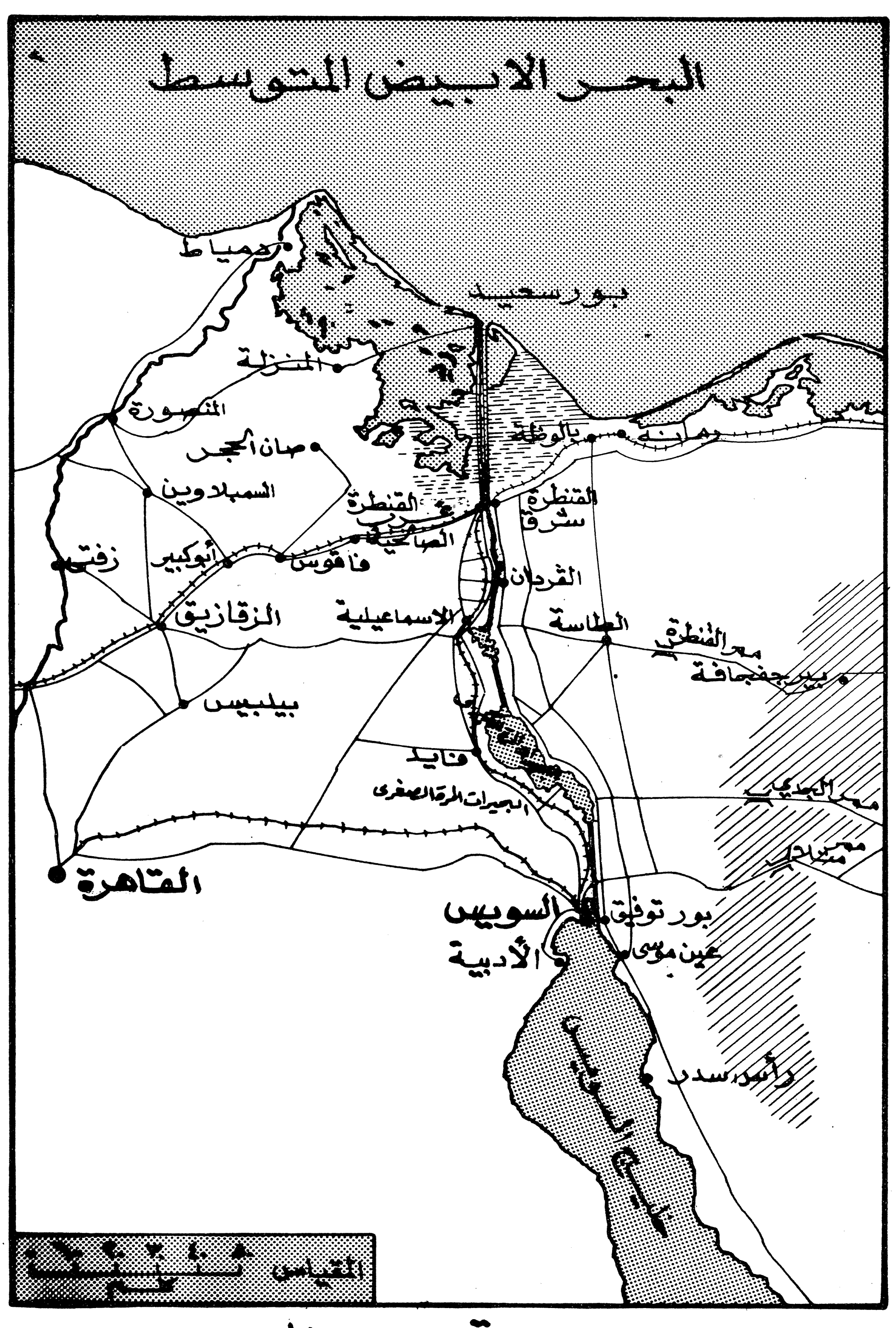
وبناء على العوامل السالفة الذكر ، فقد استقر الرأي على القيام بعملية عامة تستند من الناحية الاستراتيجية الى شن هجوم على جبهة عريضة تمتد على طول قناة السويس ولكنها محدودة من حيث العمق بالمدى الذي تصل اليه صورايخ المظلة الجوية . اما من الناحية التكتيكية ، فقد استقر الرأي على ان يعتمد الهجوم على علمليات تقوم بها قوات المشاة بدعم من القوات المدرعة . وهذه الخطة تعتبر مناقضة تماماً للاتجاهات التكتيكية الحديثة ولكنها في هذه الحالة تكللت بالنجاح الباهر .

وكان الرأي السائد ان شن هجوم على جبهة عريضة من شأنه ان يضطر الجانب الاسرائيلي الى توزيع قواته البرية وغاراته الجوية المضادة على جبهة عريضة مما يجرده من المزايا التي يتمتع بها ويتيح استغلال نقاط ضعفه . وكانت هذه الخطة التكتيكية مناسبة تماماًلهذا الغرض . غير ان اجتياز ممرات مائية هو اصعب العمليات العسكرية . وكان المصريون يخططون لا لاجتياز مجرد ممر مائي عادي ، وانما في الواقع لاجتياز عدة نقاط من الممرات المائية مع القيام بعملية عدد كبير من القوات في الجبهة التي ترابط فيها القوات المعادية . وكان يتعين على جميع القوات المهاجمة ان تقوم بعملياتها على طول جبهة تمتد ١٠٠ كيلومتر لمدة ساعات عديدة بدون دعم من المدرعات . اذلم يكن في وسع الدبابات ان تجتاز القناة الى ضفتها الشرقية الا بعد بناء الجسور . ومن هنا كانت قوات المشاة مضطرة الى الاعتماد على ما كان لديها من الاسلحة والامدادات لذلك العدد الطويل من الساعات . وقد اثبت تكتيك استعمال صورايخ المشاة الجديدة التي دعمت القوات المصرية في هذه الحالة نجاحاً حاسماً من حيث افلاح هذه القوات في عمليات اقامة رؤوس الجسر المطلوبة .

وهكذا فان اساس خطة الهجوم المصري كانت من اعداد المشير احمد اسماعيل . وكان قادة القوات المصرية البرية قد تداولوا في مناقشة تفاصيل هذه الخطة لمدة اشهر عديدة ناقشوا خلالها عدداً من الخطط البديلة بشأن العمق الذي ينبغي ان يصل اليه الهجوم المصري . وقد كان بعض قادة الالوية المدرعة متحمسين لتوغل القوات المصرية حتى خط الممرات ، اي مرتفعات صحراء سيناء التي تشابه نوعاً ما المرتفعات بالقرب من جنوب القناة على ان تتقدم القوات المصرية الى مسافة ابعد نحو الشمال ثم تتجه شرقاً نحو العريش . غير ان الواقعيين من قادة القوات المسلحة لم يتغاضوا عن حدود مدى المظلة الجوية التي توفرها صواريخ ارض ــ جو فقرروا انه اذا اريد ضمان نجاح عملية الهجوم من غير ترك فجوات تصلح لان تستغلها القوات المعادية السريعة الحركة لاختراق خطوط القوات المصرية المهاجمة ومحاصرتها ، فانه يجب ان تظل رووس جسر الهجوم في حدود عمق يتراوح بين ١٥ و٢٠ كيلومترا وهو مدى المظلة الجوية التي توفرها شبكات الصورايخ ارض ــ جو .

مقر القيادة المشتركة

ربما كان من الجدير في هذه المرحلة ان نتساءل عما اذا كان هدف عسكري محدد تحديداً صارماً في جبهة واحدة يمكن ان يفي بالمتطلبات الاستراتيجية لحرب يشن خلالها جيشان كبيران هجومين من اتجاهين منفصلين انفصالا كبيراً . وعلى الرغم من انه كان من المفروض ان يشن الهجوم الاكبر من الجبهة الجنوبية ، فقد اثبت الهجوم الذي شنه السوريون على جبهة هضبة الجولان انه اسهم اسهاماً يضاهي اسهام


البحر الابيض المتوسط
دمياط
بورسعيد
المنزلة
المنصورة
صان الحجر
بالوظة
رمانه
السمبلاوين
القنطرة غرب
القنطرة شرق
الصالحية
فاقوس
أبوكبير
زفتى
الزقازيق
الاسماعيلية
القردان
الطاسة
ممر القنطرة
بير جفجافة
بلبيس
فايد
البحيرات المرة الصغرى
ممر الجدي
ممر متلا
القاهرة
السويس
بور توفيق
عين موسى
الأدبية
رأس سدر
القياس

جبهة سيناء

الهجوم المصري من حيث الاهمية في الخطة الاستراتيجية العربية العامة . ولكن ما هو مدى التنسيق العسكري بين الجبهتين ؟

في كانون ثاني ١٩٧٣ افتتح مقر القيادة المشتركة لاتحاد الجمهوريات العربية (مصر وليبيا وسوريا) في مبنى يقع في ضاحية ناصر الجديدة التي تقع الى الشرق من القاهرة . وعلى الرغم من ان ليبيا انسحبت فيما بعد من الحرب ، فقد كانت هذه « القيادة المشتركة » وهو الاسم الذي اطلق عليها فيما بعد ، مقر مراقبة سير العمليات اثناء الحرب . وقد تولى المشير احمد اسماعيل منصب القائد العام . وكان قائد العمليات من الجانب المصري اللواء بهي الدين نوفل الذي سبق ان تولى منصب قائد العمليات العسكرية المصرية قبل الفريق عبد الغني الجمسي . وكان نظيره من الجانب السوري اللواء عبد الرزاق الدردري قائد عمليات القوات المسلحة السورية .

وكان الجانبان قد اتفقا منذ البداية على ان تتولى القيادة العربية المشتركة مهمة تنسيق العمليات العسكرية لا قيادتها حيث تم الاتفاق على ان يتولى قيادة عمليات المعارك الحربية قيادتان عامتان منفصلتان احداهما مصرية والاخرى سورية . وكان من النتائج الضمنية لهذا الترتيب ، بناء على ذلك ، ان تعمل جميع القوات العربية التي قد تشترك في الحرب في موعد لاحق تحت امرة اما القيادة المصرية او القيادة السورية وليس تحت امرة القيادة المشتركة حيث ان القيادة المشتركة لم تكن تملك صلاحية قيادة العمليات الحربية . ومن سوء الطالع ان هذا الترتيب الذي اقتضت عوامل الامن ان يظل من الاسرار قد خلق نوعاً من الامتعاض ، وخاصة في العراق ، حين ارسل العراق قوات كبيرة العدد للاشتراك في الحرب فوجد انه كان يتعين على تلك القوات ان تعمل تحت امرة القيادة السورية .

وكانت مسؤوليات القيادة العربية المشتركة تنحصر في امور رئيسية ثلاثة هي : اتخاذ اجراءات امن لضمان سرية الخطط والقيام باعمال التمويه والاهم من ذلك القيام باعمال تنسيق توقيت الهجوم . وقد انطوى هذا الترتيب الدي حدد مسؤوليات القيادة العليا على ضعف متأصل في الجانب العربي ، ونعني به الافتقار الى سلطة مركزية تتولى تخطيط عملية عسكرية او سياسة استراتيجية . بيد انه ينبغي الا يغيب عن الاذهان انه عندما اتفقت الدولتان على انشاء مثل هذه القيادة كانت الاهداف السياسية لكل منهما على طرفي نقيض . ففي حين كانت اهداف الحكومة المصرية تحرير الاراضي العربية المحتلة كان الهدف السياسي للحكومة السورية طبقاً لسياسة حزب البعث الاشتراكي ، ازالة الحكم الصهيوني من اسرائيل . ولم يوافق الرئيس السوري بحيث يتمشى مع اهداف الحكومة المصرية الا بعد مدة طويلة لاحقة ، اي في أواخر صيف ١٩٧٣ .

الحاجة الى مفاجأة العدو

تؤكد الكتب المدرسية العسكرية ان عنصر المفاجأة هو عامل رئيسي في التخطيط للقيام بهجوم . فهو يتيح للقوات المهاجمة لا ان تأخذ القوات المعادية على حين غرة وتحافظ على زمام المبادرة بيدها لمدة اطول فحسب ، ولكنه يمكن القوات المهاجمة ايضاً من تخفيف اصاباتها ، وخاصة عند مهاجمة تحصينات دفاعية كخط بارليف . وكان

العرب في هذه الحالة في امس الحاجة الى تحقيق عنصر المفاجأة التامة .
ولقد دلت تجارب حرب سنة ١٩٦٧ على ان الاستراتيجية الاسرائيلية القائمة على مواجهة اية مجابهة فجائية مع العرب تستند الى القيام بتوجيه ضربة وقائية . اذ ان النظام الاقتصادي العسكري الاسرائيلي برمته قائم على سرعة نقل الموارد البشرية من المنشآت الصناعية لتلبية الاحتياجات العسكرية او ، بعبارة اخرى ، على الاحتفاظ بخط امامي ضيق على طول حدود اسرائيل تستطيع ان تستخدمه بسرعة كمنطلق لشن هجوم في حالة تصعيد المجابهة . ولهذا السبب فقد ابتكرت الاركان العامة الاسرائيلية خطة مفصلة تفصيلا محكماً ، يقال انها افضل خطة للاسراع بتعبئة القوات العسكرية في العالم . وبناء على هذه الخطة ، اذا تلقت الاستخبارات العسكرية ادنى اشارة تدل على اعتزام العرب شن هجوم على اسرائيل ، فان اسرائيل تسارع الى توجيه ضربة وقائية بقواتها الجوية والبرية ضد جبهة قناة السويس او الجبهة السورية ولو من قبيل احباط هجوم العدو . ولهذا فقد كانت الضرورة القصوى تحتم على القيادة العربية المشتركة ضمان حفظ اعتزامها شن هجوم على اسرائيل طي الكتمان الشديد بأي ثمن .
ولقد تجاوز تقدير المصريين لعامل المفاجأة مجرد مقتضيات توقيت الهجوم . فقد قرروا ان مفاجأة العدو ينبغي ان تكون من الضخامة بحيث توقع الارتباك والبلبلة في صفوف الاسرائيليين لشل حركة رد فعلهم . وقد قدرت القيادة العامة في القاهرة ان رد الفعل الاسرائيلي المذكور قد يأتي على وجهين : فبعد ان يكون المصريون قد شنوا هجومهم في منطقة القناة يمكن ان تلجأ القيادة الاسرائيلية العليا الى نظام تعبئة احتياطيها في غضون ٤٨ ساعة وتقوم بهجومها المعاكس المدروس بعد تلك المدة او قد تصاب بفزع يجعلها تتخلى عن هذا النظام الذي وضع باحكام فتأخذ في تعبئة احتياطيها على دفعات تدريجيّة وهو امر قد يصيب اسرائيل بكارثة . ولن تضطر اسرائيل الى انتهاج المنهج الثاني الا اذا فوجئت مفاجأة تامة بالهجوم المصري وبتصاعده السريع . وقد صمم المشير اسماعيل على ان يجبر اسرائيل على اللجوء الى المنهج الثاني وامر المخططين المصريين ان يراعوا هذه الناحية .
ولقد تمتع العرب في سياق مساعيهم لحفظ خططهم العسكرية طي الكتمان بمزيتين كبيرتين : الاولى نفسية والثانية سياسية . فمن الناحية النفسية ، استطاعوا ان يستغلوا غرور الاسرائيليين لمصلحتهم . اذ ان الانتصارات الساحقة التي احرزها الاسرائيليون في الحربين اللذين شنوهما في سنتي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وخاصة في الحرب الاخيرة التي قضت تماماً على المقاومة ، وما تبع تلك الانتصارات من دعاية شنها الاسرائيليون لتشويه الاسباب التي ادت الى هزيمة العرب هزيمة نكراء قد خلقت في نفس الشخص الاسرائيلي العادي شعورا طاغياً بالعجرفة العرقية والاستهانة بقدرة العرب القتالية . ولم يكن هناك ما يحمل الاسرائيليين على تغيير هذا الشعور بعد الغارات التي شنوها على المواقع المصرية في خليج السويس وفي غيرها من المناطق خلال سنتي ١٩٦٨ ــ ٦٩ التي ابدت فيها القوات المدافعة القليل من المقاومة والمقدرة القتالية . وهكذا بحلول السبعينات ، وقع الاسرائيليون فريسة لدعاياتهم الخاصة واخذ يتكون لديهم اعتقاد داخلي بأن قواتهم لا تقهر . واما من الناحية السياسية ، فان تعهدات الرئيس السادات التي بدت عقيمة بالنسبة الى « عام الحسم » وتعهداته المتكررة بشأن معارك التحرير في سيناء قد عززت بالتدريج شعور الاسرائيليين بأن

العرب ما كانوا يجهرون بهذه التعهدات الا لاغراض الاستهلاك المحلي وان قواتهم لن تصلح لخوض اية حرب لمدة طويلة من الزمن . فكانوا بذلك يعللون النفس بأن العرب قد يضعون الخطط ويقومون بالمناورات ويركزون قواتهم في الجبهة ولكنهم ليسوا في مركز يتيح لهم ان يشنوا اي هجوم اما عبر قناة السويس او في اي مكان آخر . وليس من المستبعد ان يكون الرئيس السادات والمشير احمد اسماعيل قد تعمدا بعد سنة ١٩٧٢ ان يتصرفا بصورة تهدف الى تعزيز شعور الامن الموهوم هذا لدى الاسرائيليين .

اما المزية الثانية التي ساقها حسن الطالع في صالح العرب فكانت انشغال اسرائيل بعمليات المقاومة ، وخاصة في الخارج ، خلال السنوات الثلاث التي سبقت الحرب . فبالنظر الى افتقار اسرائيل الى الموارد البشرية في جميع فروع الخدمات العسكرية ، اضطرت في سياق تركيز مخابراتها العسكرية على اعمال الفدائيين في غرب آسيا واوربا الى سحب عدد كبير من رجال مخابراتها من الوظائف العادية التي كانوا يقومون بها في مراقبة القطاعين المصري والسوري . ولا يعني ذلك ان الحكومة الاسرائيلية كانت على غير بينة من فجوات المراقبة التي اسفرت عن نقل عملائها من وظائفهم . والارجح انها اقترحت ان لجوء العرب الى « الارهاب » انما كان يدل على انهم لم يكونوا يفكرون في القيام بحرب تقليدية . وقد نسب الى الجنرال ديان والى رؤساء اركان حرب الجيش الاسرائيلي المتعاقبين تصريحات مفادها ان العرب قد تحولوا الى الارهاب لا لشيء الا لانهم عجزوا عن مواجهة اسرائيل في حرب مكشوفة .

ومهما يكن من امر هذه التصريحات ، فقد كانت الضرورة تفرض على العرب ان يخفوا عن الاسرائيليين الخطوات الخطيرة التي كانوا يبيتونها قبل ان يتمكنوا من شن هجوم لعبور القناة . وكان من السهل في بادىء الامر الاحتفاظ بهذا السر حيث انه لم يكن يعلم به احد سوى الرئيس السادات والمشير احمد اسماعيل . اما الخطط العسكرية التي افلحا في ايهام الاطراف الاخرى بأنها انما كانت خططاً استراتيجية روتينية ، فلم تكن تتجاوز جدران مقر القيادة العليا . ولكن فيما سارت الاستعدادات على قدم وساق ، اصبح من الضروري اطلاع المزيد من الاشخاص على السر . فقد تعين على القيادة ان تأمر بارسال قوات للقيام بأعمال استطلاعية واعمال الدوريات . كما كانت الضرورة تقتضي اصدار اوامر بنقل القوات والذخائر والامدادات واللوازم ومعدات الجسور الى خطوط الجبهة الامامية تدريجياً بالاضافة الى القيام بمهمات اخرى متعددة كانت تقتضيها القيام بعملية من هذا النوع . وفي النهاية اقتضت الضرورة في غضون الايام القليلة التي سبقت الحرب اعداد القوات الامامية اعداد حقيقياً للمعركة ، بما في ذلك حشد دباباتها وغيرها من العربات التي كانت تترك اثار سيرها على الرمال بحيث يعرضها لا لالتقاط صور طائرات الاستطلاع الاسرائيلية فحسب ، بل لآلات تصوير الطائرات الامريكية من طراز س ر ــ ٧١ التي تحلق على علو شاهق وكذلك صور ومعدات استطلاع الاقمار الاصطناعية . بل ان اصوات تحركات هذه المدرعات والسيارات لم تكن لتخطىء آذان رجال مراكز المراقبة الاسرائيلية في خط بارليف الذين كانوا في مخابئهم على بعد لا يتجاوز بضع مئات من الامتار فقط . ولو ادرك الاسرائيليون ان هذه التحركات انما كانت تهدف الى شن هجوم لكان رد الفعل الاسرائيلي سريعاً وحاسماً حيث كانوا سيقومون بتوجيه الضربة الاولى ضد القوات العربية ، تلك الضربة التي ربما ادت الى عرقلة الخطط العربية التي اعدت بكل دقة .

ولذلك لكي يخفي العرب نواياهم ـ ان لم يستطيعوا اخفاء استعدادتهم ـ عن الجانب الاسرائيلي ، فقد لجأوا الى استخدام خطة خداع مدبرة بحكمة وروية تتمشى جنباً الى جنب مع اجراءات الامن التي اتخذوها . فقد اوهموا الاسرائيليين ان اية خطوة اتخذوها انما كانت اعادة روتينية لتدريباتهم السابقة التي تعني احداث قرقعة سلاح لا طحناً او انهم اوهموا الجانب الاسرائيلي بأن قواتهم كانت تقوم بمناورات الخريف العادية وان المصريين انما كانوا يحافظون على تدريب قواتهم واعدادها للحرب تمشياً مع اعداد الجيش للسيكولوجية المعتادة لمواجهة الحرب . وعمد المصريون من ناحية اخرى تحسباً لوقوع اي اشتباك حقيقي مع الاسرائيليين الى اظهار ذلك الاشتباك كما لو كان يبدو من العمليات الدفاعية لا الهجومية . وقد نجح المصريون والسوريون في خطط الايهام المذكورة الى ابعد من الحدود المتوقعة .

وهكذا اعد المشير اسماعيل مخططاً دقيقاً وخطة متقنة لخداع العدو . وقد استهل عمله بتحسين المواقع الدفاعية على الضفة الغربية فأمر برفع مستوى الشاطيء الرملي على طول قناة السويس الذي كان على اي حال ادنى بكثير من مستواه على الضفة الرملية التي كان يحتلها الاسرائيليون . ثم امر بانشاء عدد من الاستحكامات التي ترتفع عن مستوى الضفة الرملية نفسها والتي كانت تبدو كما لو كانت نسخة اخرى عن الاستحكامات الدفاعية التي انشأها الاسرائيليون وان كانت بطبيعة الحال ليست محكمة . غير ان هذه التحصينات قد استعملت بصورة ممتازة كمراكز استطلاعية لم تكن من قبل متيسرة لدى المصريين . وقامت مصر بادخال عدد من التحسينات في التحصينات الدفاعية شغلت جانباً كبيراً من القوات المصرية تحت مراكز المراقبة الاسرائيلية وبصرها . وقد تكون لدى الاسرائيليين على مدى الاشهر انطباع بأن الجيش المصري كان مشغولا في دعم تحصيناته الدفاعية او بأي عمل يتعلق بالاستعدادات الدفاعية كاستحضار كميات كبيرة من الذخيرة وتحسين شبكة خطوط المواصلات مما لم يعد يثير في نفوس الاسرائيليين اي نوع من الشكوك في نوايا المصريين .

وفي شهر ايلول نشرت جريدة الاهرام خبراً مفاده ان الجيش المصري كان يعد قائمة بالضباط الذي يودون اداء فريضة الحج في فصل الشتاء في مكة المكرمة . كما اعلنت عن اعتزام قيام وزير الدفاع الروماني بزيارة الى القاهرة في النصف الاول من شهر تشرين اول .

اما مدى هذه الاجراءات المصرية في تهدئة خواطر الاسرائيليين وادخال شعور من الطمأنينة الزائفة الى قلوبهم ، فيمكن الحكم عليه من نوعية رد فعلهم للتحذيرات التي كانت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية قد اصدرتها الى الاسرائيليين . فبحلول الاسبوع الثالث من شهر ايلول بدأت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية باحاطة مناورات الجيش المصري بهالة من الشكوك بالنظر الى اشتراك قوات كبيرة فيها بتشكيلات يبلغ تعدادها فرقاً بأكملها .

وبالاضافة الى ذلك ، التقطت محطة مراقبة امريكية سرية تقع في مكان ما من الاراضي الايرانية عدداً كبيراً من الاشارات اللاسلكية التي تنم عن حركة نقل كبيرة ، وذلك من على شبكة المواصلات المستخدمة في جبهة قناة السويس تثير الشكوك ، وفي الوقت ذاته وردت تقارير تشير بما لا يدع مجالا للشك الى قيام الجيش السوري باستعدادات حربية في جبهة دمشق . وقد نقلت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية

كل هذه المعلومات الى الاستخبارات الاسرائيلية وتساءلت عما اذا كانت تلك التحركات العسكرية تنم عن قيام العرب باستعدادات لشن حرب على اسرائيل . وقد قرر الجانب الاسرائيلي بأن الجواب عن هذه التساؤلات هو النفي .

وكما تكهنت القيادة المصرية العليا تماماً ، فقد كان ذلك من الاوقات التي شغلت بال الاسرائيليين بعيداً كل البعد عن التفكير في نشوب حرب . فقد كان الاسرائيليون يقومون آنئذ بنشاط واسع في خارج اسرائيل وفي داخلها مما الهى المسؤولين الاسرائيليين عن التفكير في الحرب . ففي نيويورك كانت الجمعية العامة للامم المتحدة قد افتتحت لتوها جلساتها من جديد . وكانت اسرائيل تعلم ان وزير خارجية الولايات المتحدة الدكتور هنري كيسنجر سوف يعرض مقترحات جديدة فيما يتعلق بتسوية مشاكل المنطقة . اما في اسرائيل نفسها ، فكان السياسيون مشغولين في اعداد برامجهم للاشتراك في الانتخابات العامة التي كان مقرراً اجراؤها في اواخر شهر تشرين اول . وفي ضوء كل اوجه النشاط المذكورة التي كانت قمينة بالهاء انظار المسؤولين الاسرائيليين ، كان من السهل على اسرائيل ان تتجاهل الانباء غير السارة التي وردت من وكالات الاستخبارات الامريكية عن الاستعدادات الحربية العربية .

واذن فان وقوع اسرائيل في خطأ الحسابات لم يكن ناتجاً حتما من افتقارها الى المعلومات ، حيث ان اجهزة التنصت التي اقامها الامريكيون في صحراء سيناء كانت كفيلة باكتشاف اعداد القوات المسلحة المصرية للقتال بل حتى ان توقف قيام الطائرات الاسرائيلية برحلات استطلاعية فوق الاجواء المصرية خوفاً من تعرضها لصورايخ ارض جو لم تكن لتعيق اسرائيل عن كشف ما كان يجري في الجانب المصري حيث ان قمراً صناعياً من طراز «ساموس » «كان الامريكيون قد اطلقوه من قاعدة فاند ينبرغ الجوية بولاية كاليفورنيا كان معداً بنوع خاص للدوران في محور يكشف منطقة غربي آسيا . وكانت المعلومات التي يحصل عليها توضع بلا تحفظ تحت تصرف الاستخبارات الاسرائيلية .

ولكي ينمي الرئيس السادات شعور التهاون لدى الاسرائيليين واستكانتهم الى الاطمئنان بأن كل ما يجري في مصر انما كان ضمن المألوف ، فقد فعل ما كان آخر ما يتوقع ان يفعله اي رئيس دولة ينوي القيام بهجوم مباغت ، حيث انه القى خطاباً عرج فيه على مسألة اللجوء الى الحرب بتاريخ ٢٨ ايلول في سياق كلمة القاها بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاة المغفور له الرئيس جمال عبد الناصر ، اختتمها قائلا ما ترجمته ما يلي :

ايها الاخوة والاخوات : لعلكم لاحظتم ان هناك موضوعاً واحداً لم احدثكم عنه ، الا وهو موضوع اللجوء الى الحرب . وقد تجاهلت هذا الموضوع عن عمد . اننا نعرف هدفنا ونحن مصممون على تحقيقه . ولن نألو جهداً في بذل اي مجهود او تضحية في سبيل تحقيق هدفنا هذا . انني لا اعدكم بشيء . ولن ابحث اي شيء معكم باسهاب . غير انني اقتصر على القول ان تحرير اراضينا يحتل المقام الاول من تفكيرنا . واننا باذن الله سنحقق هذا الهدف . فهذه هي ارادة الشعب بل هي ارادة الله سبحانه وتعالى .

ولئن انطوى خطاب السادات هذا على اي تهديد ضمني ، فقد تلاشى اثر هذا التهديد بفعل توقيت الخطاب : اذ لا بد ان يكون الاسرائيليون قد فهموا منه انه « عام حسم » آخر مما كان الرئيس السادات قد هدد به من قبل لتهدئة خواطر الشعب

المصري . وفي اليوم التالي تماماً لهذا الخطاب جاء حادث قصر « شوناو » الذي كان من حسن طالع مصر ، ام لعله كان حادثاً مدبراً تدبيراً محكماً ، بقصد الهاء الاسرائيليين عما يحاك ضدهم .

ويتلخص الحادث في ان الفدائيين الفلسطينيين الذين ينتمون الى منظمة الصاعقة التي تتخذ من سوريا قاعدة لها قاموا في النمسا باحتجاز قطار قادم من موسكو يحمل عدداً من اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي الى فيينا . وقد طالب الفدائيون السلطات النمسوية باغلاق حدود النمسا امام المهاجرين اليهود واغــلاق قصر « شوناو » كمركز لعبور واستراحة هؤلاء المهاجرين . وقد ادى رضوخ السلطات النمسوية لمطالب الفدائيين الى استشاطة غضب السلطات الاسرائيلية الذي استمر تقريباً طوال الاسبوع التالي بحيث انشغل قادة القوات العسكرية ورجال الاستخبارات الاسرائيلية انشغالا تاماً بالمضاعفات التي ترتبت عن هذا الحادث ، مما الهاهم عن التحذير الذي كان الجنرال ديان قد اصدره اليهم قبل ايام قليلة فقط .

فقد تناهت الى مسامع الجنرال ديان في الاسابيع الاخيرة من شهر ايلول انباء انتشار المدرعات السورية على الجبهة . وقد تخوف من هذا الانتشار تخوفاً كافياً دفعه الى اصدار امر باستنفار القوات الاسرائيلية المرابطة على كل من جبهتي هضبة الجولان وقناة السويس . كما قام سراً بتعزيز القوات المرابطة على الجبهة السورية باللواء المدرع الاسرائيلي السابع . وقد قيل ان هذا القرار هو اهم قرار اتخذته القيادة الاسرائيلية العليا آنذاك : فلولا وجود اللواء الاسرائيلي المدرع السابع لتمكنت القوات السورية المهاجمة على الارجح من ابادة الحامية الاسرائيلية في هضبة الجولان في اول هجوم سوري مدرع شامل عليها . اما القادة الاسرائيليون الاخرون فقد ابدوا اكتراثاً اقل من اكتراث الجنرال دايان . ففي اثناء التصريحات التي ادلى بها القادة الاسرائيليون السياسيون الى الصحفيين خلال الايام العشرة التي سبقت الحرب اكد هؤلاء اعتقادهم بأن القادة العرب ليسوا على استعداد لشن حرب واضافوا قائلين انه ، على اسوأ تقدير ، قد يخطىء القادة العرب في عملية حسابهم ويشنوا هجوماً ولكن جيش الدفاع الاسرائيلي قادر على صد ذلك الهجوم . وقد تبنى رجال الاستخبارات الامريكية الذين رضخوا لنفوذ رجال الاستخبارات الاسرائيلية الرأي نفسه القائل ان العرب ليسوا على استعداد لشن حرب .

بل ان الجنرال دايان لم يكن يعتقد في قرارة نفسه بأن الحشود السورية في جبهة الجولان كانت ترمي الى شن حرب على الرغم من تحسبه لهذه الحشود صحيح انه امر باستنفار القوات الاسرائيلية . ولكنه قصر عن اعلان التعبئة العامة وهي عملية كانت ستكلف الاقتصاد الاسرائيلي خسارة ملايين الليرات . ففي اجتماع عقده مع رئيسة الوزراء الاسرائيلية المسز مائير في صبيحة يوم الحرب . اشار الجنرال دايان على المسز مائير بعدم اعلان التعبئة العامة لانه لم يكن يرى ان الحرب كانت ستنشب وقد قال الجنرال دايان عن ذلك فيما بعد انه لم يكن الوحيد الذي كان ينادي بهذا الرأي . بل قال انه لم يسمع آنذاك احداً يقول ان الحرب كانت واقعة .

الفصل الثالث

الخطط الاسرائيليــة في صحراء سيناء

ان صحراء سيناء هي عبارة عن مثلث معكوس من الرمال والتلال الرملية يشكل الجزء الاسيوي من دولة جمهورية مصر العربية الذي يفصل دلتا النيل عن منطقة القناة من جهة صحراء النقب من حدود اسرائيل . وكانت القوات الاسرائيلية قد اجتاحت صحراء سيناء خلال حرب الايام الستة في حزيران سنة ١٩٦٧وظلت تحتلها منذ ذلك الحين . اما القسم الذي يهمنا هنا من صحراء سيناء فهو قطاعها الشمالي الغربي الذي يضم الضفة الشرقية من قناة السويس وهي تمتد من ساحل البحر الابيض المتوسط في الشمال الى قناة السويس في الجنوب . فقد ركز الاسرائيليون على هذه المنطقة بالذات وعلى خط المرتفعات الذي يبدأ في رأس سدر في الجنوب ويميل تدريجياً الى الشمال الشرقي من العريش لنشر معظم قواتهم في سيناء ، وانشأوا خطوط دفاعهم الرئيسية هناك .

والواقع ان خطوط الدفاع الاسرائيلية الرئيسية المذكورة قد ارتكزت على قناة السويس نفسها التي تعتبر عقبة حربية كأداء على الرغم من ان متوسط عرض القناة لا يزيد على ٩٠ متراً فقط ، مما يجعلها سهلة لعبور مجموعات من المشاة في قوارب الاقتحام . ولكنها مع ذلك ليست ممراً مائياً يسهل عبوره كما تسهل عملية عبور نهر في مثل عرض القناة . فقد اقيمت شواطيء القناة من الحجارة المسلحة التي تكاد تكون عمودية الشكل مما يجعل من الصعب اقامة جسر بين شاطئيها بالمعدات العسكرية ، حيث ان اقامة جسر كهذا يحتاج الى طريق في مستوى منسوب مياه القناة . وبما ان مياه القناة معرضة لتأثيرات المد والجزر من البحر الابيض المتوسط وخليج السويس معاً ، فانها تحتوي على تيار قوي نسبياً تتراوح سرعته بين ثلاث واربع عقد بحرية في الساعة مما يعكس حركة تدفق المياه بحسب حركة المد والجزر . وعلاوة على ذلك ، فقد حصن الاسرائيليون ايضاً شاطيء القناة باعتبارها عقبة حربية ببناء خط بارليف خلال حرب الاستنزاف .

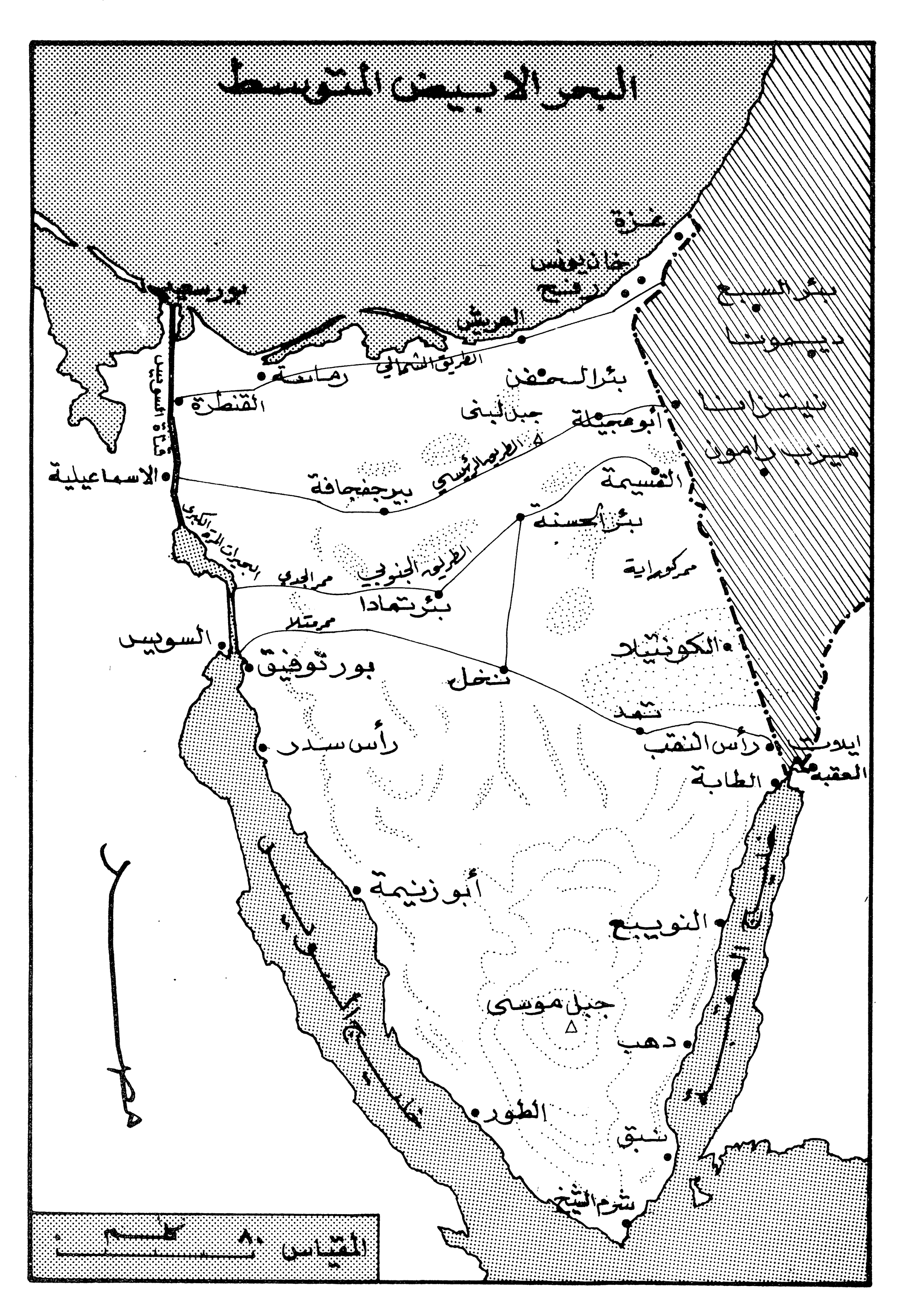
كذلك ادت عمليات جرف قاع القناة طوال مئات السنين الى تجميع اكوام من الرمال على الضفة الشرقية القاحلة اكثر من تكويها على الضفة الغربية الصالحة للزراعة . واستعمل الاسرائيليون هذه الاكوام الرملية الجاهزة لبناء خط متواصل من الحواجز الرملية وصل ارتفاعها في بعض الاماكن الى ١٨ متراً لمنع اية محاولة لعملية عبور قوات

معززة بآليات او للاحتجاب عن انظار المصريين المرابطين على الضفة الغربية . وقد تراوح عمق هذه العقبة الاضافية بين عشرة وخمسة عشر متراً ، من الجدار الرملي الناعم الذي يحتاج الى عملية هندسية كبيرة لاختراقه .

وقد بنى الاسرائيليون وراء هذا الجدار الرملي المتواصل حوالي ٦٠ مركزاً حصيناً على غرار تحصينات خط ماجينو وذلك على خطين ، اقاموا الخط الامامي منهما الذي يحتوي على ٤٠ مركزاً محصناً وراء الجدار الرملي على بعد لا يزيد على بضع مئات من الامتار ، في مواجهة جميع المراكز المصرية التي قد تصلح لاستعمالها في العبور على طول امتداد منطقة الاسماعيلية ـ القنطرة وبين البحيرة المرة الكبرى وميناء السويس . اما المستنقعات المالحة في الشمال (الذي كان قسم كبير منها يقع تحت السيطرة المصرية) وشواطىء البحيرات المرة فلم تكن محصنة تحصيناً قوياً كباقي الخط . وكان الخط الثاني من التحصينات الاسرائيلية الذي ضم ٢٠ مركزاً محصناً يقع وراء الخط الاول على بعد مسافة تتراوح بين ثلاثة وخمسة كيلومترات تقريباً .

وكان كل مركز محصن مستقلا قائماً بذاته ومصمماً بحيث يستوعب ما بين ٨٠ و ١٠٠ من الجنود . وكان جداره الخارجي المكون من الرمال يغطي مساحة تقرب من ١٠٠ متر الى ٦٠ متراً ويمتد ارتفاعه الى علو يصل الى ٢٠ متراً . اما واجهته الامامية ، فتتكون من شبكة من الاسلاك الشائكة تتقدمها مساحة مزروعة زراعة دقيقة بالالغام المضادة للافراد وقد اقيمت في الوسط نواة مركز الحصن الذي هو عبارة عن بناء مؤلف من ثلاث طبقات تحمي سطحه صبة يبلغ سمكها ستة امتار من الاحجار والخرسانة المسلحة بالفولاذ كانت تكفي للصمود لاعنف قصف بالمدفعية او لقذائف الطائرات . وكان الطابق الاعلى مخصصاً لمقر العمليات وغاصاً بالرشاشات والاسلحة المضادة للدبابات . اما الطابق الثاني فكان مخصصاً لاختزان الذخيرة والمؤن والثالث للمساكن . وهو مجهز تجهيزاً كاملا بالكهرباء ومكيفات الهواء وكان الحصن بأكمله يشبه هرماً صغيراً مبتور الرأس . وكان مدخل المركز المحصن مزوداً من الجانب الخلفي بطريق ملولبة تمتد حتى منتصف المسافة المؤدية الى المركز وكانت جدران المركز الداخلية مجزأة بحيث تشكل حظائر لوقوف الدبابات اذ ان كل مركز محصن كان يتسع لسبع او ثماني دبابات تقريباً . وقد اقيمت وراء خط التحصينات طريق معبدة بموازاة طول خط بارليف .

كذلك اقيمت ممرات تصل الخط الاول من التحصينات بالخط الثاني . وعلى مسافة تمتد قليلا وراء الخط الثاني انشىء طريق يمتد من الشمال الى الجنوب خصص لتنقل قطع المدفعية الثقيلة التي توجهها نقاط للمراقبة متمركزة على خط القناة . اما احتياطي المدرعات المحلية فقد تمركزت على ابعاد مناسبة على طول هذا الطريق . وكان دور المدفعية يتركز في احباط اي عملية يقوم بها المشاة لعبور القناة بينما خصصت المدرعات للقيام بهجوم مضاد محلي لصد اية قوة معادية واجبارها على التراجع او القضاء على اي قوات تنجح في عبور القناة . واقيمت ثلاث قيادات قطاعات على الطرق الثلاثة الرئيسية المؤدية الى قناة السويس . وكان مقر القيادة الاسرائيلية الرئيسي في القطاع الاوسط ، اي في الشقرة على طريق بير جفجافة وعلى بعد حوالي ثمانية كيلومترات وراء خط الدفاع الرئيسي . وهذه المجموعة من المراكز المحصنة ومراكز المدفعية والدبابات وقيادات المراقبة كانت تشكل خط بارليف .



البحر الابيض المتوسط
غزة
خان يونس
رفح
بورسعيد
العريش
بئر السبع
ديمونا
الطريق الشمالي
رمانة
بئر الحفن
القنطرة
قناة السويس
جبل لبنى
أبو عجيلة
نيتزانا
الطريق الرئيسي
ميزب رامون
الاسماعيلية
بيرجفجافة
القسيمة
البحيرات المرة الكبرى
بئر الحسنة
الطريق الجنوبي
ممر الجدي
ممر كونتيلا
بئر تمادا
ممر متلا
السويس
الكونتيلا
بور توفيق
نخل
تمد
رأس سدر
رأس النقب
ايلات
العقبة
الطابة
أبو زنيمة
النويبع
جبل موسى
دهب
الطور
نبق
شرم الشيخ
المقياس ٨٠ كم

صحراء سيناء

وامتدت اربعة طرق وراء خط بارليف عبر المقطع الشمالي من صحراء سيناء باتجاه الحدود الاسرائيلية ، كل واحد من هذه الطرق اما كان مبنياً من خطوط من الممرات او الصخور الناتئة او من كثبان الرمال (على شكل امتدادات من الرمال اللينةتعجز الدبابات عن اجتيازه) . اما الطريق الشمالي فقد امتد من شمالي القنطرة دائراً حول المستنقعات ، فيما وراء الرمانة وعلى طول الشاطىء نحو العريش . اما الطريق الاوسط فيمتد من ضفة القناة قبالة الاسماعيلية ويمر عبر مركز الاتصالات الرئيسي في الطاسة ، فوق ممر الختمية ومنه الى ابو عجيلة والحدود الاسرائيلية جنوبي رفح ، واما الطريق الجنوبي فيمتد من جنوبي البحيرات المرة ، فوق ممر الجدي باتجاه الحدود الاسرائيلية شمالي القصيمة . واما الطريق الاخير المعروف بطريق الحجاج ، فهو طريق قديم كان يسلكه الحجاج المصريون القاصدون الى مكة المكرمة . وهو يمتد من بور توفيق عبر ممر متلا الشهير ومنه الى رأس النقب بالقرب من ميناء ايلات الاسرائيلي . اما خط الدفاع الاسرائيلي الاستراتيجي ، فقد قام على طول خط الممرات ، الذي كان يشرف على الحركة الشرقية الغربية عبر سيناء ويمتد هذا الخط تقريباً من بور توفيق الى الاسماعيلية بموازاة القناة على مسافة يبلغ معدل طولها بين ٥٠ و ٦٠ كيلومتراً وينحرف في شمال الختمية باتجاه شمالي شرقي نحو العريش .

قوات الدفاع الاسرائيلية

نشر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية تقريراً عن التوازن العسكري بين الجانبين العربي والاسرائيلي يستفاد منه ان عدد القوات المسلحة الاسرائيلية يقدر بحوالي ٣٠,٠٠٠ جندي نظامي و ٨٥٠٠٠ جندي الزامي ، وبعد التعبئة يرتفع عدد قوات الدفاع الاسرائيلية الى ٣٠٠,٠٠٠ جندي في خلال ٧٢ ساعة اذ ينتظر ان يلتحق معظم الاحتياطيين بوحداتهم العسكرية في غضون ٤٨ ساعة . ويقع مقر القيادة العامة لقوات الدفاع الاسرائيلية في تل ابيب . اما رئيس اركان القطاعات العسكرية الثلاثة فهو اللفتنانت جنرال دافيد اليعازر (الذي كان قائداً عاماً للجبهة الشرقية في حرب الايام الستة) ، وتنقسم القيادة العامة في اسرائيل الى ثلاث قيادات هي : القيادة الشمالية والقيادة الوسطى والقيادة الجنوبية ، وهي مسؤولة على التوالي عن الجبهات السورية (واللبنانية) والاردنية والمصرية .

ويتكون الجيش الاسرائيلي من ٣٧ لواء ،منها عشرة الوية مدرعة وتسعة الوية آلية وتسعة الوية مشاة وخمسة الوية من رجال المظلات وثلاثة الوية من المدفعية . والجيش الاسرائيلي يمتلك كميات ضخمة من الآليات منها ١٧٠٠ دبابة (٤٠٠ من طراز باتون الاميركية المزودة بمدافع من عيار ١٠٥ ملم و ٢٥٠ دبابة من طراز سانتوريون ذات مدافع حديثة من عيار ١٠٥ ملم و ٢٠٠ دبابة من طراز شيرمان ذات مدافع حديثة و ١٠٠ دبابة روسية من طراز تي ــ ٥٤/٥٥ مزودة بمدافع جديدة ، وكانت القوات الاسرائيلية قد استولت على هذه الدبابات من المصريين في سنة ١٩٦٧ وحوالي ١٥٠ دبابة من طراز م ــ ٦٠ الاميركية المتوسطة وهي من احدث طراز) . وبالاضافة الى الدبابات يمتلك الجيش الاسرائيلي حوالي ثلاث الاف عربة مشاة قتالية ، بما فيها السيارات المصفحة والعربات نصف المجنزرة وناقلات الجنود المدرعة .

اما سلاح الطيران الاسرائيلي الذي يزيد مجموع عدد طائراته على ٤٠٠ طائرة ، فهو

يتكون بصورة رئيسية من ١٠٠ طائرة من طراز فانتوم و ٣٥ طائرة من طراز ميراج (قاذفة مقاتلة تستعمل كطائرة معترضة) ، و ١٦٠ طائرةسكاي هوك القاذفة المقاتلة وتعتبر طائرات الفانتوم من اكثر الطائرات استعمالا في الاغراض المتعددة بل تعتبر اقوى من اية طائرة في سلاح طيران البلاد الآسيوية الغربية الاخرى . وهي تحمل صواريخ من طرازي سبارو وسايدويندر للدفاع عن الطائرة كما تحمل الصواريخ التي تطلق من الجو الى الارض وقنابل تزن ٥٥٠ رطلا لأعمال القصف الجوي وتبلغ سرعة الفانتوم على علو شاهق ضعف سرعة الصوت . اما طائرات سكاي هوك فهي قاذفة مقاتلة سرعتها تقل عن سرعة الصوت ولكنها تستطيع ان تحمل اكثر من اربعة اطنان من الصواريخ والقنابل المستعملة في القتال الجوي او القصف الارضي ، اما مداها فيبلغ ١٦٠٠ كلم على النقيض من معدل مدى طائرة الفانتوم الذي يبلغ ٦٠٠ كلم .

اما البحرية الاسرائيلية فتتكون من مدمرة واحدة وثلاث غواصات و ١٣ زورق دورية مزودة بصواريخ غابريال ، و ٩ زوارق طوربيد و ٢٣ زورق دورية صغيرة . ويبلغ مجموع عدد افراد البحرية الاسرائيلية بعد التعبئة ٥٠٠٠ جندي . والبحرية الاسرائيلية تعمل بصورة رئيسية في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، مع ذلك فان بعض قوارب الدوريات الاسرائيلية كانت تتمركز في ميناء ايلات وخليج العقبة .

وقد انتظمت قوات الدفاع الاسرائيلية (او « زاحال ») في شكلها الحالي كقوة عسكرية محترفة خلال مدة تولي الجنرال موشي دايان منصب رئيس الأركان في اواسط الخمسينات . وكانت من قبل قد نشأت في الاصل من جمعية الهاغانا التي مارست اعمالا عسكرية اثناء الانتداب البريطاني . وكانت هذه المنظمة قد انشئت خصيصاً كجيش من المواطنين لتلعب دوراً رئيسياً في انشاء الدولة الجديدة ، وكانت حرب سنة ١٩٥٦ هي التي اكدت حاجة اسرائيل الى تنظيم جيش محترف مدرب تدريباً عالياً ، يتحلل من المسؤوليات التي لا تمت الى مهماته بصلة . وبما ان عدد الشعب الاسرائيلي لا يتيح الاحتفاظ بجيش نظامي كبير العدد ، فقد جرى تنظيم الجيش من عناصر مختلفة تتألف من عدد قليل من الجنود النظاميين المتطرفين وعناصر كبيرة من المجندين (الذين يخدمون في الجيش مدة ٣٠ شهراً) ومن الاحتياطيين الذي يشكلون القسم الأكبر من القوات الاسرائيلية البرية . كما يفرض القانون الاسرائيلي على جميع النساء العازبات الخدمة كمجندات في المهمات غير القتالية اي كسائقات ومسؤولات عن المخازن وكاتبات . اما نظام تعبئة قوات الدفاع الاسرائيلية فهو اقوى المزايا التي تتمتع بها اسرائيل حيث انه اعد بدقة متناهية ووضع موضع التنفيذ مرات عديدة حتى اصبح تنفيذه مجرد تمرين يجري بمنتهى الدقة . هذا النظام باستدعاء الرجال الرئيسيين كالقادة العسكريين والضباط ورجال سلاح الاشارة بالهاتف وباشعار الاشخاص الآخرين بضرورة التحاقهم بوحداتهم من خلال شبكة الاذاعة القومية . وكان كل رجل او امرأة على بينة تماماً من مكان اسلحته او الوحدة التي سيلتحق بها في اي مكان من البلاد ، وقد اتاح صغر حجم اسرائيل وشبكات النقل المتطورة فيها امكان التحاق الاحتياطيين بوحداتهم واستعدادهم لخوض القتال في غضون ٤٨ ساعة .

وبالنظر الى الدور الذي لعبته قوات الدفاع الاسرائيلية في الحفاظ على أمن اسرائيل ، فقد تمتعت دائماً بعلاقة خاصة مع الحكومة . وبالرغم من التقيد بمبدأ الحكومة الديموقراطية العام الذي يقضي بأن السلطة العسكرية يجب ان تخضع للسلطة

المدنية ، فقد نفذ هذا المبدأ بصورة رئيسية في الشؤون الداخلية ، ولم ينفذ بصورة كاملة في شوون السياسة الخارجية . اذ ان الأركان العامة تتمتع بحريات واسعة في تنفيذ السياسة الاستراتيجية الى حد انفرادها باتخاذ قراراتها الخاصة في العمليات الانتقامية . وقد بارك رؤساء الوزراء الاسرائيليون المتعاقبون سياسة اطلاق يد الاركان العامة في تنفيذ الشؤون الاستراتيجية . وكان هذا من العوامل الرئيسية في تطوير فلسفة دفاع دبلوماسية عسكرية هجومية بوصفها الاستراتيجية الوحيدة التي تتيح المحافظة على اسرائيل كدولة ، حتى ان مخطط التعبئة كان مصمماً بصورة كاملة تقريباً بطريقة تتيح للقوات الاسرائيلية القيام بعمليات هجومية من اجل الردع . وترتكز نواة الاستراتيجية الاسرائيلية على مؤسسة استخبارات فعالة مهمتها تحذير البلاد وتعبئة طاقاتها العسكرية للقيام بهجوم سريع .

وادت الاستراتيجية الهجومية الاسرائيلية والخبرة التي اكتسبتها قوات الدفاع الاسرائيلية في الحروب السابقة ضد الجيوش العربية الى تمتع اسرائيل بأسلوب عسكري مبني على اخذ زمام المبادرة والحركة وكثافة النيران والاعتداد المطلق بالنفس الذي يكاد يصل الى حد الغرور . وفي حرب سنة ١٩٥٦ ، سيطرت فرق المظليين والمشاة الآلية الاسرائيلية على ساحة القتال بحيث اقتصر دور المدرعات آنئذ على دعم المشاة . اذ ان المدرعات القديمة التي كانت تملكها اسرائيل في تلك الأيام كانت تتبع عادة ألوية المشاة المتقدمة محملة على عربات . ومع ذلك ، حتى في تلك الحرب ، استحق الدور الذي قامت به المدرعات التقدير . اما بعد سنة ١٩٥٦ ، عندما تسلمت اسرائيل دبابات حديثة الطراز اخذ نفوذ الألوية المدرعة ومنزلتها يرتفعان باستمرار . وفي اثناء الاقتحام السريع الذي ادى الى اختراق خطوط دفاع العدو وقطع مواصلاته وبالتالي تحطيم معنوياته قد حل محل هجمات المشاة الليلية التي كانت المذهب التكتيكي السائد لدى القوات الاسرائيلية ، ولقد اعطي قادة الوحدات المدرعة والوحدات المتفرعة عنها وحتى قادة كل دبابة ، تعليمات باخذ زمام المبادرة في الاقتحام والتقدم لمطاردة العدو المتقهقر . وكان من نتائج هذه العقيدة التكتيكية ان الجيش الاسرائيلي اصبح من اجل مجاراة سرعة سلاح المدرعات ، قوة آلية كاملة ، حتى ان الجنرال شارون تباهى ذات مرة بقوله : « ليس في هذا الجيش من يطلب منه ان يمشي على اقدامه » .

ومن الجدير بالملاحظة ان احد العوامل التي شجعت على ايمان الجيش الاسرائيلي بسيطرة الدبابات التامة في ساحة المعركة كان خبرته التي اكتسبها في سنة ١٩٦٧ ضد الصواريخ المصرية المضادة للدبابات . فلقد جهز الروس الجيش المصري بصواريخ من طراز (شميل) المضادة للدبابات (التي تحمل على شاحنات او آلات مصفحة) والتي يبلغ معدل مداها المؤثر ١٥٠٠ متر ولكن هذه الصواريخ اثبتت نسبياً عدم فعاليتها في المناسبات القليلة التي استعملت فيها ضد الدبابات الاسرائيلية .

وبلغ التركيز في اسرائيل على استعمال المدرعات الى مدى حمل الاسرائيليين على اهمال سلاحي المدفعية والمشاة . وفي اوائل الستينات ، كان هناك تزاحم للحصول على احسن واسرع الدبابات . ولقد خصص قسم كبير من الانتاج المحلي في تحسين الوحدات المدرعة التي تملكها اسرائيل بالاضافة بالطبع الى سلاحها الجوي ، وابدى الاسرائيليون اهتماماً قليلا بالمدافع وكادوا يهملون دور المشاة اهمالا تاماً .

وقد نما سلاح الجو الاسرائيلي الذي لا يتمتع بالاستقلال ولكنه يخضع لسلطة

الأركان العامة ، بحيث اصبح من اكفأ اسلحة الطيران في العالم ، اذ ان اسرائيل معرضة بسبب صغر حجمها بنوع خاص للغارات الجوية على كل اهدافها المدنية والعسكرية . فتل ابيب وبقية المدن كانت في سنة ١٩٥٦ على بعد خمس دقائق من رحلة طائرة نفاثة تقلع من اقرب مطار عربي . اما بالنسبة الى المطارات العسكرية الاسرائيلية الموجودة داخل حدودها القديمة فقد تركزت هذه المطارات بنوع خاص في دائرة ذات نصف قطر صغير في المنطقة الضيقة التي تمتد بين مرتفعات الضفة الغربية من نهر الأردن وساحل البحر الأبيض المتوسط . وهي ايضاً اكثر ما تكون تعرضاً للغارات الجوية . لذلك ، فقد شرعت الأركان العامة الاسرائيلية منذ اوائل الخمسينات ببناء سلاح جوي يؤمن لها دائماً التفوق الجوي على العرب . ولقد خصص في ذلك الوقت حوالي نصف ميزانية الدفاع تقريباً لسلاح الجو . ووفر التعاون الفرنسي الوثيق مع سلاح الجو الاسرائيلي قبل حرب سنة ١٩٥٦ وبعدها لاسرائيل طائرات متطورة من نوع ميستير ٤ ، وسوبر ميستير وميراج ٣ واسطولا من طائرات الهليكوبتر وطائرات الاستطلاع والنقل . كذلك ساعدت فرنسا اسرائيل على المباشرة في اقامة منشآت لصناعة طائراتها ليس فقط في مجال تجميع الاجزاء وتركيبها بل في مجال المحافظة على قدرتها الفائقة على توجيه الضربات الهجومية .

وبعد القطيعة مع فرنسا ، تحول سلاح الجو الاسرائيلي الى الطائرات الاميركية ، وواصل تركيز اهتمامه على المحافظة على اقتناء الطائرات الهجومية اي القاذفات المقاتلة . وانطلاقا من العقيدة الاستراتيجية الاسرائيلية العامة ، اعتبرت اسرائيل الغارات الجوية احدى وسائل دفاعها الرئيسية مع اعتبار الهجوم الفجائي الشامل (وخاصة على المطارات المصرية) من المهمات الرئيسية التي تبنتها اسرائيل لسلاح طيرانها والمحافظة بحزم على التفوق الجوي فوق منطقة العمليات . وقد عزز النصر الساحق الذي حققه سلاح الجو الاسرائيلي في سنة ١٩٦٧ تصميم الأركان العامة على المحافظة على حالة دائمة من تفوق سلاحها الجوي وقوته الهجومية .

مخطط الدفاع الاسرائيلي

بعد وقف اطلاق النار في آب سنة ١٩٧٠ ، ساد هدوء نسبي على جبهة قناة السويس . فكانت الحوادث الوحيدة التي جرت ، غارات ثانوية قام بها سلاح الجو الاسرائيلي خاصة ، ادعى خلالها كلا الفريقين بانه انتصر على الفريق الآخر . وكان الاسرائيليون على بينة من شبكات الدفاع الجوي المصرية المتداخلة التي اقيمت فوق منطقة القناة وامتدت حتى القاهرة . ولكنهم كانوا واثقين من تفوقهم الجوي فوق سيناء . وبحلول سنة ١٩٧٣ ، بدأوا حتى يشكون في مقدرة المصريين على شن هجوم عبر القناة ، فاخفاق الرئيس السادات في جعل سنة ١٩٧١ « عام الحسم » وطرد المستشارين العسكريين الروس في تموز سنة ١٩٧٢ ومعرفة الاسرائيليين بافتقار القوات المسلحة المصرية بصورة عامة الى الاسلحة الهجومية كالقاذفات المقاتلة ومعدات انشاء الجسور ، بالاضافة الى تأكدهم من التفوق الاسرائيلي الجوي ، ادى الى تهاون الاسرائيليين فيما يتعلق بالمتوازن الاستراتيجي في الجبهة الجنوبية . ويصح الافتراض ان مخطط أسرائيل الدفاعي في سيناء ، طبقا لموقف الاسرائيليين ، كان

يرتكز على القيام بتوجيه ضربة وقائية الى الاراضي المصرية غربي القناة ، وبما ان عملية كهذه تتطلب شن غارات جوية فوق الاراضي التي كانت تزدحم بالصواريخ المضادة للطائرات ، فان الخطوة الاولى اذن كانت تهدف الى احداث ثغرة في مظلة الدفاع الجوي المصرية ، وكان الاسرائيليون يتصورون انهم يستطيعون تحقيق ذلك باحدى طريقتين : اما بشن هجوم بري تمهيدي عبر القناة يهدف الى تدمير مراكز صواريخ ارض جو وتعطيل المطارات المصرية الامامية . او بشن غارات جوية تقصف قواعد صواريخ ارض – جو في قطاع جو فيه كثافة هذه الصواريخ كالممر الجوي المؤدي الى القاهرة بين بورسعيد ودمياط . اما القطاع الآخر الذي فكر الاسرائيليون في امكان اقتحامه جوياً ، فيمتد على طول جنوبي وغربي ميناء السويس . ونحن نعلم من خلال المقابلات الصحفية التي اجريت بعد الحرب مع الجنرال شارون الذي كان قائداً عاماً للجبهة الجنوبية حتى آب سنة ١٩٧٢ ، ان « الجيش الاسرائيلي كان قد خطط بالفعل واتخذ استعدادات لشن هجوم عبر القناة هدفه منطقة الدفرسوار (بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة الكبيرة) . ولا بد ان الاسرائيليين قد وضعوا خططا بديلة لعمليات انزال على شاطيء البحر الأبيض المتوسط خلال حرب تشرين اول يعزز الاعتقاد بان هذه العمليات كانت من العمليات التي كان من المحتمل ان تلجأ اليها القيادات الاسرائيلية .

اما بالنسبة الى الدفاع عن القناة ، فقد اعتبرت القيادة الاسرائيلية خط بارليف كافياً لهذا الغرض حيث انها انفقت على انشائه حوالي ١٠٠ مليون دولار . وكانت الأركان العامة الاسرائيلية واثقة من صموده امام اي هجوم مصري على طول خط القناة نفسه ، بالرغم من انكارها هذه الحقيقة الذي لم يقنع احداً بعد ان دمر المصريون هذا الخط بسهولة . وكانت اسرائيل قد اتخذت تدبيراً اضافياً سرياً وهو التخطيط لسكب النابالم السائل على سطح ماء قناة السويس في كل الاماكن الصالحة لعبورها واضرام النار فيه في حال قيام المصريين بهجوم . فقد اقيمت صهاريج لوقود الدبابات تحت كل مركز محصن امامي في خط بارليف ، بالاضافة الى مد انابيب للنابالم السائل تمتد تحت سطح الارض تؤدي الى الفتحات على حافة المياه ، وكان باستطاعة الاسرائيليين تحويل المضخات الكهربائية في اية لحظة لسكب هذا السائل السريع الالتهاب على سطح المياه الذي يمكن اشعاله عندئذ بقنبلة محرقة كانت كفيلة باحراق القوات التي تمتطي زوارق العبور .

فخط بارليف بكل ما كان ينطوي عليه من الابتكارات التكنولوجية ، كان خط دفاع اسرائيل التكتيكي الرئيسي على القناة ، ويظهر ان الاسرائيليين لم يدخلوا في حسبانهم التأثير النفسي لهذا النوع من العقلية التي كانت اشبه بعقلية خط ماجينو ، حيث ان القوات التي كانت ترابط في خط بارليف اخذت تتأكد تدريجياً من حصانة المراكز التي كانت متمركزة فيها . ومع وقوعها فريسة لسيطرة المبدأ القائل بعدم استعمال الاقدام للمشي في الجيش الاسرائيلي على عقليتها ، اصبحت تعتقد ان السيطرة على هذه المراكز المحصنة لها اليد الطولى في التكتيك الدفاعي . ونتيجة لذلك ، اخذت هذه القوات تنظر

الى قيام المشاة باعمال الدورية فيما بين نقاط المراكز المحصنة كما لو ان هذه المهمة تافهة لا تقوم بها الا الجيوش المتخلفة فقط . والا فليس هناك من تفسير آخر للسهولة التي واصلت فيها زوارق المصريين عبور القناة والقيام هناك بعملياتها الاستطلاعية خلال الاسابيع التي سبقت الهجوم . ولقد صرح قائد الفرقة المصرية الثانية في قطاع الاسماعيلية ان الدوريات التابعة لقواته كانت تستطيع القيام بعملية عبور القناة ليلة بعد ليلة ، وان تظل في بعض الاحيان وراء خطوط العدو لعدة ايام ، وان تعين بدقة نقاط تقاطع المواصلات وامتداد انابيب النابالم تحت الارض والمنشآت الرئيسية لسلاح الاشارة الاسرائيلي . ولم تكتشف القوات الاسرائيلية ايا من هذه الدوريات على الاطلاق . ولذلك كانت الدوريات المصرية تعود بالمعلومات التي مكنت القائد المصري من وضع خريطة مفصلةتفصيلا كاملا لوسائل الدفاع الاسرائيلية .

وكان في تقدير الاركان العامة الاسرائيلية ـ كما اكده الجنرال موشي دايان ـ انه يمكن القضاء على اي هجوم تشنه مصر عبر القناة في خلال ٢٤ ساعة . ولقد صرح الفريق سعد الدين الشاذلي في مقابلة صحفية بعد الحرب قائلا :« اعتقد ان دايان ادلى بتصريحه هذا على اساس اعتقاده بأن المهندسين المصريين يحتاجون الى ٢٤ ساعة لبناء جسور وان المعدات العسكرية الثقيلة كالدبابات لا تستطيع عبور القناة قبل مضي ٤٨ ساعة من الهجوم ، مما يتيح وقتاً كافياً لوصول احتياطي اسرائيل من المدرعات الى الجبهة . ولقد كان من الصعب على اي انسان قبل السادس من شهر تشرين اول ان يتغافل عن كل هذه الافتراضات ويقنع الاسرائيليين بأن الجيش المصري يستطيع بالفعل سد الثغرة التكنولوجية القائمة بينه وبين الجيش الاسرائيلي الى حد يسمح له بالقيام بهذه المهمة في خلال عشر ساعات .

وقد اشرف الميجر جنرال شموئيل غونين على سير العمليات العسكرية في سيناء من مركز قيادته الجنوبية الذي كان قائماً اثناء السلم في بئر السبع . وتألفت قواته حسبما علمنا من التقارير المتيسرة لدى العرب من ١٣ او ١٤ لواء كانت مرابطة في جنوبي الحدود من منطقة سيناء ، وخصصت ثلاث الوية آلية من المشاة يعززها لواء من المدرعات للدفاع عن خط بارليف ، وكانت معظم قطع المدرعات مرابطة خلف الخط الاول من المراكز المحصنة على مسافة ٨ ـ ١٠ كيلومترات (بالرغم من ان بعض المفارز رابطت في المراكز المحصنة نفسها) وقيل ان لواءين احدهما من المشاة والثاني من المدرعات كانا مرابطين في بير جفجافة . كما رابط لواء من المشاة في ممر المتلا ورابط لواءان احدهما من المدرعات والآخر من المشاة في بئر تماده الى الشرق من ممر متلا . اما على الطريق الشمالي فقد تمركز لواء من المشاة في بير سلمانه ، في منتصف الطريق الممتدة بين بورسعيد والعريش ، ورابط لواء آلي في العريش . وبالاضافة الى ذلك ، حشدت القيادة الجنوبية الوية اقليمية في ايلات وشرم الشيخ واحتفظت بلوائين من الاحتياطيين في بئر السبع .

ويجب ان نبين هنا ان هذه المخططات التي تتناول الاستعدادات والقوات العسكرية يمكن ان تكون مضللة ان لم تأخذ بعين الاعتبار دائماً النظام الفريد الذي يتميز به

الجهاز العسكري الاسرائيلي ، فيجب عدم الافتراض مثلا ، من شكل توزيع القوات للقتال على النحو السابق الذكر ، انه كان تحت تصرف القيادة الجنوبية من ١٣ ــ ١٤ لواء جاهزة للعمليات او ان العمليات كانت تجري دائماً على مستوى لواء فحقيقة الوضع تختلف عن ذلك تماماً .

ففي اوقات السلام قلما تضم وحدات خط الجبهة ٣٣٪ من مجموع افرادها . بل ان عدد افراد وحدات المؤخرة كثيراً ما كان يتناقص الى عدد اصابع اليد بحيث تتألف فقط من القادة العسكريين وضباط الصف ومن افراد آخرين لا غنى عنهم . ولكن عندما يصدر امر باستنفار القوات المسلحة يتزايد عدد افراد جميع الواحدات باستدعاء الافراد المجازين او الملتحقين بدروس تدريبية ، للانضمام الى وحداتهم . ومع ذلك فلا ينتظر ان تستوفي الوحدات والتنظيمات كامل عددها الا عندما يصدر امر باعلان التعبئة العامة . وبالتالي فان عدد الافراد الذين كانوا يرابطون في خط بارليف في الاوقات العادية لا يزيد على ٢٠٠٠ جندي ، اما بعد الاستنفار ، فكان من المفروض ان يصبح هذا العدد ٤٠٠٠ جندي تقريباً . ولكن لا يمكن ان يكتمل عدد افراد الالوية الثلاثة التي تتمركز في هذا الخط الا بعد اعلان التعبئة العامة .

ويستفاد من الاقوال الاسرائيلية بعد نشوب الحرب انه كان يرابط في خط بارليف في بداية شهر تشرين الاول اللواء ١١٦ (القدس) وقد ارسل جنوده ، الى الخط ليحلوا محل حاميته النظامية . وكان اللواء المدرع الرابع عشر (بقيادة الكولونيل أمنون رشيف) يساند الحامية الامامية وكان هذا اللواء الوحيد الذي ضم كامل افراده مع وجود ٢٥٠ دبابة تحت تصرفهم . وكلمة « لواء » مضللة ايضاً لان الجيش الاسرائيلي يضم عادة وحدات يتغير عدد افرادها حسب المهمات التي توكل اليها تشكل ما يسمى « الاوغدات » وهي كلمة عبرية تعني « قوة مهمة خاصة » ، اما عدد افراد الأوغدا فيتراوح ما بين عدد لواء غير معزز وفرقة كاملة ، ويضم كل مقر من مقر القيادة الاسرائيلية عدداً من كبار الضباط غير الملحقين بوحدات عسكرية معينة لقيادة هذه الاوغدات الاستثنائية عندمـــا وحيثما تشكل للقيام بعمليات معينة . وهكذا فان مقر القيادة الجنوبي ، كان يضم مثلا الميجر جنرال افراهام مندلر المعين رسمياً قائداً لقوة الدبابات في سيناء . ولكن يمكن ان يعين ايضاً لتولي قيادة اوغدا مدرعة ، خاصة وان عدد الدبابات التابعة للواء المدرع الرابع عشر الذي يقوده كان يبلغ ٢٥٠ دبابة ، اي اكثر من عدد الدبابات الملحقة باللواء المدرع المنظم حسب التنظيم العسكري البريطاني . وقد التحق الميجور جنرال شارون بمركز القيادة الجنوبي قبل الحرب بفترة قصيرة ، وذلك للانضمام ايضاً الى مجموعة الضباط الذين يمكن تعيينهم لقيادة قوة مهمة خاصة . وكان هذا التنظيم مرناً جداً بحيث يلائم ملائمة تامة أسلوب الحرب المتحركة والمرنة التي كان الاسرائيليون يخططون لخوضها .

ومع ذلك ، فان هذا النوع من الحروب ، يقضي الاخذ بزمام المبادرة في اول لحظة من لحظات اشتعال الحرب . وليس هناك من شك في ان الاسرائيليين كانوا يعتمدون هذا

الطراز في جبهة قناة السويس . وهذا هو احد الاسباب الّتي جعلتهم يقعون في دوامة من الاضطراب والارتباك . فبدلا من ان يقوموا بتوجيه الضربة الاولى ، وجدوا انفسهم يخوضون معركة فاجأهم فيها العدو وانتزع منهم زمام المبادرة . ولم يكن ذلك تماماً ذنب الاستخبارات الاسرائيلية اذ ان الاستخبارات الاسرائيلية كانت دائماً ذات مستوى رفيع من الدقة بحيث تهدف الى ضمان امن اسرائيل . وبالرغم من ذلك ، فقد طرأ تغير ملموس على طبيعة عملياتها الخارجية في خلال السنوات العشر الاخيرة ، ففي حين انها كانت تستطيع في الماضي ان تستخدم عملاء من اليهود المتعددين الذين كانوما يزالون يقيمون في الدول العربية ، والذين كان منهم من تغلغل في الاوساط الحكومية ، بما فيها اوساط القوات المسلحة ، فان تضاؤل عدد هؤلاء بعد سنة ١٩٦٧ بالاضافة الى فرض اجراءات امن مشددة في الدول العربية ادى الى تغيير نمط التجسس الشخصي بصورة كبيرة بحيث حل محله ما يسمى بنظام التجسس الميكانيكي ، اي نظام تجميع المعلومات من خلال اجهزة الرادار والوسائل الالكترونية الاخرى وكذلك من خلال الاقمار الصناعية الاميركية وطائرات الاستطلاع التي تحلق على علو شاهق . وقد اسفر هذا التحول من اسلوب الاستخبارات الشخصية الى اسلوب الاستخبارات الميكانيكية ، عن تجميع معلومات اكثر ولكنه ايضاً جعل من الصعب معرفة نوايا الدول العربية .

ففي خلال الاسابيع التي سبقت الحرب مثلا ، لم تكن تعوز السلطات الاسرائيلية معلومات ثابتة عن التحركات العسكرية العربية التي كانت تتجاوز ما كان مألوفاً على الجبهتين المصرية والسورية . بل يدعي الاسرائيليون انهم كانوا على بينة تامة من الحشود المصرية وانهم كانوا يعلمون ايضاً بقيام الجيش المصري بتدريبات على عبور الممرات المائية . ولكن الذي غاب عن علمهم هو تغير نوايا المصريين وتغير الروح المعنوية في صفوف قواتهم . فالمعروف ان القوات المصرية قد احتفظت طوال خمس سنوات بحوالي ٩٠٪ من مجموع عدد افرادها في منطقة قناة السويس . وانها خططت ونفذت عدة تدريبات لعبور الانهار . واعلنت مراراً وتكراراً عن اعتزامها القيام بهجوم . حتى لقد اصبحت هذه المعلومات بالية من خلال كثرة تكرارها الدائم طوال خمس سنوات . ولهذا فقد كانت نوايا المصريين شيئاً جديداً عجزت اسرائيل عن تقديره . كما ان اعتداد الاسرائيليين بأنفسهم قد وضع على اعينهم غشاوة حملتهم على عدم اخذ دلائل استعدادات المصريين مأخذ الجد .

وكما قلنا من قبل لقد وضع الجنرال دايان القوات المسلحة في حالة استنفار قبل الحرب بعشرة ايام تقريباً . وفي الثالث من شهر تشرين الاول شوهد كبار الضباط المصريين بوضوح وهم يصدرون الاوامر في المراكز الامامية . بيد ان حادث شوناو دعا مصر الى اعلام الدبلوماسيين الاجانب في القاهرة ان قواتها المسلحة قد اتخذت تدابير احتياطية تحسباً لقيام اسرائيل بشن هجوم عليها . وفي واشنطن ، حيث توفرت المعلومات عن استعدادات القوات المصرية ايضاً ، عجزت استخبارات وزارة الدفاع الاميركية عن معرفة النوايا المصرية . بل لقد ذهبت هذه الاستخبارات الى تسفيه الآراء القائلة ان استعدادات العرب كانت تشكل تهديداً لاسرائيل . واوضحت للدكتور

كيسنجر بأن الحرب بعيدة الاحتمال . غير ان وكالة الاستخبارات الاميركية كانت بالفعل تراودها بعض الشكوك حول هذا الموضوع ولكنها سمحت ايضاً لنفسها بأن تنساق مع تقدير الاسرائيليين الذي لم يختلف في شيء عن تقدير الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع الاميركية . ومع كل ذلك فقد وضع سلاح الجو الاسرائيلي في حالة استعداد قصوى في الرابع والخامس من تشرين اول ، وكذلك وضعت القوات الاسرائيلية المسلحة بكاملها في الحالة نفسها .

وفي صباح السادس من الشهر نفسه تقدم الجنرال اليعازر الى الحكومة الاسرائيلية باقتراح بان يقوم سلاح الجو الاسرائيلي بتوجيه الضربة الاولى ولكن الحكومة الاسرائيلية رفضت اقتراحه هذا . ومهما يكن من امر ، فان جهاز وسائل الدفاع الجوي المصري استبعدت ايضاً ان تقوم اسرائيل بشن هجوم جوي على غرار الهجوم الذي شنته في سنة ١٩٦٧ . والادهى من ذلك ان الحكومة الاسرائيلية قررت ايضاً رفض اقتراح الجنرال اليعازر اصدار امر باعلان التعبئة العامة واستدعاء القوات الاحتياطية .

الفصل الرابع

خطط الهجوم
على جبهة القناة

ان الهجوم عبر ممر مائي ضد عدو يرابط في مراكز محصنة تحصينا جيدا على الجانب الاخر من اصعب العمليات الحربية واكثرها تعقيدا . ولم يكن المصريون يقومون بعملية عبور نهر عادي بل كانوا يقومون بهجوم متشعب يتطلب عمليات عبور الممر المائي في عدد من النقاط على طول جبهة تمتد اكثر من مائة كيلو متر . ولا يمكن لاي احد ان يدرك حقيقة الاخطار التي ينطوي عليها تخطيط وتنفيذ مثل هذه العملية اداركا تاما الا اولئك الذين تولوا بانفسهم تخطيط وتنفيذ هذه العملية .

وكان من المقدر ان تنشأ اهم المشاكل الخطرة خلال المراحل الثلاث الاولى : وهي مرحلة الهجوم وعبور اول موجة من قوات المشاة على قوارب من المطاط تسير بالتجذيف تحت وابل من نيران المدافع الرشاشة وقنابل المدفعية ثم مرحلة اختراق المشاة خط بارليف في وجه هجوم مضاد بالدبابات وبعد ذلك مرحلة قيام المهندسين ببناء جسور تصلح لعبور المعدات الثقيلة فوقها . وكان من المتوقع ان يركز العدو هجماته الجوية على الممر المائي خلال هذه المرحلة الثالثة . ولهذا كان مصير العملية باسرها يتوقف على سرعة تنفيذ هذه المرحلة . اما المرحلة الاولى فانها على الاقل تميزت بمفاجأة العدو ، تلك المفاجأة التي خطط لها المصريون بمنتهى الاحكام . اما المرحلتان الاخريان فكان يتعين تنفيذهما فيما كان العدو يستفيق من هول الصدمة الاولى التي حلت به حيث كان يتوقع ان يلقي بكل ثقل قواته لاحباط مخطط اختراق خط بارليف .

المراحل الاولى

اختار المصريون في المراحل الاولى ان تعبر القناة اول موجة من مشاتهم في نقاط بعيدة عن المراكز المحصنة الاسرائيلية ، وكان من المقرر ان تعبر طلائع قواتهم تحت حماية وابل من القصف المدفعي الممر المائي ثم تتسلق الرمال اللينة المقامة على الحاجز المائي وتلقي بسلالم الى الجانب الاخر حتى تتبعها موجات اخرى من المشاة ومن ثم تتجه نحو خط الدفاع الثاني من خط بارليف دون ان تكترث بالمراكز المحصنة فيه . ولكي يضمن المصريون النجاح في هذه المهمة قسموا مشاتهم الى فرق مستقلة قائمة بذاتها بحيث كانت كل فصيلة مدعومة بجماعة من الرجال الذين يتراوح عددهم ما بين

١٠ و ١٢ شخصا مسلحين بقذائف آر بي جي ـ ٧ التي تشبه مدافع البازوكا والتي تطلق من الاكتاف والتي لها طاقة على نسف برج اي دبابة من طراز سنتوريون او باتون ومسلحين ايضا بصواريخ موجهة من طراز ميلوتكا (المسماة في اوساط حلف الاطلسي صواريخ ساغر) . وبالاضافة الى ذلك اعدت القيادة المصرية دعما لقوات المشاة المهاجمة بمدافع ثقيلة ومتوسطة لصد اي هجوم مضاد يشن عليها بالدبابات .

وفيما كان من المقرر ان توغل المشاة في العمق بحثا عن الدبابات المعادية ، كان من المقرر ان تتجه الموجة الثانية من المشاة نحو اليمين ونحو اليسار باتجاه المراكز الحصينة المعادية لتبذل قصارى جهدها لتطويقها . ولهذا كانت بحاجة الى مساندة بقذائف ناسفة للتحصينات من المدافع ذات الرمي المستقيم (مثل المدافع المضادة للطائرات والمضادة للدبابات) .ولذلك فقد اتخذت هذه الترتيبات في اطار خطة استخدام المدفعية . وكان اكبر الاخطار التي كانت تواجه قوات العبور من المشاة بطبيعة الحال تكمن في امكان اشعال سطح الماء بالنابالم السائل . غير ان الدوريات المصرية التي كانت قد عبرت القناة كانت قد تمكنت من اكتشاف خطوط انابيب صب النابالم . وكانت قد صدرت الاوامر لقوات الكوماندوس المصرية بعبور القناة قبل الحرب بليلتين وقطع هذه الانابيب وسد فتحاتها بالاسمنت . ولما دقت الساعة كان المصريون قد نفذوا هذه المهمة بمنتهى الاحكام حتى ان أحداً من المراكز المحصنة الاسرائيلية لم يستطع تشغيل صنابير اطلاق النابالم . ولم يكتشف الاسرائيليون ان انابيب النابالم قد قطعت الا في احد المراكز فاستحضروا مهندسا في صباح السادس من شهر تشرين اول للقيام بعملية الاصلاح . وكان المهندس ما زال يقوم بمهمته هذه حين بدأ المصريون في شن هجومهم ولذا فقد كان من اوائل الاسرائيليين العديدين الذين وقعوا في اسر القوات المصرية في ذلك اليوم .

وكان مخطط النيران لدعم الموجات الاولى من المشاة يقضي باستخدام حوالي ٢٠٠ طائرة تقوم بمهمات الدعم الارضي ، واطلاق النار من تجمعات المدفعية الضخمة على الضفة الغربية . وقد حشد المصريون لهذا الغرض كل ما يملكونه من قطع المدفعية (حوالي ٢٠٠٠ مدفع) نظموها في ١٣٥ كتيبة مدفعية بالاضافة الى وضع ١٩٠٠ مدفع ذات رمي مستقيم تحت امرة قيادة عامة مركزية بقيادة اللواء محمد سعيد الماحي افضل ضابط مدفعية في الجيش المصري ومن اكفأ القادة العسكريين . وكان من المقرر ان يشرف من مقر قيادته في بلبيس على قيادة مدفعية الجيشين الثاني والثالث اللذين يتولى قيادتهما في العادة العميد ابو غزالة والعميد منير شوش على التوالي .

وقد خطط اللواء الماحي لواحدة من اكبر عمليات القصف المدفعي في التاريخ تقوم خلالها بطاريات المدفعية بقصف متواصل لمدة ٥٣ دقيقة تطلق خلالها ما يبلغ وزنه ٣٠٠٠ طن من القنابل على الاهداف اي حوالي ١١٠٠٠ قذيفة في الدقيقة الاولى وحدها .

فاذا فرضنا ان ساعة الصفر تبدأ في اللحظة التي تتحرك فيها قوارب الاقتحام على سطح الماء ، فان خطة القصف المدفعي المصرية للهجوم هي على النحو التالي :

(أ) قبل ١٥ دقيقة من ساعة الصفر : تفتح جميع قطع المدفعية نيرانها على عمق يتراوح بين كيلو متر واحد وكيلو متر ونصف على الضفة الشرقية .

(ب) من ساعة الصفر الى ما بعد ٢٢ دقيقة : توسع المدافع مدى قصفها بحيث

يتراوح بين كيلو متر ونصف الى ثلاثة كيلو مترات في عمق سيناء .
(جـ) فيما بين الدقيقة ٢٢ والدقيقة ٢٧ بعد ساعة الصفر : تفتح المدافع نيرانها على اهداف تتجاوز مسافة ثلاثة كيلو مترات من الضفة الشرقية للقناة .
(د) بين الدقيقة ٢٧ والدقيقة ٣٢ بعد ساعةالصفر : تتوقف المدافع عن القصف بعمق وتعود الى نمط القصف الوارد في البند (ب) (كعنصر من عناصر المفاجأة) .
(هـ) بين الدقيقة ٣٢ والدقيقة ٣٩ بعد ساعة الصفر : تعود المدافع الى تركيز نيرانها على الاهداف المحددة بالبند (جـ) .
وفيما بعد تنفيذ عملية القصف المدفعي المخطط اعلاه تظل قطع المدفعية في انتظار اوامر جديدة حسبما يصدر اليها ضباط المدفعية بالتنسيق مع القوات المتقدمة كنقاط ملاحظة لطلائع المشاة .
اما سلاح الجو المصري فقد انيطت به مهمة الاغارة على اهداف تتجاوز مسافة ثلاثة كيلو مترات من الجانب الشرقي للقناة قبل ساعة الصفر بخمس دقائق الى ما بعدها بعشر دقائق .
اما مهمة « المدافع ذات الرمي المستقيم » فكانت شل حركة المراكز الاسرائيلية الحصينة وتوفير دعم مباشر لازالة الاسلاك الشائكة وحقول الالغام من امام طلائع المشاة المصريين . اما المدافع السوفيتية الثقيلة من عيار ١٥٥ ملم و ١٣٠ ملم فكانت مخصصة بقصف مدفعي خاص لاسكات المدافع الاسرائيلية المتمركزة في العمق وكذلك للقيام بدور ضد الدبابات الاسرائيلية .
وكان من العوامل المهمة التي دعمت المدفعية المضادة للدبابات الصواريخ التي تسلحت بها طائرات الهليكوبتر وقد قامت هذه الطائرات (وهي من طرازف . ي . ٤) المزودة بصواريخ روسية من طراز ميلوتكا بحوالي ثلاثين طلعة تتألف كل منها من طائرتين . استخدمت هذه الطائرات كنقاط ملاحظة للمدفعية تعمل بشكل متواصل ، وفي المهام المضادة للدبابات حيثما ظهرت اهداف .

اقامة الجسور على القناة

في حين ان المرحلتين الاوليين من هجوم القوات المصرية كانتا تشكلان مشكلة ، وخاصة للمشاة والمدفعية المصرية ، فان المرحلة التي تلتهما ، وهي مرحلة انشاء الجسور والعمليات في مواقع عبور القوارب واختيار اماكن اقامة الجسور كانت بصورة رئيسية تشكل مشكلة هندسية . وكان من حسن طالع الجيش المصري وجود شخص ممتاز يعمل في صفوفه ، وهو ضابط متفان ، تولى قيادة سلاح الهندسة خلال السنوات القليلة التي سبقت الهجوم المصري ، وهذا الشخص هو اللواء جمال علي .
ومنذ اخذت قوات الجيش المصري المهزوم تتقهقر الى الضفة الغربية من قناة السويس ابان حرب ١٩٦٧ ، اخذ اللواء علي القيام بحملة خاصة لاعداد خطة لعبور القناة وهو مقتنع في قرارة نفسه بان القوات المصرية لا بد ان تعود في يوم من الايام الى عبور الضفة الشرقية لكي تستعيد بالقوة ما اخذ منها بالقوة . وحتى خلال السنوات التي كرس فيها كل وقته وهمه لاعادة بناء مواقع الصواريخ (ارض ــ جو) في منطقة القناة والمساعدة في العمليات التي تجري في منطقة بناء السد العالي ، فقد امر

الضبــاط الذين يعملون تحت امرته بمواصلة الابحاث لتوصل الى افضل السبل لاجتياز القناة ، وقد صرح ذات مرة خلال تلك السنوات بقوله : « ان اقامة قواعد الصواريخ ارض ـ جو كانت تشغل ٩٠٪ من وقتي في حين كان مشروع اجتياز القناة يشغل ١٠٪ من هذا الوقت . ولكن ٩٠٪ من تفكيري كان مشغولا في فكرة اجتياز القناة و١٠٪ منه في اعمال الانشاء » .

وقد قام المصريون بتدريبات على اجتياز كل جزء في طول وعرض دلتا نهر النيل كان يماثل قناة السويس من حيث الحجم والشكل . ولم تنقطع قط اعمال التدريب على اقامة الجسور . وعن ذلك قال اللواء جمال علي انه استعملت للتدريب جسور من نوع بيلي التي يعود عهدها الى ايام الحرب العالمية الثانية . وقد استغرقت عملية اقامة جسور بين الشواطىء الرملية ومرور المدرعات فوقها ما لا يقل عن ثلاثة ايام . وفي سنة ١٩٦٩ ، تلقت مصر عددا قليلا من جسور (بي ام بي) الروسية الصنع الافضل نوعية . وهذه الجسور عبارة عن قوارب تنطوى على بعضها بحيث يبلغ طولها ١١٠ امتار . وتردد ان مصر تسلمت ايضا خلال الاشهر الاخيرة التي سبقت الحرب عددا من احدث الجسور الثقيلة العائمة من طراز (تي بي بي) التي يبلغ طولها اكثر من ضعف طول جسور (بي ام بي) وقيل انه يمكن انشاؤها بمعدل ١٠٠ متر او اكثر في الساعة . وفي الوقت ذاته كلف عدد من المهندسين الشبان من خريجي الجامعات بالعمل على تكييف معدات العبور مع طبيعة الارض . غير ان اقامة الجسور عبر القناة لم يكن الا جزءا من المشكلة . اذ ان اكثر الوقت كان يجب ان يصرف في هدم الحواجز المحصنة وفي هدم الحواجز الترابية على طرفي القناة . وكان معدل عرض الحواجز الترابية المذكورة في جبهة الجيش الثاني المصري يبغ حوالي سبعة امتار بينما كان يتراوح ارتفاعها بين ١٠ امتار و ١٨ مترا . وكان لا بد من القيام بهذه العمليات عند حوالي ٦٠ موقعا يتطلب كل موقع منها ازالة حوالي ١٥٠٠ متر مكعب من الرمال . وقد اتضح ان الجرافات الالية كانت تعجز عن ازالة الرمل الناعم ولذلك فان الطريقة العملية الوحيدة التي تبقت لازالته كانت من خلال خرق هذه الرمال بالمتفجرات ومن ثم القيام بمشقة تكويم الرمال الناعمة لازالتها . ومن شأن هذه العملية المفروض ان تجري تحت وابل من نيران العدو ان تستغرق ما بين ١٢ و ١٨ ساعة . وقد يمضي يوم بكامله قبل ان يتاح للمدرعات اجتياز القناة .

وبعدئذ تفتق ذهن رئيس الوزراء المصري الدكتور عزيز صدقي الذي كان هو نفسه مهندساً بالممارسة عن فكرة رائعة . فمن خلال الخبرة الهندسية التي اكتسبها من العمل في السد العالي ، اقترح استعمال خراطيم مياه ذات ضغط قوي لاذابة جدران التراب . وبعد ذلك تمكن مهندس شاب من تحسين هذه الفكرة بانشاء مضخة طوربينية قوية استطاعت القيام بهذه العملية بوقت اقصر بكثير . وبعد مضي اسابيع من التدريب على هذه العملية اكتشفت السلطات المصرية انه يمكن احداث فجوة في الرمال في خلال مدة تتراوح بين ثلاث وخمس ساعات بما فيها الوقت اللازم لازالة الفضلات والانقاض .

ومن اجل اختصار وقت العملية اثناء المعركة اتخذ قرار بالبدء بعملية تسليط خراطيم المياه على الرمال ، وهو الجزء الذي يستغرق اطول وقت من العملية ، تقريبا فور قيام اول فوج من المشاة بعبور القناة . وتحت حماية المدفعية وستار كثيف من

الدخان جرى تحميل المضخات الطوربينية على عوامات رست رسوا راسخا على الجانب الاخر من القناة لتجنب عودتها الى الوراء متى بدأت بضخ المياة بقوة . وكان من المقرر فيما بعد نسف الحواجز المحصنة من القناة وتسويتها حتى يصبح مستوى الماء على كلا الضفتين متوازيا يتيح للمركبات التي كانت تحمل الجسور التحرك نحو حافتها .

وكان من المفروض ان تعد العدة لشتغيل حوالي ٥٠ مركزا للعبور باسرع وقت ممكن من قيام طلائع المشاة باجتياز القناة . كما كان من المقرر في بادىء الامر نقل المعدات الخفيفة عبر القناة ومن ثم نقل المعدات الاثقل بعد تمديد الجسور وتثبيتها على عوامات من اجل تجنب ازدحام حركة النقل عبر الجسور التي كان من المقرر اقامة ما بين ١٠ و ١٢ جسرا منها .

لقد كان الاشراف على هذه العملية وادارتها وتنسيقها بسلاسة مهمة هائلة تشبه من حيث الدقة عملية رقابية من خلال احدى الات الادمغة الالكترونية ، حتى لقد قال الفريق سعد الدين الشاذلي في هذا المضمار ما معناه :

« ان المشكلة السادسة التي كانت تواجهنا هي كيفية تنظيم قواتنا في الضفة الشرقية من القناة بحيث يتاح للدبابات والمدافع والذخيرة ان تصل الى ايدي المشاة المصريين الذين كانوا قد عبروا القناة من قبل وكيفية التمكن من تنفيذ هذه العملية اثناء الليل في وجه نيران العدو وكيفية تمكين الدبابات وغيرها من قطع الاسلحة من التعرف على الوحدات التي يجب ان تلتحق بها ».

ويمكننا ان ندرك ضخامة هذه المشكلة عندما نعلم عدد الاف الدبابات والاليات والمدافع التي كان عليها ان تعبر القناة لتنضم الى قوات المشاة .

لقد بذل سلاح الاشارة والشرطة العسكرية المصريان اقصى جهد ممكن في هذا الصدد . وكانت خطوط الاتصالات السلكية قد مدت عبر القناة خلال اللحظات الاولى من عبور المشاة وتم تمييز الطرق العادية من خطوط سير الدبابات ووضعت علامات ذات الوان مختلفة على كل منها .

وكان احكام تنفيذ مثل هذه العملية المعقدة يتطلب تدريب القوات المصرية لعدة اشهر ، ولكن الجيش المصري تمكن في النهاية من الابداع في تنفيذها حتى ان المدة القصوى التي استغرقها في انشاء جسر في احد المواقع لم تزد على سبع ساعات تمكنت بعدها الدبابات من عبور القناة في ذلك الموقع وواصلت العبور حتى منتصف يوم ٦/٧ تشرين اول .

ترتيب القتال المصري

طورت القوات المسلحة المصرية نظام قيادة يتولى المسؤولية على نمط التنظيم المعمول به في الاتحاد السوفييتي . فعلى كل مستوى حتى مستوى الفرق يعين القائد نائبا اول له يلقب على وجه العموم في العادة برئيس الاركان ولكنه في الواقع يقتسم مسؤولية القيادة بالتساوي مع القائد وبالاضافة الى رئيس الاركان هناك ايضا نائب ثان له رتبة ادنى نسبيا من رتبة القائد ورئيس الاركان بحيث يكون اما برتبة لواء او عميد يكون على الرغم من كفاءته قد وصل الى اعلى رتبة يمكن ان يصل اليها . وهو يقوم في العادة بمهمة اجراء الاتصالات مع التشكيلات الدنيا وغير ذلك من المهمات التي ينتدب للقيام

بها . وعلى مستوى الجيش يكون جميع هؤلاء القواد الثلاثة برتبة لواء . اما القائد العام للقوات المصرية فكان المشير احمد اسماعيل الذي كان يتخذ مقراً لقيادته في القاهرة . وكان رئيس اركان حربه قبل الحرب وفي اثنائها الفريق سعد الدين الشاذلي الذي كان مقر قيادته في الجبهة وكان يقود العمليات الحربية من مراكز القيادة المقامة باحكام تحت الارض خارج ضاحية ناصر التي تقع الى الشرق من القاهرة .

يقول المعهد الدولي للدراسات الأستراتيجية ان الجيش المصري يتألف من ٢٦٠٠٠٠ جندي منظمين في فرقتين مدرعتين (وربما فرقة اضافية في طور التشكيل) وثلاث فرق آلية وخمس فرق من المشاة بالاضافة الى لوائين مدرعين مستقلين ولوائين مستقلين من المشاة ولواء مظلات و٢٦ كتيبة من قوات الكوماندوز . اما سلاح المدفعية فهو منظم في ستة الوية (والالوية المدرعة والوية المدفعية المذكورة هي بالاضافة الى الدبابات والمدافع الداخلية في تشكيل الفرق . وقيل ايضا ان عدد الوية المدفعية قد زيد من عشرة الوية الى حوالي اثني عشر لواء بحلول تشرين اول ١٩٧٣) .

اما مجموع عدد الدبابات التي كان يمتلكها المصريون فكان قبل الحرب حوالي ١٧٠٠ دبابة ، معظمها من طراز تي ــ ٥٤ وتي ــ ٥٥ ولكن بينها ١٠٠ دبابة من طراز تي ــ ٦٢ وحوالي ٧٥ دبابة من طراز تي ــ ٧٦ وهي دبابات برمائية تستعمل للاستطلاع .

اما التشكيلات المصرية المصفحة والالية فتحتوي على ما مجموعه ٢٠٠٠ ناقلة جنود مدرعة . وكان الجيش يمتلك ايضا عددا من الصواريخ ارض ــ ارض كما يقول(المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية) تشمل ٢٤ صاروخا من طراز فروغ ــ ٣ وبعض الصواريخ من طراز فروغ ــ ٧ التي يبلغ مداها ٥٠ كيلو مترا و ١٠٠ صاروخ من طراز ساملیت .

اما سلاح الطيران المصري (بقيادة اللواء حسني مبارك) فكان يضم حوالي ٦٢٠ طائرة مقاتلة ، تشمل ٢١٠ طائرة مقاتلة من طراز ميغ ٢١ (١٤ ــ ١٥ سربا) و٨٠ طائرة قاذة مقاتلة من طراز سوخوي ــ ٧ (٦ ــ ٧ اسراب) و ٢٥ طائرة قاذفة متوسطة من طراز تي يو ــ ١٦ (سربين) وعدد من الطائرات من طراز ميغ ١٧ ــ س (٦ ــ ٧ اسراب) ولا يعرف عدد الطائرات الاخرى التي تسلمتها مصر قبل الحرب مباشرة . فقد كان الاتحاد السوفييتي قد سحب طائراته من طراز ميغ ــ ٢٥ س التي كان يقودها طيارون سوفييت والتي كانت تقوم باعمال الاستطلاع على علو شاهق جدا عندما سحب المستشارون السوفييت من مصر في سنة ١٩٧٢ . ولكن من العناصر المهمة التي كانت ملحقة بسلاح الجو المصري اسطول يبلغ عدده ١٩٠ طائرة هليكوبتر ، ٩٠ منها كبيرة من طراز مي ٨ و ٢٠ ــ ٣٠ من طراز مي ٦ و ٧٠ ــ ٨٠ من طراز مي ٤ .

اما الدفاع الجوي فكان يعتمد على صواريخ ارض ــ جو من طراز سام ــ ٢ وسام ــ ٣ . ولا يعرف بالضبط عدد قواعد الصواريخ المذكورة . غير ان اجهزتها المتشابكة كانت تغطي مساحة مخروطية الشكل تتألف قاعدتها من قناة السويس ورأسها من القاهرة . وقد اقيمت ايضا وسائل الدفاع الجوي عن المناطق الحساسة كالقاعدة الجوية التي تقع الى الغرب من القاهرة والاسكندرية والسد العالي في اسوان . اما المناطق التي تقع الى الشمال والجنوب من مثلث القناة القاهرة فكانت محمية

بمواقع متفرقة للصواريخ ليست منظمة في اطار شبكة متكاملة .

والجدير بالذكر ان الصواريخ من طراز سام ــ ٢ المضادة للطائرات التي تحلق على ارتفاع شاهق ومتوسط ، وصواريخ سام ــ ٣ المضادة للطائرات التي تحلق على ارتفاع متوسط ولكنها مدعومة بصواريخ من طراز سام ــ ٢ لتوفير حماية جوية ضد الطائرات التي لا تطالها الصواريخ الاخيرة . وهذه الصواريخ بنوعيها تترك للعدو فرصة للهجوم بطائرات تحلق على ارتفاع منخفض . ولتوفير حماية ضد هذه الطائرات في المناطق الامامية قامت السلطات المصرية بتزويد هذه المناطق بصواريخ ارض جو من طراز سام ــ ٦ وبصواريخ فردية من طراز (ستريللا) سام ــ ٧ . وبالاضافة الى ذلك جرى دعم وسائل الدفاع الجوي المصري ببطاريات من المدافع الحديثة جدا المضادة للطائرات وضعت في مواقع اختيرت بدقة . وقد قيل ان هذه المدافع احدثت خسائر جسيمة في الطائرات المعادية خلال الحرب .

وقد وضعت خدمات الدفاع الجوي بما فيها طائرات الميغ ٢١ ، تحت قيادة مركزية انيطت باللواء محمد علي فهمي ، قائد وسائل الدفاع الجوي المصري . وقيل ان هذه القيادة قد تلقت مساعدة فنية خاصة من كبار المستشارين السوفييت . غير ان الوحدات التي كانت مرابطة في منطقة قناة السويس كان يشرف عيها اشرافا تاما ضباط مصريون كانوا قد تلقوا تدريبا عاليا .

ومن السيئات الكبرى لتشغيل شبكة متكاملة لوسائل الدفاع الجوي التي تعتمد على الصواريخ المضادة للطائرات انها تشكل خطرا كبيرا على الطائرات التابعة للبلد الذي يشغل هذه الشبكات خاصة الطائرات التي تقترب من المنطقة التي لا تميز الطائرات الصديقة من الطائرات المعادية . اذ لم تبتكر بعد وسائل تميز الطائرات المعادية من الطائرات الصديقة من شأنها ان تجعل الطائرات الصديقة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت بمأمن من مهاجمة الصواريخ الصديقة لها . ولهذا فان الوسيلة الوحيدة لضمان سلامة طائرات بلد ما من صواريخه الخاصة هي تعيين مناطق جوية مألوفة اي ممرات جوية يبطل فيها مفعول الصواريخ عندما تبلغ سرعة الطائرات حدا معينا متفقا عليه من قبل . ولكن هذه الوسيلة تنطوي بطبيعة الحال على خطر قيام شبكات الرادار المعادية الاستطلاعية باكتشاف وجود هذه الممرات الجوية مما يتيح للطائرات المعادية استعمالها للقيام بغارات جوية لتدمير شبكات الصواريخ . وبما ان المصريين كانوا يعتمدون على مظلتهم الجوية التي توفرها الصواريخ المضادة للطائرات . فقد قرروا عدم السماح بانشاء مثل هذه المناطق او الممرات الجوية المأمومة . وهو قرار أدى الى منع الطائرات المصرية من القيام بنشاط فوق تلك المنطقة الا في الحالات الطارئة مع تعرضها في هذه الحالة لخطر اصابتها بالصواريخ المصرية نفسها .

اما البحرية المصرية (وكانت بقيادة الفريق البحري فؤاد ذكري) فكانت تتكون من ١٢ غواصة روسية (٦ من الفئة (بليو) و٦ من الفئة د) و٤ سفن حراسة بريطانية وسفينة حراسة صغيرة روسية و١٢ مطاردة غواصات و١٢ كاسحة الغام و ١٩ زورق صواريخ روسي من فئة اوسا وكومار مسلحة بصواريخ سطح ــ سطح وبعض سفن الانزال . وكان مقر البحرية المصرية الرئيسي في الاسكندرية وقد اضطلع على الارجح بدور دفاعي في شرقي البحر الابيض المتوسط .

وكان المصريون قد ارسلوا في وقت سابق مدمرتين الى البحر الاحمر عن طريق رأس

الرجاء الصالح وقد اتخذتا قاعدة لهما في بور سودان حتى نشوء النزاع السياسي بين مصر والسودان . ومن ثم غادرتا بور سودان واتجهتا الى كراتشي التي عادتا منها مؤخرا الى البحر الاحمر واتخذتا قاعدة لهما في عدن . وتواردت الانباء ان اسرائيل كانت قد اجرت مفاوضات مع اثيوبيا لاستعمال جزر في باب المندب كقاعدة بحرية لزوارق الدورية الاسرائيلية . ولكن المفاوضات لم تسفر عن اية نتيجة . ولذلك فقد اصبح مضيق باب المندب تحت سيطرة المدمرتين المصريتين . وبالاضافة الى ذلك فقد اتخذ عدد من زوارق الدورية المصرية وغيرها من السفن قاعدة له على ساحل خليج السويس .

القوات المصرية التي خصصت للهجوم على القناة

كانت القوات المصرية في جبهة القناة تتكون من الوية وفرق وجيوش . والواقع ان كلمة « جيش » العسكري المصري يعادل « الفيلق » في النظم الغربية والنظام المتبع في الهند ، اي انه يتكون من مجموعات من الفرق التي يكيف عددها تبعا لمتطلبات قيادة العمليات . اما القوات المصرية التي خصصت للهجوم على القناة فكانت تتكون من الجيشين الثاني والثالث . واحتفظ بالجيش الاول كقوات احتياطية . والواقع انه لم يكن للجيش الاول مقر قيادة ولا قائد . بل ان فرق القوات الاحتياطية التي كانت ترابط بالقرب من القاهرة والتي كانت تخضع لمقر القيادة العامة كان يطلق عليها من غير تحديد اسم « الجيش الاول » .

وكانت الخطة العامة للهجوم تقضي بان يرابط الجيش الثاني بقيادة اللواء سعد مأمون والذي كان يضم خمس فرق بين بور سعيد والبحيرات المرة الكبيرة على ان تكون مقر قيادته في الاسماعيلية . اما الجيش الثالث بقيادة اللواء عبد المنعم واصل الذي كان يضم ثلاث فرق فكان من المقرر ان يرابط بين البحيرة المرة الكبيرة وبور سعيد على ان يكون مقر قيادته في الصحراء الى الجنوب من البحيرة المرة الصغيرة .

الجيش الثاني :

الفرق المرابطة في الخطوط الامامية من اليسار الى اليمين :

فرقة المشاة ١٨ (بقيادة العميد فؤاد علي غزلي) وكانت ترابط الى غرب القنطرة

فرقة المشاة الثانية (بقيادة العميد حسن ابو سعدى) وكانت ترابط في منطقة الفردان .

فرقة المشاة ١٦ (بقيادة العميد عبد النبي حافظ) وكانت ترابط في جنوب بحيرة التمساح .

الفرق الاحتياطية :

الفرقة المدرعة ٢١ (بقيادة العميد ابراهيم عرابي) .

الفرقة الالية ٢٣ (بقيادة العميد حسن عبد اللطيف) .

الجيش الثالث :

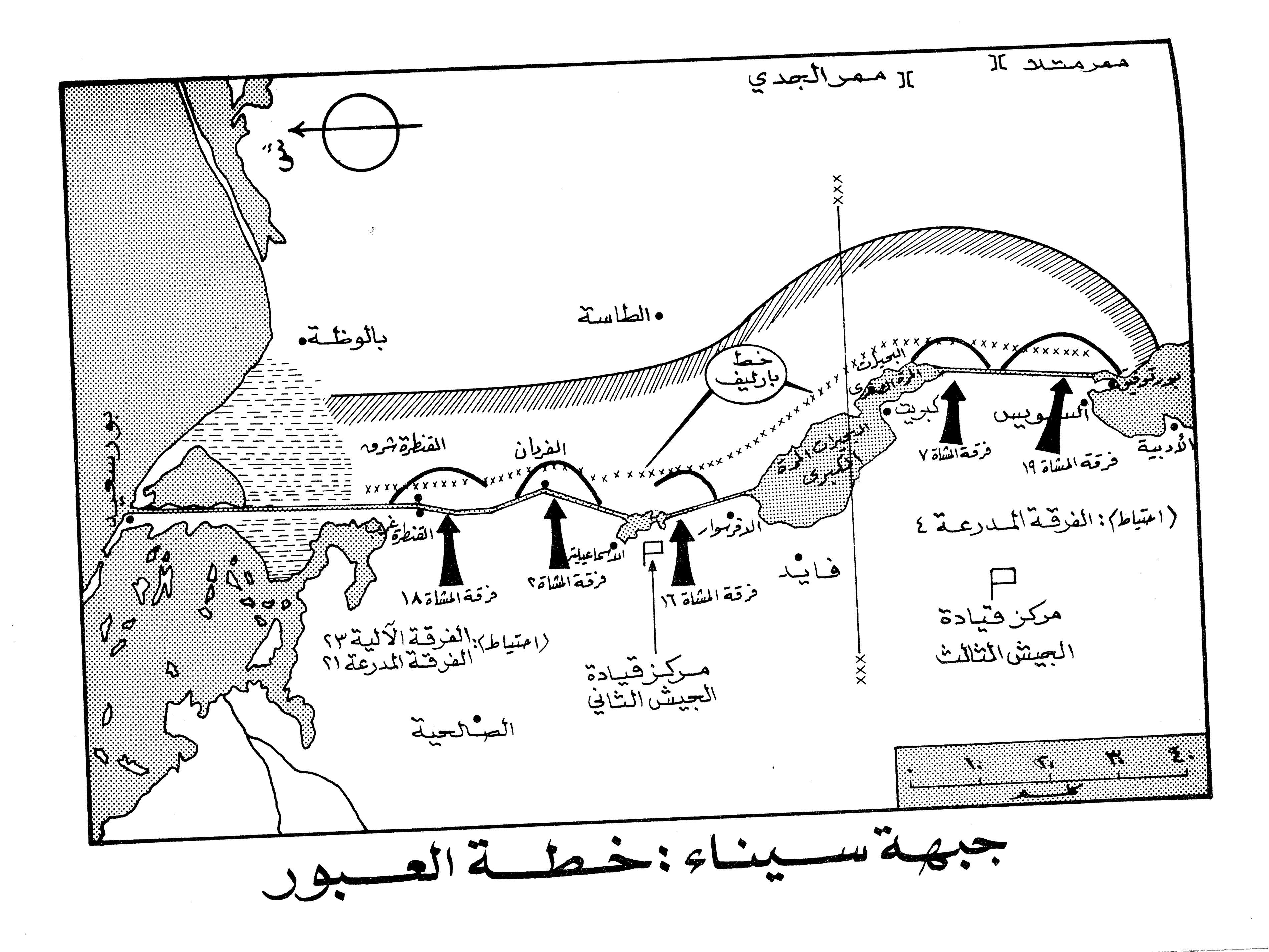
الفرق المرابطة في الخطوط الامامية من اليسار الى اليمين :
فرقة المشاة السابعة (بقيادة العميد احمد زعمر) وكانت ترابط في منطقة البحيرة المرة الصغيرة والمنطقة التي تقع الى الجنوب .
فرقة المشاة ١٩ (بقيادة العميد يوسف عفيفي) وكانت ترابط في المنطقة الشمالية حتى ميناء السويس .

الفرق الاحتياطية :

الفرقة المدرعة الرابعة بقيادة العميد محمد عبد العزيز قابيل .

وكان الجيش الاول التابع لمقر القيادة العامة ، يتكون من الفرقة الثالثة الآلية (بقيادة العميد محمد فرحات) والفرقة السادسة الآلية (بقيادة العميد عبد الفتاح محرم) بالاضافة الى فرقة من القوات الخاصة .

وسوف نرى ان القوات المهاجمة كانت تتكون جميعها من فرق المشاة . والجدير بالذكر ان فرقة المشاة المصرية كانت تضم ثلاث كتائب دبابات كل كتيبة منها كانت تتبع احد الالوية الثلاثة . وبالاضافة الى ذلك كان من المقرر ان تدعم كل فرقة تقوم بهجوم لاقامة رأس جسر على قناة السويس بلواء مدرع . ولم يكن بطبيعة الحال في امكان الدبابات التابعة لكتائب الفرق او الدبابات التابعة للالوية المخصصة للمساندة ان يتقدم الى الامام بحيث تنضم الى الفرق الامامية الا بعد انشاء الجسور .
وكان من المقرر في المرحلة الاولى ان تقوم الوية الطليعة الثلاثة التابعة للفرق المهاجمة بانشاء ثلاثة رؤوس جسور ، اثنان منها بين بور سعيد والاسماعيلية وواحد الى الجنوب من البحيرات المرة . ومن ثم كان من المقرر ان تتبعها الالوية الاحتياطية في عبور القناة . اما في المرحلة الثانية فكان من المقرر اقامة خمسة رؤوس جسور تشكل رأس دائم لعبور جيش مصري كامل يتقدم في العمق مسافة عشرين كيلو مترا كما يظهر في الرسم .
وكانت المهمات الوحيدة التي تتعدى رأس الجسر النهائي تقضي ان يتجه الجيش الثاني الى اليسار للاستيلاء على موقع الرمانة الذي كان يحتله الاسرائيليون ويوجهون منه نيران المدفعية الى مدينة بور سعيد ، وان يتجه الجيش الثالث نحو اليمين على طول الضفة الشرقية لخليج السويس للاستيلاء على رأس السدر وهو مركز لخطوط المواصلات يقع على مرتفعات تنحدر باستمرار حتى تتصل بشاطىء القناة .
واحد الجوانب المهمة لاي خطة للهجوم ، وخاصة اذا كان الهجوم على جبهة عريضة ، هو تحديد الخط الفاصل بين مواقع التشكيلات العسكرية . وتكمن اهمية هذا الخط في الحيلولة دون قيام القوات المهاجمة عرضا باختراق خطوط القوات



جبهة سيناء: خطة العبور



الاخرى ، وفي تحديد المنطقة التي تخضع للقوات التابعة لكل قائد والتي يكون ذلك القائد مسؤولا عنها في حالة قيام العدو بهجوم مضاد . ومن الاهمية بمكان ان تجعل اية خصائص جغرافية بارزة كالطرق او القوى او التلال او البحيرات ، مما يقع بالقرب من خط تقسيم مناطق التشكيلات العسكرية تدخل باكملها في منطقة تشكيل تابع لقيادة واحدة لا ان تقسم بين اكثر من تشكيل والا فقد يفترض قائد كل تشكيل ان قائد التشكيل الاخر هو المسؤول عن امن تلك المنطقة الجغرافية البارزة .

وربما كانت النية تتجه في الاصل الى ان يكون الخط الفاصل بين مناطق مسؤولية الجيشين الثاني والثالث يقع بين البحيرة المرة الكبيرة والبحيرة المرة الصغيرة . وربما اتجه التفكير الى ان الجيش الثالث ينبغي ان يكون مسؤولا عن جبهة اعرض او ربما ان هذه المسألة لم تثر اهتماما كافيا لدى القيادة المصرية بحيث تركت الى احد ضباط الاركان الاداريين . ومهما يكن من امر فقد وضع هذا الخط عبر منطقة البحيرة المرة الكبيرة حسبما تظهر في الرسم . ونتيجة لذلك لم توكل مسؤولية السيطرة الكلية على منطقة البحيرة لا الى الجيش الثاني ولا الى الجيش الثالث وهذا خطأ في الحساب كلف الجيش المصري ثمنا غاليا جدا .

يوم الهجوم وساعة الصفر

كان توقيت الهجوم ينطوي على اتخاذ قرارات بشأن مسألتين مهميتن هما : الساعة التي يجب ان تبدأ فيها اول عملية هجومية مكشوفة والتاريخ الذي يجب ان يبدأ فيه الهجوم . وعلى الرغم من ان القيادة العربية العليا المشتركة كانت رسميا مسؤولة عن اتخاذ هذين القرارين فقدكان من الجلي ان مصر هي التي تولت المسؤولية الرئيسية عن تعيين موعد الهجوم بما انطوى عليه ذلك من النواحي السياسية والاستراتيجية .

وكان اختيار ساعة الهجوم ينطوي على قدر اكبر من الاعتبارات التكتيكية . وكان بطبيعة الحال يوجد تناقض في هذه الاعتبارات بين الجهتين ، حيث ان اتجاه الهجوم المصري كان نحو الشرق واتجاه الهجوم السوري كان نحو الغرب . وبما ان كلا من المصريين والسوريين كان يود البدء بالهجوم حين تكون الشمس وراء قواته وبالتالي في وجه اعين القوات المعادية فقد نشأ خلاف بينهما حول توقيت شن الهجوم اما في الفجر او في الغسق . غير انه كان لدى المصريين دوافع اكثر الحاحا للبدء في الهجوم في الساعات الاخيرة من اليوم حيث انه كان يتعين عليهم ان يعتمدوا على ساعات الظلام لانهاء عملية نقل معداتهم الحربية الثقيلة عبر القناة . ولهذا فقد طرحوا فكرة بدء الهجوم في الفجر . وهناك عامل آخر كان يتحكم كثيرا في اعتبارات المصريين وهو انه كان يتعين على قواتهم ان تعبر القناة على قوارب المطاط اثناء انخفاض التيار الى ادنى مستوى ، وهو يقع بين تغير اتجاه التيار في القناة . وفي النهاية قبل المشير اسماعيل بحل وسط يقضي بشن الهجوم في الساعة الثانية بعد الظهر ، حين تقرر ان تبدأ كل جبهة بشن الهجوم من جهتها . وقد تقرر ان يبدأ المصريون هجومهم بقصف جوي ومدفعي (مع انهم قرروا رسميا ان تبدأ قوارب مشاتهم بعبور القناة في الساعة ٢٠ : ٢ بعد الظهر) . اما في الجبهة السورية فتقرر ان يبدأ الهجوم بتقدم الدبابات بتغطية من وابل من نيران المدفعية وهكذا فقد كانت ساعة الصفر هي الثانية بعد الظهر .

ان اختيار الهجوم اعتمد اكثر ما اعتمد على عوامل سياسية واخرى استراتيجية . وقد نشأت في اوائل شهر ايار سنة ١٩٧٣ بعض الاحاديث عن اقتراح باللجوء الى الحرب . غيرا ن هذا الاقتراح وضع على الرف لعدم تحقيق التضامن العربي في ذلك الوقت تحقيقا كاملا ولعدم تسلم اي من سوريا او مصر ، معدات حربية يعتد بها ، وخاصة لعدم تسلم مصر احدث معدات الجسور العائمة التي كانت تحتاجها لاجتياز القناة . ومن المحتمل ان الرئيس السادات والمشير احمد اسماعيل قررا في احد ايام شهر آب ان اوائل تشرين اول تعتبر من الاوقات الملائمة والمرجحة لبدء الهجوم . ولكن الارجح ان الرجلين احتفظا بهذا السر بينهما او ربما شاركا الرئيس الاسد في الاطلاع عليه .

اما التاريخ الدقيق لبدء الهجوم فكان يعتمد على عوامل شتى كوقت ظهور القمر (حين يكون بدرا اثناء عمليات بناء الجسور واجتياز القناة) واحوال المد والجزر الملائمة في القناة مما حدا بالمسؤولين الى تعيين الساعة الثانية بعد الظهر لتكون ساعة الصفر . وكان من المتوقع أن يحل شهر رمضان في اوائل شهر تشرين اول وهو اخر شهر يتوقع الاسرائيليون ان يستغله المصريون لشن هجومهم . وقد وافق ٦ تشرين اول ١٩٧٣ اليوم العاشر من شهر رمضان . وفي مثل هذا اليوم قبل ١٣٥٠ سنة بدأ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) استعداداته لخوض معركة بدر التي اسفرت بعد عشرة أيام من دخوله المظفر الى مكة المكرمة . كما انه لا يمكن ان يكون قد غاب عن ذهن المشير احمد اسماعيل ان ذلك اليوم يصادف يوم عيد الغفران وهو اقدس عيد في الديانة اليهودية كان ينتظر فيه ان تكون الوحدات الاسرائيلية المرابطة في خط بارليف وغيرها من الوحدات في كل مكان اخر في اقل عددها .

وقد احتفظ المصريون بموعد شن الهجوم طي الكتمان حتى في مؤتمر القمة الذي عقد في القاهرة في منتصف شهر ايلول . وفي ٣ تشرين اول طار المشير اسماعيل وبرفقته اللواء نوفل قائد العمليات التابعة للقيادة العربية المشتركة الى دمشق لابلاغ الرئيس الاسد والقيادة السورية العامة بتاريخ الهجوم وقالا هناك ان الهجوم المشترك الذي اطلق عليه اسم « عملية بدر » ، سيبدأ في الساعة الثانية من بعد ظهر ٦ تشرين اول . وقد عاد المشير اسماعيل الى القاهرة جوا في اليوم نفسه (حيث كان يتعين عليه ان يبلغ القادة العسكريين المصريين بموعد الهجوم) . اما اللواء نوفل فقد توجه الى عمان حيث تباحث هناك مع رئيس الاركان الاردني اللواء زيد بن شاكر . ولم تكن مصر وسوريا تعتزمان ابلاغ الاردن بموعد الهجوم المرتقب او حتى ابلاغه بانهما يعتزمان شن هجوم عام على الاطلاق ، وان كان من الجلي ان الملك حسين قد تكهن بانه وشيك الوقوع . وكل ما خول اللواء نوفل بالبوح به لنظيره الاردني هو ان من المحتمل ان تشتبك سوريا في حرب مع اسرائيل وان مصر ستهب في مثل هذه الحالة الى معاضدة سوريا ولذلك فقط طلب استنفار القوات الاردنية لمواجهة هذا الاحتمال .

وفي مصر ابلغ قادة الفرق عشية الخامس من تشرين اول بان المصريين سوف يشتبكون في حرب مع اسرائيل في اليوم التالي . اما قادة الالوية فقد ابلغوا بهذا السر في الساعة الثامنة من صباح السادس من تشرين اول . اما بقية الرجال العسكريين ، وخاصة قادة طلائع القوات التي كان من المقرر ان تعبر القناة ، فقد ابلغوا في الساعة الحادية عشرة صباحا بان مصر ستقوم بشن حرب تحريرية في غضون ثلاث ساعات .

الفصل الخامس

العودة الى سيناء

في يوم السبت ، السادس من تشرين الاول في ساعة تناول وجبة الغداء ، وعلى ضفاف قناة السويس وعلى مقربة من جسر سكة حديد الفردان المعطلة، اخذ جماعة من الجنود المصريين ، بعضهم يعتمر قبعات لينة وبعضهم حاسر الرأس يتمشون بمحاذاة الشاطىء الرملي وهم يأكلون البرتقال ويرمون قشوره بلا نظام على الشواطىء البيضاء النظيفة . وعلى مسافة قريبة الى الداخل ، كان صهريج ماء قد تعطل واخذت جماعة من العمال في دفعه على طول الطريق . ربما كان جندي اسرائيلي يراقب هذا المشهد ، من على قمة احد المراكز المحصنة في خط بارليف على الضفة الشرقية ، ولم يجد فيه سوى مشهد يومي آخر من الايام التي ألف شهودها ولم يكن هناك جندي مصري واحد يعتمر خوذة فولاذ . وكان وراء هذا الموقع في الضفة الشرقية ، جنود اسرائيليون يلعبون كرة القدم فوق الرمال . اما داخل الحصن فكان الجنود الاسرائيليون المتدينون يقيمون الصلاة في ذلك اليوم : يوم عيد الغفران .

في تمام الساعة الثانية اقتربت فجأة اربع طائرات ميغ مصرية قادمة من الشرق ومضت مسرعة على علو منخفض . وتلا ذلك دوي هائل لانفجار القذائف على امتداد ضفة القناة . وفي الوقت نفسه اخذت صفوف طويلة من الجنود المصريين تنزل الى الماء وهي تحمل قوارب من المطاط . وراح الجنود المصريون يعبرون بها القناة باتجاه المركز الاسرائيلي المحصن على الضفة الاخرى حين كان الغبار المتصاعد يحجب الرؤية عن كل ما يجري .

كان ذلك بداية هجوم الفرقة المصرية الثانية ، او هي بداية عملية بدر ، وكانت مفاجأة العدو كاملة .

وعبرت الفرقة الثانية في المقدمة تتبعها اربع كتائب وفعلت تماماً ما كانت تفعله اثناء تمرينات العبور العديدة السابقة التي قامت بها وتم العبور دون ان يطلق العدو طلقة واحدة من رشاشاته ومدافعه او يحيل سطح الماء الى بساط من لهيب النابالم . وعند وصول الجنود الى مرتفعات ضفة سيناء كانوا يمدون السلالم المصنوعة من الحبال كي يستعملها من يتبعهم من الجنود ويرفعون الاعلام المصرية للدلالة على نجاحهم وللاشارة الى زملائهم كي يعبروا بدورهم . وراحت موجة اثر موجة من المشاة المصريين تعبر القناة بسرعة مذهلة .

ولم تفاجأ قيادة الفرقة الثانية بانعدام رد الفعل من جانب الاسرائيليين . ففي الليلتين السابقتين عبرت مجموعات من رجال الكوماندوز القناة سراً وقطعت اسلاك المواصلات وانابيب النابالم المدفونة تحت خط بارليف . وقد نجحت العملية نجاحاً تاماً بحيث ان دعوات الاستغاثة التي اطلقها الجنود الاسرائيليون الذين كانوا يرابطون في

المراكز المحصنة لخط بارليف لم تصل ابداً الى رجال المدفعية المرابطين وراءهم .

وقد وصف العميد فهيم شديد ، رئيس اركان الفرقة الثانية (وقائدها فيما بعد) ، المعركة بقوله :

« كان ما يجري شيئاً لا يصدق . كان يبدو لنا ان الخوف قد استبد بالجنود الذين كنا نعتبرهم فيما مضى مخلوقات فوق البشر . » .

« ان سلاح المشاة هو الذي قاد الهجوم وحطم حصون خط بارليف . فخلال ساعات طويلة قاتل جنودنا الذين لم يكونوا مسلحين الا بالقنابل اليدوية والصواريخ التي تطلق من الكتف دبابات العدو وحصونه المنيعة .

« لقد كنا نعتمد على عنصر المفاجأة ، وكانت وايم الحق المفاجأة كاملة الى حد ان الذعر دب في صفوف العدو عند مشاهدته أمواج المشاة المصريين يعبرون القناة في وضح النهار . وفر العدو . نعم لقد فر ، تاركاً في حالات عديدة حصونه ودباباته وراءه . وخلال ساعات عديدة راح رجالنا يطاردون دباباته بقنابلهم اليدوية وصواريخهم . وغالباً ما كان جنود الدبابات يفضلون الاستسلام بعد اصابة دباباتهم اصابات طفيفة بدلا من مواصلة القتال بالاسلحة المتوفرة بين ايديهم » .

لم يكن في كلام العميد شديد اثر لغطرسة او لشعور بالتفوق العنصري او لحط من قدر العدو ، عندما تابع قائلا :

« بعد كل الذي سمعناه عن تفوق الانسان الاسرائيلي تبين لنا انه لا يختلف في شيء عن اي جندي آخر . فعندما فاجأنا في عام ١٩٦٧ وضربنا بقسوة فررنا . والان جاء دوره : لقد اعدناه الى حجمه الطبيعي » .

وكان هذا المشهد نفسه يتكرر على طول جبهة القناة .. في القنطرة والفردان وبحيرة التمساح وقطاع الجيش الثالث . ومع توالي القصف المدفعي المصري عبر ثمانية الآف من المشاة المصريين في الهجمة الأولى . وكان كل واحد من هؤلاء الجنود يحمل حملاً ثقيلا – بعضهم كان يحمل انابيب فوق كتفيه وبعضهم كان يسحب مقطورات خفيفة وبعضهم كان ينقل « حقائب » من المعدن او الكتان .

كانت الانابيب تستخدم لاطلاق قذائف « آر بي جي ٧ » المضادة للدبابات ، وكانت « الحقائب » حاملات لصواريخ « ساغر » المضادة للدبابات ايضاً . اما المقطورات فكانت تحمل صواريخ « سام ٧ » المتطورة والمضادة للطائرات . وهكذا كان لدى المشاة في تلك المرحلة اكتفاء ذاتي في قتالهم ضد الدبابات والطائرات .

وتقدم المهاجمون مباشرة الى خط الدفاع الثاني لمواجهة الدبابات الاسرائيلية التي كانت في الوقت ذاته تنصب عليها حمم المدفعية الثقيلة وقذائف مدافع الدبابات المصرية المتمركزة في مرتفعات رملية اقامتها على الضفة الاخرى . وفي غضون ساعة او ساعتين حطم المصريون معظم الدبابات المرابطة في خط بارليف .

ومع ان معظم حصون بارليف هوجمت بعد ان ارخى الليل سدوله فقد سقط بعضها بعد فترة وجيزة من العبور . وكان الحصن على الكيلومتر ١٩ جنوبي بور سعيد اول الحصون التي سقطت في الساعة ٣,٤٥ بعد الظهر . وخلال الليلة الأولى استولى المصريون على ١٥ حصناً . ولم يتم ذلك كله بسهولة . ففي بعض الحالات كان على المصريين ان يكروا مرات عديدة متكبدين خسائر جسيمة . وفي حالة واحدة فقد تمكن الاسرائيليون من استعادة احد الحصون من المصريين ، وهو يقع الى الشمال من

البلح ، ولكنهم ما لبثوا ان اخلوه مرة اخرى بعد عراك عنيف . اما حصن توفيق الواقع في الطرف الجنوبي من القناة فلم يسقط الا يوم ١٢ تشرين الأول .

وقامت الطائرات الاسرائيلية ، وبعضها من نوع فانتوم ، بهجمات عديدة خلال الساعات الأولى . غير ان المظلة الجوية المصرية في الضفة الغربية من القناة وصواريخ « سام ٧ » التي كان يحملها المهاجمون شلت فعالية الطائرات الاسرائيلية الى حد بعيد . وقد ادعى المصريون انهم اسقطوا ٣٢ طائرة يوم ٦ اكتوبر .

في الساعة ٢,٠٧ بعد الظهر اذاع راديو القاهرة بياناً هذا ترجمته :

بيان رقم ٥ ـ تمكنت قواتنا من عبور قناة السويس في قطاعات عديدة واستولت على حصون العدو القائمة فيها وتم رفع العلم المصري على الضفة الشرقية من القناة .

(وكان البيان الاول بمثابة اعلان ببدء القتال ، وادعى فيه المصريون ان الاسرائيليين هم الذين بدأوا الهجوم . وليس من المفهوم لماذا ادعى المصريون هذا الادعاء المنافي للحقيقة .. الا انهم لم يكرروه) .

وقبل حلول الظلام تمكن المصريون من اقامة ثلاثة رؤوس جسور دائمة عبر قناة السويس بعد ان تقدم المشاة مسافة تتراوح بين ثلاثة كيلومترات واربعة داخل الصحراء . كذلك عبرت القناة دبابات برمائية من طراز بي ت ـ ٧٦ والتحقت بالقوات المهاجمة . وكان الكثير من هذه الدبابات قد استعمل لنقل المعدات الثقيلة اللازمة خلال الساعات التي سبقت اقامة رؤوس الجسور .

وبدأت المرحلة الثالثة ، مرحلة اقامة الجسور والمعابر ، حالما انطلقت اشارات النجاح . وهكذا اندفعت مجموعات منظمة من كل كتيبة تتألف كل منها من رجال سلاح الاشارة والعابرين بالزوارق والشرطة العسكرية والمهندسين ليصلوا الى ضفة القناة المقابلة بدقة بالغة ويقيموا مراكز على كلا جانبي القناة عند موقع كل كتيبة . وسرعان ما شقت الطرقات فوق جدران الرمال للدخول والخروج على السواء ، عند كل مركز عبور . وقبل ان يرخي الليل سدوله كانت كل كتيبة قد اصبح لديها مراكز عبورها الخاصة حاملة الرجال والمعدات عبر الماء .

وفي غضون ذلك كانت المضخات العنيفة الطوربينية تنقل هي الاخرى عبر القناة لكي تسلط خراطيم مياهها على كل بوصة من جدار الرمال الاسرائيلي . اما المهندسون فقد عكفوا على تفجير المنشآت عند حافة القناة في حين انصرفت الجرارات الضخمة (البولدوزر) الى ازالة الانقاض تمهيداً لانشاء مراكز لتثبيت الجسور بها . وهكذا بدأ بناء ما مجموعه عشرة من الجسور كل اثنين منها مخصص لفرقة . وكانت هذه هي المناطق التي ركزت طائرات العدو ومدفعيته هجومها عليها . وما كان لمثل هذا العمل ان يجري في الاحوال العادية قبل حلول الظلام ولكن الامر مختلف في هذه الحالة بالذات فالساعات الواقعة بين الساعة الثانية بعد الظهر وبين موعد حلول الظلام كانت ساعات ثمينة لا يمكن تبديدها . وكان ذلك ينطوي على اخطار لا مفر من تحملها وان امكن تقليصها حتى الحد الادنى من خلال اطلاق ستائر من الدخان ، وقبل اي شيء آخر ، من خلال خداع العدو . فلقد تقرر ان تنشىء كل فرقة جسراً مزيفاً بدقة بالغة بحيث تنطلي الخدعة على العدو فيحسب انها جسور حقيقية . والواقع ان الجسور هذه كانت اكثر من جسور « مزيفة » ، لقد كانت شركا للايقاع بالعدو ، وكذلك الجسر الذي خطط المصريون لاقامته في منطقة جسر الفردان .

كان خط سكة حديد القاهرة ـ القدس القديم يعبر قناة السويس فوق جسر متحرك عند الفردان . وما زال خط مرور هذا الخط الحديدي فوق النهر قائماً حتى الان كما هو مبين في الرسم التخطيطي ، وان كان الاسرائيليون قد انتزعوا القضبان التي كانت في الضفة الشرقية من القناة لاستعمالها في انشاء مراكزهم المحصنة . وكان الطريق من مدينة الاسماعيلية يجعل امكان عبور القناة من تلك النقطة امراً مرجحاً جداً . ومن هنا منذ اقام الاسرائيليون في هذه البقعة مركزين محصنين على كلا جانبي موقع جسر الفردان شمالا وجنوبا . وكان قائد الفرقة الثانية قد قرر ان يجعل من هذا الموقع جسراً مزيفاً . ذلك ان الجسرين الحقيقيين اللذين استخدمتهما قواته كانا على بعد بضعة كيلومترات من هذه البقعة احدهما الى الشمال منها والاخر الى الجنوب منها .

وكان لا بد من بناء الجسر المزيف بنفس القدر من الدقة التي تستخدم في بناء الجسور الاخرى الحقيقية ـ شاملا ذلك عمليات الاختراق بخراطيم المياه ، ذاتها حركات المهندسين ، تدفق سيارات الشحن ، نفسها التي تحمل معدات الجسور . واذا ما تعرض هذا الجسر المزيف للضرب كان لا بد من ترميمه المرة تلو المرة . والفارق الوحيد بينه وبين الجسور الحقيقية هو ان ستار الدخان قد حجب عنه عن عمد طائرات العدو له من خلال توجيه ستار الدخان الاصطناعي نحو الرمال الى الشرق من القناة فتسنح الفرصة لطائرات العدو لاكتشاف موقعه . ومعنى ذلك ان الاصابات في هذا الموقع كان من المقدر ان تكون فادحة . وعلى الرغم من ذلك اقبل الكثير من المتطوعين المصريين للعمل في مركز « الخطر » . (والواقع ان سلاح الجو الاسرائيلي دمر جسر الفردان بالفعل مرتين في غضون ٢٤ ساعة ـ واعلن الاسرائيليون عبر اذاعاتهم بسرور انهم « دمروا معظم الجسور ») .

والحقيقة ان اصابات المصريين كانت في اليومين السادس والسابع من تشرين الاول (اكتوبر) فادحة عند موقع الجسر المزيف . ولكنها لم تذهب سدى فقد جعلت في امكان الفرقة الثانية ان تبني جسرين آخرين خلال فترة زمنية قياسية . ففي غضون فترات التدريب كان اسرع وقت تم خلاله بناء الجسر هو سبع ساعات . اما في يوم عيد الغفران فقد تم بناء احد الجسرين خلال خمس ساعات فقط . وعبرت دبابات الفرقة الثانية القناة الى الضفة الشرقية في غضون فترة تراوحت بين ٦ ساعات وثماني ساعات فقط . وبذلك وصلت قبل منتصف ليلة ٦/٧ تشرين الاول (اكتوبر) .

وجدير بالذكر ان الجسر الروسي يتألف من عدد من القناطر القابلة للتفكيك والطي ، وكل منها على شكل صندوق . وهي تنقل في سيارات تصل الى الشاطىء ثم تفرغ حمولتها فوق الماء . ثم يقوم زورق مائي بنقل كل جزء الى مكانه على الماء ثم يركب جزء بحيث يعد لاستقبال الجزء الذي يليه او كما وصف الاسرائيليون هذه العملية فقالوا « لقد اخذ الجسر ينمو فوق الماء ويمتد كما تمتد الذراع » .

ولا تقف قصة الفردان عند هذا الحد . فقد نجحت فكرة الجسر المزيف الى ابعد مدى بحيث استخدمتها قيادة الفرقة الثانية لكي تنصب للاسرائيليين بعد يومين كميناً انزل بهم خسائر فادحة اعتبرت بالنسبة اليهم من اسوأ ما اصيبوا به من نكسات في حرب سيناء .

على ان الامور لم تسر كلها على هذا النحو من النجاح . فعلى جبهة الجيش الثالث اصطدم خرق جدار الرمال بصعوبات في معظم المراكز . فقد كانت الرمال هناك اشد

تماسكاً وأكثر احتواء على الحصى ومن ثم كان « جرفها » بالنفاثات المائية أشد صعوبة . زد على ذلك ان الجدار الرملي كان اكثر واعمق بحيث وصل عمقه في بعض الاماكن الى ٦٠ متراً ، الامر الذي اقتضى اختراقه انفاق ايام عديدة . ولقد اثار تعثر تقدم الجيش هنا قلقاً بالغاً لدى كبار الضباط في مقر القيادة العامة وهم يلتقطون الانباء عبر اللاسلكي . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر بدا كما لو ان الجيش الثالث قد تسمر في مكانه . وهنا اوفد الفريق احمد اسماعيل الى هذا القطاع كبير المهندسين الفريق جمال علي واتبع ذلك باصدار اوامره الى دبابات الجيش الثالث لكي تتوجه نحو الشمال وتعبر القناة من وراء الاسماعيلية فوق جسور الجيش الثاني متجهة نحو الشمال وتعبر القناة من وراء الاسماعيليةفوق جسور الجيش الثاني متجهة نحو الضفة الشرقية من القناة . واخيراً تمكن الجيش الثالث من تفادي هذا المأزق لحسن الحظ . فقد استطاعت قواته من المشاة وفرق الصواريخ ان تصد الهجمات المضادة حتى اتم مهندسو الجيش بناء الجسور . وفي احدى الغارات الجوية الاسرائيلية استشهد العميد محمد حمدي مساعد الفريق جمال علي عند احد مواقع جسور الجيش الثالث .

وما كادت العمليات العسكرية في جبهة القناة تقطع شوطاً ملموساً حتى بدأت القوات الجوية وفرق الكوماندوز المصرية المحمولة في طائرات الهليكوبتر القيام بسلسلة من الغارات الرامية الى تدمير مراكز المواصلات والمنشآت الادارية الاسرائيلية . ولكن لما كانت هذه القوات مضطرة الى الابتعاد عن مدى المظلة الجوية لصواريخ سام فقد كان المتوقع ان تتكبد خسائر فادحة . وكان ذلك امراً لا بد من تحمله بالنظر الى ان المهمات التي كانت تقوم بها كانت مهمات جوهرية بالنسبة الى عمليات بناء رؤوس الجسور .

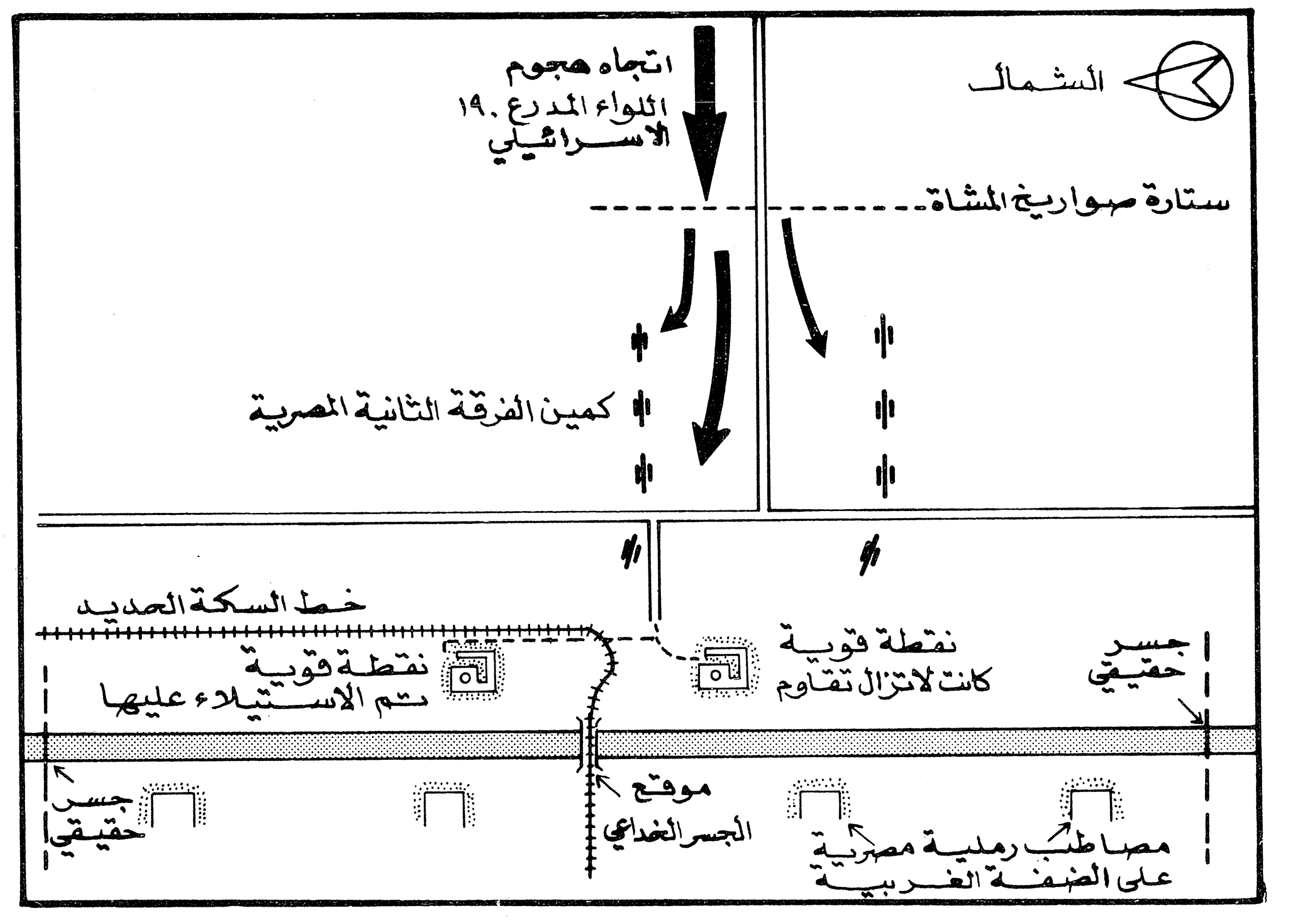
وتمكنت الطائرات الحربية المصرية من التغلغل في اعماق شبه جزيرة سيناء محلقة على علو منخفض لكي تتفادى اجهزة الرادار الاسرائيلية وتتمكن من ضرب اهداف استراتيجية في سيناء بدقة بالغة . وتمكنت طائرات ميغ ٢١ التي تفوق سرعتها سرعة الصوت وطائرات سوخوي ٧ من الوصول الى القواعد الجوية في اماكن بعيدة مثل مطارات المليز وحاتسور والعريش . وقالت هذه القوات الجوية كذلك انها اغرقت سفينة نقل اسرائيلية بالقرب من مستوطنة بيت شيفا على خليج السويس . والواقع ان الغارات التي قامت بها فرق الكوماندوز المصرية المحمولة بطائرات الهليكوبتر كانت جديرة بالتنويه . ومع ان الاسرائيليين يدعون انهم اسقطوا خمس طائرات هيلكوبتر من بين كل ست طائرات ، الا ان تلك الطائرات نجحت في تحقيق اهدافها على نحو جيد . ولعل افضل دليل على مدى فعالية هذه الغارات التي قامت بها قوات الكوماندوز المصرية هو ان القوات الاسرائيلية لم تستطع ان تشن في غضون الاربع عشرة ساعة الاولى من القتال اكثر من ست او سبع هجمات مضادة على رؤوس الجسور المصرية — الامر الذي يدل على مدى عرقلة عمليات مواصلات الاسرائيليين وغير ذلك من مرافق مقر قيادتهم . وفي جميع هذه العمليات لم تزد خسائر المصريين في اليوم الاول من القتال على ١٦ طائرة من طراز ميغ ١٧س وميغ ٢١ س بالاضافة الى عدد غير معروف من طائرات الهليكوبتر (تدعي اسرائيل انه ٢٠ طائرة) .

ومن الظواهر البارزة المميزة لهذه الحرب ان الادوار فيها قد انقلبت بالنسبة الى الحروب العربية الاسرائيلية السابقة وذلك من زاوية المبالغة في الادعاءات وفي الدعايات

المسعورة . ففي حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ لم تستطع الادعاءات المصرية المغالية بشأن احرازها انتصارات مبكرة ورفضها الاعتراف بالهزائم ، ان تقنع احداً . وهذه كانت حال الادعاءات الاسرائيلية في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ . فحتى الجنرال هيرتزوغ ، الذي ما كان ليجهل ما كان يجري في الجبهة ، تفوه بادعاءات طائشة عن انتصارات اسرائيلية كان يعرف بالتأكيد ان الزمن سيثبت بطلانها . ففي احدى المرات زعم ان القوات قد ردت الى ما وراء القناة وان ما بين عشرة جسور واحد عشر جسراً قد دمر . ولم يبال المسؤولون في ان يكون ذلك مناقضاً تماماً لبيان اسرائيلي لاحق جاء فيه ان اكثر من ٢٠٠٠ دبابة مصرية قد اجتازت القناة . وكانت الادعاءات الاسرائيلية بشأن خسائر المصريين من الدبابات والطائرات حتى ذلك الحين قد جاوزت كل التقديرات المحتملة بحيث ان السلطات الاميركية توقفت عن تصديقها واعتبرتها بعيدة جداً عن الحقيقة .

وعلى النقيض من ذلك كانت البلاغات المصرية ـ كلما اعلنت ارقاماً واحصاءات ـ اقرب الى التصديق . وبالاضافة الى ذلك لم يبد المصريون مشاعر ابتهاج متطرفة او يطالبوا بمطالب متهورة مثل « القاء الاسرائيليين في البحر » كما حدث في عهد عبد الناصر . اما الاقوال المصرية بشأن خسائر الاسرائيليين ولا سيما في الدبابات والطائرات فمن المحتمل ان يكون قد بولغ فيها . ولعل مرد ذلك الى ان المصادر التي كانت تبلغ عن الاصابات نفسها كانت اكثر من مصدر واحد . ومن المحتمل ان يكون بولغ في عدد الطائرات الاسرائيلية التي اسقطت ولكن ذلك لم يكن بالضرورة مقصوداً . ولقد اوضح الفريق احمد اسماعيل منذ البداية انه لن يتقبل اصدار بيانات باطلة او مبالغ فيها . وكانت النتيجة انه فيما عدا ارقام الطائرات المصابة ، كانت البيانات المصرية فيما يتعلق بخسائر الجانبين اقرب الى الصدق وبرهنت فيما بعد انها بصورة عامة جديرة بالثقة . وكان ذلك تماماً على نقيض الادعاءات الاسرائيلية طوال الحرب . (وما يثير الاهتمام انه عندما اجرى السيد هيكل مقابلة مع المشير احمد اسماعيل بعد الحرب ، كان في عداد الاسئلة التي وجهها اليه سؤال يطلب فيه بيان الاسباب التي جعلته يستمر في انكار اختراق الجنرال شارون للضفة الغربية من القناة طيلة يومين ، ما دام انه كان قد تعهد بالا يكشف النقاب الا عن الحقائق . وكان جواب المشير مباشراً وصريحاً في آن واحد : فقد قال انه لم يصله نبأ اختراق قوات اسرائيلية ذات شأن لغربي القناة حتى بعد ظهر السادس عشر من تشرين الاول عندما عاد من اجتماع عقده مجلس الشعب . واضاف يقول انه حتى عندما ابلغ ذلك لأول مرة قيل له ان مجموعة صغيرة فقط من القوات الاسرائيلية تمكنت من اختراق القناة .

وكانت بضع وحدات فقط من الوحدات العسكرية الاسرائيلية الاحتياطية قد تمكنت من الاندفاع لتعزيز القوات العسكرية في شبه جزيرة سيناء في ليلة ٦/٧ تشرين الاول . ولكنها لم تستطع ان تشن الا هجمات معاكسة خفيفة في السابع من الشهر . ولم تستطع هذه الهجمات ان تنال من الحشود المصرية التي بلغ ما وصل اليها من الدبابات حتى ذلك الوقت نحو ٦٠٠ دبابة . وكان اول هجوم معاكس رئيسي شنه الاسرائيليون ، في الثامن من الشهر ولكنه اتجه نحو فخ مصري اعد بعناية بالغة .



خريطة توضيحية للكمين المضاد للواء المدرع ١٩٠ الاسرائيلي في منطقة القردان

وكانت الفرقة الثانية هي التي نصبت هذا الفخ ، وقد اتاح وقوع الاسرائيليين فيه ما كان يتملك القوات الجوية الاسرائيلية من رغبة جامحة في تحطيم جسر الفردان . ذلك ان القيادة العسكرية الاسرائيلية الجنوبية وكذلك القيادة العسكرية العليا في تل ابيب كانتا كما يبدو مقتنعتين بانه اذا تمكنت القوات الاسرائيلية من تدمير هذا الجسر مرتين ، فلا بد انها ستحول دون اجتياز المصريين للقناة في هذا القطاع وبذلك تكون قد وجدت نقطة ضعف في الجبهة المصرية . وايد اعتقادها هذا ان المركز الاسرائيلي المحصن الى الجنوب من جسر الفردان كان حتى ليلة ٨/٧ من تشرين الاول ، ما زال صامداً .

وكان المصريون قد تمكنوا بواسطة اجهزتهم الالكترونية من التقاط مكالمات لاسلكية بين بئر السبع واللواء المدرع الرابع عشر فهم منها ان الاسرائيليين يبيتون شن هجوم معاكس صباح الثامن من الشهر . وعندئذ تعمد المصريون الامتناع عن القيام بمحاولات جديدة للاستيلاء على مركز محصن جنوبي الفردان . فقد افترضوا انه اذا بقي هذا المركز الاسرائيلي القوي صامداً ، فان الاسرائيليين سيتوجهون بأول هجوم معاكس كبير لهم نحو هذا المركز بالذات .

وكان هناك طريق معبد يصل صحراء سيناء بمنطقة الفردان ويتفرع من الطريق الرئيسي العام الذي يفضي الى بير جفجافة . وفي ذلك الطريق وعلى بعد كيلومترين فقط من ضفة القناة اقامت الفرقة الثانية حاجزاً من صواريخ المشاة التي نصبتها داخل حفر ارضية خفيفة . وكانت الأوامر المعطاة لهذا الكمين تقضي بان لا تطلق النار على دبابات العدو ، في اي ظرف من الظروف ، قبل ان تجتاز القوات المدرعة الاسرائيلية خط الكمين . وعندئذ يصبح في وسع الكمين ان يضرب الدبابات من الخلف . واوفدت القيادة المصرية ضابطاً كبيراً لكي يشرح هذه الخطة لرجال الكمين المزودين بالصواريخ ويبين لهم اهمية ارجاء اطلاق النار . وفي الوقت نفسه ولكي يغري المصريون العدو بالبدء بالهجوم قبل موعده ، اعطيت الأوامر للقوات المصرية بالتظاهر بقيام عرباتها بتنقلات وقيام مهندسيها بأعمال مكثفة بالقرب من الجسر المزيف .

ولقد وزع رجال الكمين المصري نفسه بعناية بالغة ، بما في ذلك الدبابات والصواريخ ، على جانبي الطريق وفي مراكز خفية . وفي مقر رئاسة المدفعية تولى اللواء ماحي من جديد مهمة القيادة المركزية للمدفعية وتحركات طائرات الهليكوبتر وذلك بغية تنسيق عمليات اطلاق النيران المضادة للدبابات على القوات الاسرائيلية المدرعة القادمة .

وفي الساعة الثانية صباحاً التقط المصريون رسالة تشير الى ان العدو كان يحشد قواته للقيام بالهجوم المضاد . وفي الساعة ٩,٤٠ صباحاً التقطت شبكات القوات المصرية رسالة اخرى من قائد اللواء ١٩٠ الاسرائيلي ويرجح انه كان اوغدا اسرائيلية تتألف من كتيبتي دبابات بقيادة العقيد (الكولونيل) عساف ياغوري تدل على قيامه باصدار الأوامر لشن هجوم على جسر فردان بسرعة تبلغ ٤٠ كيلومتراً في الساعة . وفي الساعة ٩,٤٠ صباحاً قامت ١١ ـ ١٢ من الدبابات الاسرائيلية بالاتجاه نحو الجسر فاعترضتها القوات المصرية فيما اقتربت من الطريق السالفة . ولا يعرف تفسير لامتناع هذه الدبابات عن اعطاء تحذير للقوات الاسرائيلية . وفي الساعة العاشرة صباحاً جاء الهجوم الاسرائيلي المتوقع وكان يضم ١٠٠ ـ ١١٠ دبابات اتجهت جنوباً على جبهة يتروواح عرضها بين كيلو متر واحد وكيلو متر ونصف الكيلو متر من طرفي طريق جسر

الفردان . وقد امتنعت قوات الصواريخ وقوات الكمين المصري المرابطة في العمق عن اطلاق نيرانها على المهاجمين طبقاً للخطة المرسومة حتى وصلت طلائع دبابات العدو خط الطريق المستعرض وبعدئذ قامت كل من قوات الدبابات والصواريخ المصرية التابعة للفرقة الثانية وكذلك مدافع وصواريخ طائرات الهليكوبتر المصرية بقيادة اللواء ماحي بامطار الدبابات الاسرائيلية بوابل نيرانها .

ويقول شاهد عيان ان كل المنطقة الممتدة على عرض جسر الفردان تحولت الى جحيم من نيران القذائف المتفجرة . واستغرق وابل النيران ما بين ثلاث واربع دقائق اعطبت خلالها ٨٥ دبابة اسرائيلية وربما كانت هذه اكبر خسارة منيت بها القوات الاسرائيلية في تاريخها . اما الدبابات الباقية فولت الادبار متراجعة نحو قواعدها فيما توارت خلف ستار قذائف الصواريخ . وقد اصيبت دبابة قائد الاوغدا الاسرائيلية اصابة مباشرة بالقرب من مرقب (بيريسكوب) السائق فترجل العقيد عساف ياغوري منها وحاول الهروب باتجاه شرقي عندما اخذه احد رجال قوات الصواريخ المصرية اسيراً . وقد سلم العقيد ياغوري نفسه وهو زائغ البصر من هول الصدمة دون ان يبدي اية مقاومة .

بعد الهزيمة التي مني بها اللواء الرابع عشر الاسرائيلي المدرع لم تتبق لديه الا ٩٠ دبابة من اصل ٢٥٠ دبابة . وكانت قوات هذا اللواء منهكة الى درجة تقرب من الانهيار . وبحلول هذا الوقت اخذت اول عناصر الفرق الاحتياطية الاسرائيلية تصل الى الميدان وقد خصص قسم منها للقيام بهجمات معاكسة متفرقة كان مصيرها الفشل المحتوم ازاء الجسور المصرية التي اخذت تتوسع ببطء . واخيراً عندما اخذت القيادة العسكرية الاسرائيلية في تل ابيب زمام المبادرة من ايدي القوات السورية على جبهة الجولان ، اضطر الجنرال الاسرائيلي غونين الى الاكتفاء بالتزام جانب الدفاع على طول جبهة قناة السويس . وذكرت بعض الانباء ان بعض فرق الكوماندوس الاسرائيلية حاولت بالفعل القيام بغارات صغيرة عبر قناة السويس عشية ٩و١٠ تشرين اول ولكن بعض هذه القوات وقع اسيراً في قبضة الوحدات المصرية التي كانت ترابط على الضفة الغربية . وتردد ان احدى الغارات السالفة على الاقل وقعت في منطقة الدفرسوار بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة الكبيرة . وبعد ان اصبحت رؤوس الجسور التي اقامتها القوات المصرية راسخة على نحو معقول بدأت كل فرقة مصرية تتوسع جانباً حتى تتصل مع الفرق الاخرى التي كانت على ميمنتها وميسرتها بحيث اقامت حزاماً متواصلا يمتد من منطقة المستنقعات المالحة الى الشمال من البحيرة المرة الكبيرة ومن البحيرة المرة الصغيرة الى مدينة بور فؤاد في الجنوب . وليس من الواضح بالضبط ما هي الاوامر التي اعطيت بشأن المساحة الواقعة بين منطقتي الجيشين المصري الثاني والثالث على امتداد مساحة واسعة من الشاطىء الشرقي للبحيرات ، وربما كانت القيادة المصرية تعتزم تغطية تلك المساحة بدوريات مدرعة . ولكن يبدو انها لم تكن تشكل مصدر قلق للقيادة المصرية العامة لاعتقادها بانه يتعذر على قوات معادية القيام باختراق هذه المنطقة عبر البحيرات على نطاق واسع .

وبعد ان تم ترسيخ الجسور المصرية عبر القناة ، قامت بشن هجومين احدهما نحو الرمانة والاخر نحو رأس سدر . فقام طابوران مستقلان من عناصر الجيشين الثاني والثالث بالزحف نحو الشمال الشرقي والجنوب للاستيلاء على أهدافهما . ولكن هذين

الزحفين تمخضا عن نتائج مفجعة . فيما ان كلا منهما كان يخرج عن مدى المظلة الجوية لصواريخ سام ــ ٢ وسام ــ ٣ ، اخذ سلاح الجو الاسرائيلي الذي لم يسلم قط بعدم تفوقه فوق صحراء سيناء بشن غارات متكررة على الطابورين مما ادى الى الحاق خسائر جسيمة بدباباتهما وعرباتهما واضطرت القيادة المصرية في النهاية الى التخلي عن هاتين المحاولتين . وبعد ذلك اكتفى المصريون بالتوسع في بقعة محددة نحو الشرق الى عمق امتد في النهاية ما بين ١٢و١٦ كيلومتراً . اما اكبر مسافة في العمق فكانت تخضع لقيادة الفرقة الثانية . والواقع ان احد الألوية التابعة للجيش المصري الثالث تقدم بالفعل ثلاثين كيلومتراً في العمق باتجاه ممر المتلا دون ان يلقى مقاومة تذكر . غير ان القيادة المصرية العامة امرت اللواء بالانسحاب الى الخلف بعد الدرس الذي تلقته في رأس سدر والرمانة . والجدير بالذكر انه حتى خلال تقدم القوات المصرية في المراحل الاولى التي كانت تهدف الى توسيع رؤوس الجسور فقد كانت قوات المشاة المزودة بالصواريخ هي التي تولت القيام بعملية التقدم المذكورة على الرغم من انه كان يتوقع ان تتصدى لها بصورة رئيسية المدرعات الاسرائيلية ، وقد نجحت هذه القوات في تدمير عدد من الدبابات الاسرائيلية التي بدت عاجزة امام تكتيك صواريخ المشاة المصرية ، وربما يعود سبب ذلك بصورة رئيسية الى ان الدبابات الاسرائيلية ، التي اعتمدت على تجاربها السابقة في اشتباكاتها مع المصريين ، لم تكن تحمل معها قنابل دبابات شديدة الانفجار وانما كانت تحمل ذخيرة مخصصة لاختراق الدروع الحديدية وقد استغرق اصلاح هذا النقص من الجانب الاسرائيلي عدداً من الايام . وقد واصلت القوات الاسرائيلية هجماتها المضادة على رؤوس الجسور المصرية في غضون الايام القليلة التالية وقام سلاح الجو الاسرائيلي بغارات في عمق الأراضي المصرية على طول الممر الجوي الممتد من دمياط ووصلت بعض الطائرات الاسرائيلية الى مشارف القاهرة . غير ان الطائرات الاسرائيلية تكبدت خسائر جسيمة وخسرت عدداً كبيراً من الطيارين الاسرائيليين الذين وقعوا اسرى في ايدي السلطات المصرية .

وبحلول اليوم الرابع من ايام الحرب اخذت القيادة الاسرائيلية العليا تتحقق من ان الغزو المصري لصحراء سيناء ، مهما بدا محدوداً ، كان في الواقع من القوة بحيث تعجز القوات الاسرائيلية عن صده وان حتى مجرد محاولة صد الهجوم قد يصيب القوات الاسرائيلية بنتائج مفجعة وفي يوم ٩ تشرين اول صرح الجنرال دايان في مؤتمر صحفي بما معناه :

ان الموقف بالنسبة الى الجبهة المصرية يتلخص في اننا لا نملك وسيلة لصد القوات المصرية الى ما وراء قناة السويس في الوقت الذي نحارب فيه على جبهتين دون انهاك قواتنا انهاكا يكاد يكون تاماً . انني اشك في ان يكون اي مكان آخر في العالم محمي بمثل هذه الكثافة من الصواريخ بل اني اشك في ان يكون اي مكان في الاتحاد السوفييتي او في فيتنام مزوداً بمثل الاسلحة المزودة بها قوات الجبهة العربية وخاصة في الجبهة المصرية من القناة . والواقع ان المصريين لديهم من الدبابات على الضفة الشرقية من القناة اكثر مما نملك نحن هذا فضلا عن ان دباباتهم تتلقى دعماً من المدفعية وبطاريات الصواريخ والمشاة المزودين بأسلحة مضادة للدبابات .

وقد تحققنا من ذلك بعد المرحلة الاولى حينما حشدنا قواتنا في منطقة القناة محاولين دحر القوات المصرية والقاءها في الضفة الغربية من القناة . ولو واصلنا هذه المحاولة لفقدنا قواتنا وتركنا اسرائيل من غير اية قوات تحميها .

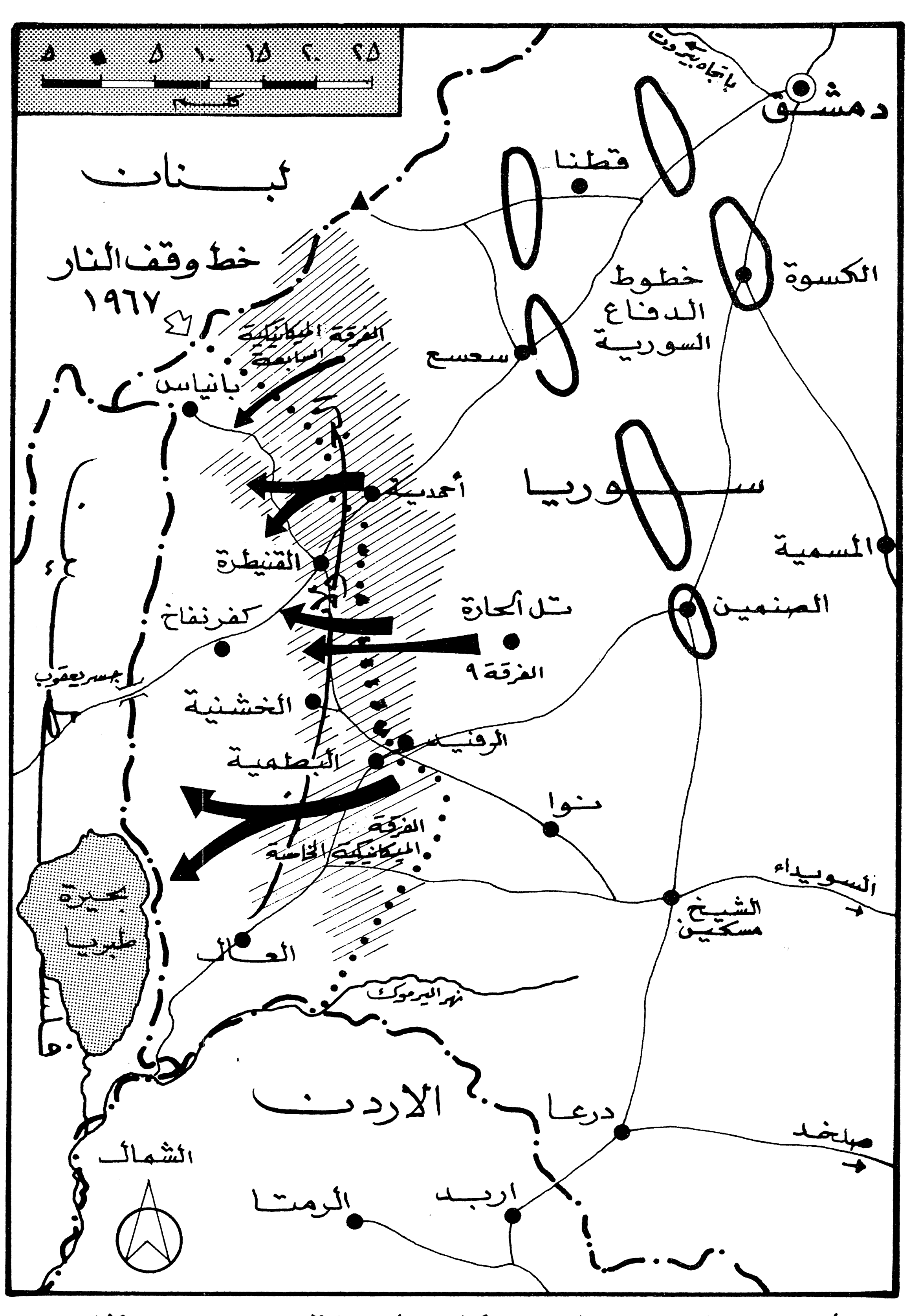
الفصل السادس

الهجوم السوري

ان مرتفعات الجولان التي تحتلها اسرائيل منذ حرب عام ١٩٦٧ هي الامتداد الجنوبي لسلسلة الجبال المقابلة للبنان . وتبتدىء هذه المرتفعات في المنحدرات الدنيا لجبل الشيخ ، وهو الموقع الذي تجلى فيه السيد المسيح ، ومن ثم تأخذ في الانحدار تدريجياً نحو الضفة الشمالية لنهر اليرموك ، بالقرب من الحدود الاردنية . وترتفع المنحدرات ارتفاعاً حاداً من الجهة الغربية ابتداء من وادي الاردن وبحيرة طبريا مما يكون وادياً سحيقاً يخلق عقبة كأداء للحركة ، وخاصة في القطاع الشمالي مقابل بحيرة الحولة حيث تكاد لا توجد ممرات تؤدي الى المرتفعات الحادة . والطريق الوحيدة التي تصل شمالي اسرائيل بمرتفعات الجولان هي من خلال جسر بنات يعقوب الذي يؤدي في النهاية الى مدينة القنيطرة (التي ترتفع ٩٠٠ متر عن سطح البحر) ومنها الى مدينة دمشق . اما المنحدرات الشرقية فهي اكثر اعتدالا ومجردة من الصخور ، وعلى الرغم من بعض الوهاد التي تمتد عبرها في الناحية الشرقية من مرتفعات الجولان ، فانها تصلح لمرور الدبابات . اما من حيث المسافة من شمال مرتفعات الجولان الى جنوبها ، فتبلغ نحو خمسة وخمسين كيلومتراً ، ومن شرقها الى غربها حتى مدينة القنيطرة فتبلغ نحو ثمانية عشر كيلو متراً ، ولكنها تأخذ في الاتساع في اقصى الجنوب على طول نهر اليرموك . ويبتدىء خط وقف اطلاق النار لسنة ١٩٦٧ من نقطة تقع على الحدود السورية اللبنانية شمالي بانياس (على منحدرات جبل الشيخ) باتجاه جنوبي شرقي مارا على بعد بضعة كيلومترات شرقي القنيطرة ، ومن ثم يتجه بصورة عامة نحو الجنوب حتى غرب بلدة البطمية ومن ثم باتجاه جنوب غربي نحو نهر اليرموك .

وقد بنى الاسرائيليون حصناً منيعاً من الاحجار في الطرف الشمالي من خط وقف اطلاق النار في موقع على اعالي منحدرات جبل الشيخ . ويشرف هذا الموقع ليس فقط على مرتفعات الجولان بأكملها بل تقريباً على الارض المقدسة كلها منبسطة امامه كالخريطة . وقد تمركزت في هذا الموقع الحصين سرية خاصة من القوات الاسرائيلية اشتملت على عناصر فنية لتشغيل شبكات الرادار . ومن هذا الموقع ينطلق الخط جنوباً عبر المنحدرات الاكثر اعتدالا التي تقع في الناحية الشرقية من هضبة الجولان ماراً عبر وهاد وتجمعات صخرية .

اما على الجبهة السورية فلم يكن هناك خط دفاع متواصل على غرار خط بارليف . غير ان جميع الممرات المحتملة كانت تحميها سلسلة من التحصينات المبنية من الصخور والخرسانة المسلحة . وكانت هذه التحصينات متينة البنيان تحتوي على طابقين يقعان تحت الارض ويعلوهما مقصورات ناتئة فوق الارض معدة لاطلاق النار . وكانت تحيط بالمواقع كلها اسلاك شائكة وتحميها حقول من الالغام . وبالاضافة الى ذلك كانت



الجبهة السورية ١٩٧٣ (الخطة السورية)

هناك حفر مضادة للدبابات يبلغ قطرها اربعة امتار وعمقها ثلاثة امتار مسورة بجدار من التراب كان يبلغ ارتفاعه في بعض الاماكن نحو ثمانية امتار ليحمي الخط الواقع امام مواقع التحصينات . وكان السوريون قد انشأوا تحصينات متفرقة اخرى في التلال الواقعة الى الوراء على مسافة تتراوح بين ثلاثة الى خمسة كيلومترات الى الداخل . وقد تمركزت وراء خط الدفاع الثاني مجموعات من الدبابات والمدفعية المضادة للدبابات بالاضافة الى المدفعية الثقيلة في مراكز محفورة داخل الارض ومحمية بالاسلاك الشائكة وحقول الالغام . وهكذا كانت معظم الممرات التي يحتمل ان يدخل منها العدو محمية حماية كافية وخاصة في القطاع الاوسط الذي يتقدم جبهة دمشق . مع ذلك ، فلم يكن من الصعب على العدو اختراق خطوط الدفاع السورية حتى في الاماكن التي حفرت فيها خنادق مضادة للدبابات ، اذا توفر لدى العدو عنصر المفاجأة التامة . وكان في تقدير السوريين ان اقتحام هذه الخطوط ينطوي على عملية قد تستغرق ساعة او ساعة ونصف الساعة فقط .

وقدرت الاستخبارات السورية ان عدد الالوية الاسرائيلية المتمركزة في مرتفعات الجولان تبلغ ما بين خمسة وستة الوية وان لم تكن هذه الالوية مكتملة من حيث العدد والعدة . غير انه تناهى الى سمع دمشق ايضاً انه منذ الاسبوع الاخير من شهر ايلول اصدر الاسرائيليون امراً يقضي باجراء نوع من الاستنفار في صفوف القوات الاسرائيلية . والواقع انه تم ايضاً استدعاء جزء من الاحتياطيين الاسرائيليين طبقاً للمعلومات التي وصلت الى دمشق والتي اكدها فيما بعد الاسرى الاسرائيليون الذين وقعوا في قبضة القوات السورية .

وكانت الالوية الاحتياطية الاسرائيلية المخصصة للعمل على الجبهة الشمالية متمركزة في منطقة تقع شرقي بحيرة الحولة ، وفي القطاع الجنوبي بالقرب من مدينة صفد . وقد قدرت الاستخبارات السورية قوة هذه الالوية ما بين عشرة الوية واحد عشر لواء . وقدرت مجموع قوات العدو التي يمكن استخدامها بعد التعبئة الكاملة لصد اي هجوم سوري بنحو ستة عشر لواء ـ من جنوبي بحيرة طبريا الى منحدرات جبل الشيخ في الشمال .

كان مقر القيادة الاسرائيلية الشمالية بقيادة الميجور جنرال اسحاق هوف في مستعمرة كفر نفاخ . وكان يعمل تحت امرته الميجور جنرال دان لانر والميجور جنرال رافائيل ايتان اللذان كانا مرشحين لقيادة « اوغدات » يجري انشاؤها عادة بعد ان تبدأ الحرب ـ بناء على النظام الاسرائيلي .

وكان من الشائع ان القطاع الاوسط هو القطاع المعزز دفاعه اكثر من غيره ، حيث ان اكبر تهديد من جانب القوات السورية يأتي على محور الاحمدية ـ الخشنية لان اي هجوم يستهدف القنيطرة يتجه من بعد في طريق تمر عبر جسر بنات يعقوب ، وهذا اقصر ممر الى شمالي اسرائيل . ومن وجهة النظر الاسرائيلية الاستراتيجية الهجومية ـ الدفاعية ، فان هذا القطاع يشكل افضل نقطة انطلاق لهجوم يستهدف تطويق دمشق من الجنوب والشرق .

وقد تألفت القوات الاسرائيلية في القطاع الاوسط ، بقدر ما يمكن تقديرها بصورة معقولة ، من لواء آلي من المشاة وثلاث كتائب من الدبابات (نحو ١٠٠ ـ ١٥٠ دبابة) تابعة الى اللواء المدرع ٣٧ . واغلب الظن ان جميع هذه القوات كانت في حالة تأهب

قصوى اوما شابهها في صبيحة اليوم السادس من تشرين اول . ولكن ليس من المرجح ان تكون الوية اخرى في القطاعين الشمالي والجنوبي في اكثر من ٣٠ ــ ٤٠٪ من قوتها العادية . غير ان اللواء المدرع السابع الذي كان الجنرال دايان قد بعث به سراً لدعم القوات الاسرائيلية المرابطة في الجولان قبل عشرة ايام من نشوب الحرب ، كان على الارجح يتمركز في مستعمرة كفر نفاخ واحتفظ به كقوة احتياطية تحت امرة قيادة القطاع .

غير ان المعلومات التي نشرها المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية عن قوة وتشكيلات القوات المسلحة السورية تدل على ا ن القوات السورية كانت تتألف مما يلي : فرقتين مدرعتين ، وثلاث فرق من المشاة ، وخمسة الوية مستقلة (تشمل لوائين من المغاوير وسبعة الوية مدفعية واثنتي عشرة بطارية صواريخ سام ــ ٢ ــ وسام ٣ . اما قوة سلاح الجو فكانت تتألف من ثمانين طائرة من طراز ميغ ١٧ وثلاثين طائرة من طراز سوخوي ٧ ومئتي طائرة من طراز ميغ ٢١ س . مع ذلك ، تشمل هذه الارقام شيئاً عن اعادة التنظيم وعن التشكيلات الجديدة التي اعقبت تسلم كميات ضخمة من الاسلحة والمعدات المتطورة التي بعث بها الروس الى سوريا على اثر الزيارة التي قام بها الرئيس حافظ الاسد لموسكو في شهر نيسان سنة ١٩٧٣ . ويقدر انه بحلول شهر تشرين الاول جرى على الاقل تحويل فرقتين من المشاة الى فرقتين آليتين (يتم فيهما نقل جميع المشاة بناقلات الجنود المدرعة . وتردد ان سلاح الجو السوري كان يمتلك سرباً اضافياً من طائرات سوخوي ٧ وسرباً آخر من احدث المقاتلات ــ القاذفات الروسية من طراز سوخوي ذات الاجنحة المتحركة ولعل طياريها ما زالوا من الروس) .

وكان السوريون قد وجهوا جل اهتمامهم منذ شهر نيسان لانشاء مظلة صواريخ ارض ــ جو في محور الجولان ــ دمشق ــ وقد احتفظوا بانشاء هذه المظلة طي الكتمان الى ما قبل نشوب العمليات الحربية . وخلال زيارة قام بها الجنرال دايان لجبهة الجولان في ٢٦ ايلول لاحظ بالفعل ان السوريين قد اقاموا شبكة من الصورايخ المضادة للطائرات تقارب في كثافتها تلك التي اقامها المصريون في منطقة قنـاة السويس . وعلى الرغم من ذلك ، فان فعالية مظلة الدفاع الجوي السورية قد فاجأت سلاح الجو الاسرائيلي مفاجأة تامة عندما قامت طائراته للمرة الأولى بغارة فوق جبهة دمشق .

فمنذ حرب سنة ١٩٦٧ ، اصبح الاسرائيليون يستخفون استخفافاً تاماً بالقوات السورية المسلحة ، فقد قيل انه في خلال الهجوم الاسرائيلي على مرتفعات الجولان في تلك السنة اخذ الجنود السوريون يتخلون عن تحصيناتهم ويولون الادبار هاربين بعد قيام المدفعية الاسرائيلية الثقيلة بقصف تلك التحصينات . ولم تحاول فرق الاحتياط السورية التصدي للقوات الاسرائيلية الزاحفة على الاطلاق . والواقع ان قوات الاحتياط السوري لم تتقدم الى ابعد من خطوط دفاعها حول دمشق . وبما ان المعروف عن الجيش السوري انه « جيش سياسي » فان مستواه القتالي لم يكن رفيعاً . اضف الى ذلك ، ان ما قيل من ان الجنود السوريين كانوا يعاملون الاسرى والجرحى الاسرائيليين بوحشية وقسوة بالغتين اثار في نفوس الجنود الاسرائيليين الكثير من الحقد والكراهية للجنود السوريين بصورة خاصة .

غير ان الرئيس الاسد قد بذل مجهوداً كبيراً لرفع مستوى القوات المسلحة السورية خلال السنتين الاخيرتين . وعلى الرغم من انه ما زال في الامكان وصف الضباط

السوريين الى حد ما بأنهم « سياسيون » ، الا ان مستوى تدريبهم وروحهم المعنوية قد تحسنا تحسناً كبيراً في كل من الجيش وسلاح الطيران على السواء . وتم التوصل ايضاً الى رفع المستوى الفني وتحسين القيادة الى درجة فائقة .

وقد انشأت القوات المسلحة السورية قوسي دفاع غربي مدينة دمشق : ينطلق الاول من شمالي قطنا مخترقاً قرية سعسع وممتداً الى جنوبي بلدة الصنمين (على طريق عمان) ، اما الثاني فينطلق على بعد عشرة الى خمسة عشر كيلو مترا ابتداء من شمالي غربي دمشق الى مفترق الطرق الواقع عند بلدة الكسوة منحرفاً الى الجنوب الشرقي حتى قرية المسمية . وكانت المسافة الفاصلة بين الخط الاسرائيلي الاول وخط الدفاع السوري الاول لا يتجاوز عشرين كيلو متراً في قطاع سعسع .

وكانت المشاورات قد ابتدأت بالتخطيط للهجوم السوري منذ مطلع السنة . وفي شهر ايار ، خلال المحادثات التي عقدت على مستوى عال بين العسكريين السوريين والعراقيين ، اقترح الفريق العراقي بان يشن الهجوم الرئيسي من الجنوب ـ حول الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا . وكان يقضي الاقتراح بان تقوم القوات المتمركزة في القطاع الشمالي ـ قطاع قطنا ـ سعسع ـ بهجوم محدود بغية اجتذاب الاحتياطي الاسرائيلي ، فيما يتحرك الهجوم الرئيسي المدرع باتجاه جنوب شرقي من منطقة تل الحرار ـ بطميه ، ويلتف حول بحيرة طبريا ثم يتحرك الى اتجاه شمالي غربي ليضرب صفد وغيرهــا من الاهداف داخل اسرائيل . وعلى الرغم من ان مثل هذا المخطط ينسجم مع هدف البعثيين المتطرف الذي يرمي الى تصفية دولة اسرائيل ، فان هذا المخطط لم يتجاوز مرحلة النقاش . ولم تقم سوريا من بعد ذلك باطلاع العراقيين على الخطط العسكرية النهائية التي اعتمدتها .

اما في نهاية الامر فقد قررت القيادة السورية القيام بهجوم مباشر عبر هضبة الجولان وكان من المقرر ان يشن الهجوم من ثلاثة قطاعات . على ان تشن الهجوم من كل محور فرقة مشاة آلية يدعمها لواء مدرع ، وفيما يلي تفصيل ذلك :

القطاع الشمالي

فرقة المشاة السابعة (الالية) بقيادة العميد عمر ابرش .

المهمة ـ تقوم بهجوم باتجاه غربي وجنوبي غربي من منطقة الاحمديه نحو الطرف الشمالي لمرتفعات الجولان ، وتظل بعيدة الى الشمال من الطريق الرئيسية . وكان من المقرر ان يحمي يمين جناح الفرقة السابعة لواء مستقل يزحف في اتجاه مواز لمنحدرات جبل الشيخ .

القطاع الاوسط

فرقة المشاة التاسعة (الالية) بقيادة العقيد حسن تركماني .

المهمة ـ تقوم بالهجوم من منطقة تل الحرار ، لتجتاح مستعمرة كفر نفاخ ومن ثم تتوجه الى جسر بنات يعقوب . وكان على هذه الفرقة ان تزحف على الطريق الرئيسية والى الجنوب منها .

القطاع الجنوبي

فرقة المشاة الخامسة (الالية) بقيادة العميد مصطفى شربا .
المهمة – تقوم بالهجوم من منطقة الرفيد في اتجاه جنوبي غربي بحيرة طبريا .
وكانت الخطة تقضي بالاحتفاظ بفرقة مدرعة احتياطية .

وعلى ألرغم من انه كان من المقرر ان يكون في طليعة القوات المهاجمة فرقة آلية وليس فرقة مدرعة ، فلم يكن هذا الترتيب يهدف الا الى مجرد ملاءمة مسائل تنظيمية . والواقع آنه كان من المقرر ان يخصص لكل فرقة مدرعات كافية لتمكينها من القيام بهجوم بالدبابات يتبعها مشاة محمولون بالآليات . ولم يكشف السوريون حتى الآن عن اية معلومات تتعلق بتفاصيل الخطط او التكتيكات التي اتبعوها في العمليات ، لكن عدداً من المراسلين الحربيين الذين كانوا يراقبون القتال خلال الايام الأولى ذكروا انه تراءى لهم ان التكتيك السوري بدأ بقيام تشكيلات مكثفة من المدرعات بالهجوم في محاولة لاجتياح المدرعات الاسرائيلية من خلال مجرد التفوق العددي .

الانتصارات الاولى

في خلال الاسابيع التي تلت المؤتمر الذي عقد في القاهرة في شهر ايلول ، شرع السوريون يركزون قواتهم في منطقة دمشق ويدفعون بها بصورة تدريجية نحو ساحات المعركة . فالفرقة التي كانت في وقت السلم ترابط في درعا (والتي كانت مهمتها في الاصل ان تواجه اي تهديد اردني محتمل) استدعيت الى منطقة الجولان . وكان في امكان الجنود الاسرائيليين المرابطين في القطاع الشمالي الهادىء مشاهدة طوابير من الدبابات تتجمع في منطقة الاحمدية الى الشمال من الطريق الرئيسية . وكانت الدلائل القاطعة تشير الى انه جرى توسيع مظلة صواريخ ارض – جو نحو الغرب في اتجاهات مرتفعات الجولان . مع ذلك ، فان استخفاف الاسرائيليين التقليدي بالقوات السورية حملهم على عدم الاكتراث بتلك الامور التي كانت تجري وكان الجنرال دايان قد امر اللواء السابع المدرع بتعزيز القيادة الشمالية واعتبر ذلك كافياً لاحباط اي حماقة قد يرتكبها السوريون في شن اي هجوم .

وقبل فجر يوم السبت ، السادس من تشرين اول ، دفع السوريون بدباباتهم وناقلات الجنود المدرعة من منطقة احتشادها الى الامام بالقرب من خط الابتداء وذلك على بعد مئات من الامتار عن خط وقف اطلاق النار . وكان الجنود الاسرائيليون يسمعون جلبة الآليات السورية بوضوح من منحدرات الجولان . ولم يعلم الاسرائيليون مطلقاً من قبل ان السوريين كانوا يجرون مناورات في الظلام ، وعلى الرغم من ذلك فلم يجد الاسرائيليون اي داع للتخوف .

وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل ، اقلعت اربع طائرات هيلكوبتر من طراز مي ٨ من مطار بالقرب من دمشق تحمل جنوداً من لواء المغاوير وحلقت في مدار واسع الى الشمال ثم اتجهت نحو خلف الحصن الاسرائيلي الرئيسي الواقع على سفوح جبل الشيخ . وكان الجنود الاسرائيليون المرابطون في الحصن ما زالوا ينتعلون خفافهم

ويلعبون طاولة الزهر عندما فاجأهم المغاوير السوريون بالهجوم ، فنشب عراك بالسلاح الابيض في ساحة الحصن وممراته : لكن في اقل من نصف ساعة كان السوريون قد استولوا على الحصن وتمكنوا بذلك من ازالة مركز مراقبة بالغ الاهمية .
وقد حاول الاسرائيليون مراراً بكل عناد القيام بهجمات مضادة محاولين استعادة الحصن لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل وكان السبب الرئيسي لفشلهم ان قوة مغربية تقدمت بفعالية مدهشة في هذا الوقت لاحتلال سفوح جبل الشيخ .
وقد شن السوريون هجومهم في الساعة الثانية بعد الظهر تماماً ، بعد ان اطلقوا وابلا كثيفاً من نيران مدفعيتهم الثقيلة لمدة حوالي ساعة ونصف الساعة ، فيما كانت تشكيلات مكثفة من الدبابات تتقدم الى الامام في صفوف متراصة باتجاه التحصينات الاسرائيلية . وقد قدر الاسرائيليون ان مجموع قوة الدبابات التي هاجمتهم في اليوم الاول كانت تتراوح بين الف والف ومئتي دبابة ، بالرغم من ان هذا العدد كان بلا شك مبالغاً فيه كثيراً . غير ان دمشق قدرت الرقم بحوالي ثمانمائة دبابة . ومهما يكن من امر فان التفوق كان ساحقاً .
ويبدو ان المدرعات السورية نظمت بشكل مجموعات من سبع الى عشر دبابات . وكانت ترافق كل مجموعة ناقلتان او ثلاث ناقلات جنود مصفحة تحمل وحدات من جنود المشاة . وكثيراً ما كانت المجموعات تزحف بعضها مع بعض . وبدت كما لو انها كانت تتجاهل طبيعة الارض كالاخاديد والممرات الضيقة بحيث واصلت الزحف مهاجمة العدو ومباشرة الى الامام . ولم يكن يوفر الحماية لها الا غطاء وحيد من القصف المدفعي . ونادراً ما اتبعت هذه الدبابات تكتيك اطلاق النار ومن ثم الزحف الى الامام .
ولم يفد هذا التكتيك السوريين ، بالرغم من انهم كانوا يهاجمون بشراسة وارادة صلبة ، بحيث اصيبوا في البداية بخسائر فادحة . وظلت الطوابير التي كانت تزحف في طليعة الهجوم بعيدة عن الطرق ، لكنها راحت تتغلغل بين الشجر وتشق طريقها حول النقاط المحصنة . ولم يواجه السوريون اوضاعاً صعبة جداً الا عندما تصدت لهم الدبابات الاسرائيلية وراء الخط الثاني للمواقع المحصنة .
وفيما بعد وصف مشهد المعركة ضابط دبابة اسرائيلي شاب كان بين الذين شاهدوا الهجوم السوري الاول قائلا وهو على فراشه في المستشفى ما معناه :
شاهدنا في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر يوم عيد الغفران سرباً من الطائرات مؤلفاً من ١٥ ــ ٢٠ طائرة قادماً باتجاهنا . وقبل ان نتمكن من التعرف على هوية الطائرات راحت تمطرنا بنيرانها ، فأصدرت الأوامر الى رجالي بالدخول الى دباباتهم وقلت لهم بان يتوجهوا الى المواقع التي نطلق النار منها . وشاهدت بعدها سحابة كبيرة من الغبار تنطلق نحونا ، فأدركت ان وراء المدفعية ، والنار « الموجهة » نحونا ، يجب ان تكون قوة من الدبابات سورية تعبر خط وقف اطلاق النار في اتجاهنا . ولكنها اصيبت جميعاً بقنابلنا . ثم صوبت مدفعي نحو دبابة رابعة وبعد الطلقة الاولى شاهدت برجها يطير في الجو . فاعتقدنا ان تلك كانت نهاية المعركة . ولكنها لم تكن سوى بدايتها . ثم ظهرت من خلال ستار الغبار عشرات اخرى من الدبابات ، والحفارات وناقلات الجنود المدرعة . فاقتسمنا المهاجمين بين الدبابات السبع التي كنا نملكها واخذنا نتصيد الواحدة بعد الاخرى . وقد شاهدت اصابات مباشرة تحول الواحدة تلو

الاخرى الى دمار مشتعل . وقبل ان نتمكن من التقاط انفاسنا رأينا جداراً آخر من الفولاذ يتقدم نحونا . فأمرت جنودي بأن يتركوا المهاجمين يتقدمون الى مدى قريب قبل ان نفتح النار عليهم مرة ثانية . وقد تمكنا من اصابة عدد كبير من الدبابات اصابات مباشرة حتى لقد تحولت المنطقة الى قطع متناثرة من الدبابات والآليات المجنزرة المشتعلة » .

والواقع ان تكتيك الهجوم المباشر الذي اتبعه السوريون في هجومهم وضعهم في موقف حرج جداً في مواجهة مدافع الدبابات الاسرائيلية البعيدة المدى وجنودها الذين تلقوا تدريباً ممتازاً . وكانت الميزة التي تمتع الاسرائيليون بها فعالة جداً بحيث كان معدل الاصابات مرتفعاً في معظم الاحيان بنسبة ثلاث او اربع الى واحدة لصالح الاسرائيليين .

ولم تكن الدبابات الاسرائيلية من طراز « سنتوريون » البريطانية الصنع « وباتون » م ـ ٤٨ وم ـ ٦٠ الامريكية مزودة بمدافع ابعد مدى من مدى مدافع الدبابات السورية من طراز ت ـ ٥٤و ت ـ ٥٥ الروسية الصنع فحسب ، بل ان الذخيرة التي كان الاسرائيليون يستخدمونها ، وبصورة خاصة القنبلة الخارقة للدروع كانت ايضاً اشد فتكاً من ذخيرة مدافع الدبابات السورية . وتحمل دبابة « سنتوريون » والدبابات الامريكية نوعاً مختلفاً من مدافع ذات عيار ١٠٥ ملم مداها المؤثر يتجاوز ١٧٠٠ الى ٢٠٠٠ متر على التوالي . اما الدبابات الروسية فكانت مزودة بمدفع اقل فعالية من عيار ١٠٠ ملم يبلغ مداها المؤثر اقل من ١٥٠٠ متر . وبالاضافة الى ذلك ، فان المدافع الامريكية تحمل جهازاً دقيقاً جداً لتحديد الهدف بواسطة الحاسبات الالكترونية . وقدر الخبراء ان المدافع الامريكية مكنت الاسرائيليين من ان يطالوا ويدمروا الدبابات السورية قبل ان تتمكن من الوصول الى مداها الفعال بحوالي ٤٠٠ متر . وقد اثبت الصاروخ الاسرائيلي المضاد للدبابات بانه سلاح فتاك ، وهو صاروخ محمول من طراز س س ١٠/١١ (ادخل الاسرائيليون بأنفسهم تعديلات عليه) .

وبالرغم من الاصابات الكثيرة التي حققها الاسرائيليون كان من المحتم عليهم الا يثبتوا في مواقعهم طويلا في وجه الضربات الثقيلة التي كانت تنزل بدباباتهم ايضاً . وقد دفع السوريون بعدد من احدث الدبابات وهي الدبابة ت ـ ٦٢ التي تحمل مدفعاً من عيار ١١٥ ملم ، وهو اضخم مدفع استخدم في هذه الحرب ، فاعطبوا عدداً كبيراً من الدبابات الاسرائيلية . وعلاوة على ذلك ، فان التصميم الذي اتسم به هجوم الدبابات السوري بتغطية قصف متواصل من المدفعية السورية (استمر في بعض الاماكن اربع ساعات) كان اشد مما يمكن ان تتحمله القوة المدافعة الصغيرة نسبياً . وعلى العكس مما كان يأمل الاسرائيليون ، ايضاً ، فان بعض قادة الدبابات السورية واصلوا هجومهم بجهد وعناء وتقدموا بسرعة وبشجاعة لا تصدق الى قلب مواطىء الاسرائيليين ، حتى انه عندما كانت تصاب دباباتهم كان طاقمها لا يبرحها مستخدماً اياها منصة لاطلاق النار حتى تنفجر وهذا عمل ينطوي على شجاعة شخصية وتضحية بالنفس قل ان شهدت اية معارك سابقة مثيلا لهما .

وعلى العكس مما جرى على جبهة القناة حيث ظل سلاح الجو المصري في معظمه في حالة تأهب ، فقد استخدم السوريون كل ما كان لديهم من طائرات سوخوي واسراب

طائرات الميغ لدعم قواتهم البرية ، حتى انهم حاولوا اختراق خطوط الدفاع الاسرائيلية الجوية في سهل الحولة . ومع ذلك ، فقد تكبد سلاح الجو السوري خسائر كبيرة في المعارك الجوية اللاحقة التي نشبت بين طائراته وطائرات الميراج والفانتوم الاسرائيلية . وقد ادت ضراوة الهجوم السوري في نهاية المطاف الى دحر الاسرائيليين الى الوراء في القطاعات الثلاثة كلها ، لكن الانتصار الرئيسي الذي احرزه السوريون كان في القطاع الأوسط حيث استمرت المعارك الطاحنة حتى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم . وكان السوريون خلال الساعات الاولى من الليل يعيدون تنظيم مدرعاتهم ، بينما كان الاسرائيليون يرسلون مجموعات متخصصة في اصطياد الدبابات للتصدى للدبابات السورية ولناقلات الجنود المدرعة ولمضايقة طوابير الآليات الطويلة التي اكتظت ارتال منها في وهاد ضيقة على طول بعض اقسام من الطريق . ولم يكتب للكثيرين ان ينالوا اي قسط من الراحة في تلك الليلة في مرتفعات الجولان .

وقد واصل السوريون زحفهم في صباح يوم الاحد . ولا بد انه كان زحفاً دامياً كانت ساعاته تمر ببطء غير انه لم يكن في الامكان وقفه . وقد تقدمت الفرقة السورية التاسعة واجتاحت مقر القيادة الاسرائيلية الشمالي في كفر نفاخ ، وما كاد يحل ظهر ذلك اليوم حتى كانت الطوابير المغيرة قد وصلت الى قمة هضبة الجولان واخذت تتقدم نحو منحدراتها التي تشرف على وادي الاردن . اما في الناحية الجنوبية ، فكانت دبابات الفرقة الجنوبية قد وصلت الى العال وتمكنت من مشاهدة مياه بحيرة طبريا الزرقاء تتلألأ تحت انظارهم .

وكانت تلك ساعة حالكة لاسرائيل . وكان رجالها الاحتياطيون قد بدأوا يلتحقون بوحداتهم وتشيكلاتهم الى الغرب من نهر الاردن . غير انه جرى نقل افراد وقواد اطقم الدبابات بواسطة طائرات الهيليكوبتر ليحلوا محل زملائهم الذين اصيبوا في المعارك التي وقعت في مرتفعات الجولان . لكن لم يكن هناك بد من مضي وقت طويل قبل ان تتمكن اسرائيل من مجاراة السوريين من حيث العدد . وفي غضون ذلك كان الزحف السوري يتقدم بلا هوادة حتى انه بات على بعد خمسة كيلومترات من جسر بنات يعقوب .

اما في الجو ، فقد اصيبت اسرائيل ايضاً بصدمة عنيفة . فقد اعتاد سلاح جوها ان يعمل بحرية مطلقة في حربين سابقتين . لكنه ادرك الان انه اساء تقدير التقدم الذي حققه السوريون في استعمال المعدات الروسية الالكترونية المعقدة . وقد احضرت الطوابير المدرعة السورية في اثناء زحفها عدداً ضخماً من صواريخ ارض جو من طراز سام ــ ٦ محملة على العربات . وعلى الرغم من ان سلاح الجو الاسرائيلي كانت له اليد الطولى في المعارك الفعلية التي نشبت ، فقد تمكنت الصواريخ السورية من اسقاط عدد كبير من طائرات « الفانتوم » و« السكاي هوك » التي دخلت اجواء مرتفعات الجولان .

ولكن كان على السوريين ان يدفعوا ثمناً غالياً لانتصاراتهم الأولى وخاصة في المدرعات التي تلقت ضربات موجعة . ويقدر انه في غضون الاربع والعشرين ساعة الاولى خسر السوريون اكثر من مئتي دبابة في القطاعات الثلاثة ويعود سبب ذلك بصورة رئيسية الى انهم كانوا يتقدموم بجرأة غير مبالين بنوع التكتيك الذي كانوا يتبعونه . بل ان المشاة السوريين بدوا عديمي الاكتراث بالاجراءات التكتيكية التي وضعت لهم :

فبدلا من ان يترجل رجالها ويقاتلوا الجيوب الاسرائيلية التي تجاوزتها طلائع المدرعات المتقدمة ، لم يبرحوا الناقلات المدرعة التي كانت تتبع مجموعات الدبابات المتقدمة على نحو اعمى . فكانت غالباً ملازمة لها مما جعلها فريسة سهلة المنال لهجمات الدبابات والطائرات الاسرائيلية . وحتى ان الذين ترجلوا منها نزلت بهم خسائر كبيرة لانهم تقاعسوا في عدد من المناسبات عن حفر الخنادق للنزول والاحتماء فيها .

وعلى الرغم من مهاجمة القنيطرة بعنف ، فقد تمكنت حاميتها من الصمود في وجه جميع المحاولات للاستيلاء عليها . وفي النهاية قامت الفرقة السورية السابعة بهجوم على معقل تل الندى ، وهو مرتفع يشرف ويسيطر على مدينة القنيطرة . ولكن بالرغم من ان الجنود المهاجمين استبسلوا حتى افلحوا في تسلق السفوح الى قمتها ، فانهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على نقطة المعقل الرئيسية . من ثم ، تجاوز المهاجمون المواقع الاسرائيلية بدون ان يبذلوا مجهودات جديدة اخرى للاستيلاء على هذه النقطة المهمة للمواصلات . وقد انهزمت هذه الفرقة على المحور الشمالي انهزاماً كان غير متوقع حيث كان من المفترض ان تتقدم باتجاه عام نحو الجنوب الغربي ، ومن ثم تتجه الى الجنوب لتلتحم مع الطابور الاوسط . وكان من المفروض ان يتقدم على جانبها الايمن لواء مستقل من المشاة في خط مواز لحماية ذلك الجناح من هجوم مضاد تقوم به وحدات تابعة لقيادة الجنرال ايتان ، قائد القطاع الاسرائيلي في الشمال . ومع ذلك ، لم يتمكن هذا اللواء السوري من شق طريق له مما حدا باللواء شكور ، رئيس الأركان السوري ، الى اصدار امر الى الفرقة الشمالية بايقاف زحفها . وفي وقت لاحق ، اتجه بعض عناصر هذه الفرقة جنوباً نحو مدينة القنيطرة .

وفي عشية اليوم الثاني ، تعرضت طلائع طوابير من الفرقة السابعة لقصف ثقيل متواصل قام به سلاح الجو الاسرائيلي ، بينما كانت تلك الطلائع تعمل على اعادة تجمعها عند طرف الوادي المطل على جسر يعقوب ــ وقد استخدم سلاح الجو الاسرائيلي في هذا القصف طائرات الفانتوم والسكاي هوك وحتى الميراج وقام على ارتفاع منخفض جداً بقصف القوات السورية وامطارها وابلا من النيران ـ وكانت نسبة الخسائر الاسرائيلية في الطائرات مرتفعة لكنها استمرت في التحليق على ارتفاع منخفض بقصف الدبابات والآليات السورية : موقعة بها اضراراً جسيمة . وكان هذا عاملا حاسماً في وقف الزحف السوري . وصف ذلك احد الجنرالات الاسرائيليين في وقت لاحق بقوله لقد كان هذا « ذروة الجهد الذي بذله سلاحنا الجوي » .

وفي ذلك الوقت تقريباً ، اخذت الوحدات الاولى من الوية الاحتياط الاسرائيلي تعبر جسر بنات يعقوب . وبحلول المساء ، كانت هذه الوحدات تتسلق الطريق الصخري الوعر الذي يفضي الى القمة لتضرب مدرعات العدو . وبينما كان الجنود الاسرائيليون يشقون طريقهم ، كانت ظلال الدبابات السورية تبدو فوقهم على الهضاب كأنها « اهداف في حديقة للتسلية » .

وعلى الرغم من ان التقدم السوري لم يتوقف في امكنة اخرى من المرتفعات حتى صباح يوم الاثنين ، الا ان نقطة التحول في المعركة بدأت بوصول النجدات الاحتياطية الى القطاع الاوسط من مساء يوم الاحد . وبحلول فجر اليوم التالي كانت المبادرة قد انتقلت بالفعل الى ايدي الاسرائيليين . وقد اتضح الآن ان الادعاءات الاسرائيلية بأن القوات الاسرائيلية قامت بشن هجومها المضاد صباح يوم الاثنين وانها القت

بالسوريين الى الوراء ، كانت في الواقع تهدف الى الاستهلاك المحلي لدعم الروح المعنوية المنهارة في اسرائيل . غير ان القوات الاسرائيلية سيطرت على الوضع على وجه التأكيد . وتحققت من ان السوريين لن يتمكنوا من غزو الاراضي الاسرائيلية ، وهو الهدف الذي يعتقد بان السوريين كانوا ينشدونه .

ولعل السوريين شعروا بأن زمام المبادرة اخذ يفلت من ايديهم . فشرعوا مساء يوم الاحد يقصفون المستعمرات الاسرائيلية بصواريخ من طراز فروغ ، مما ادى الى تصعيد رئيسي في الحرب على هذه الجبهة . (وتطلق صواريخ فروغ قواعد مركبة على عربات ولها مدى يقرب من سبعين كيلومتراً وتحمل نصف طن من المتفجرات) .

غير ان الاضرار التي الحقتها تلك الصواريخ كان ضيئلا نسبياً ، ولكن لو انها تركت تستمر في القصف مع ما كانت عليه حالة السكان الاسرائيليين من روح معنوية تقرب من الانهيار ، لكان لذلك وقع خطير في اسرائيل . ولذلك قرر الاسرائيليون ضرب اهداف في دمشق وعمق سوريا ، على الرغم من ادراكهم ما ينطوي ذلك عليه من المجازفة بخسارة عدد كبير من طائراتهم ومن خطر لجوء العرب الى استخدام قاذفات القنابل الثقيلة من طرازت يو ـ ١٦ وت يو ـ ٢٠ (التي تردد ان الروس زودوا العراقيين بها) لقصف الاهداف الصناعية والمدنية في اسرائيل .

وبعيد ظهر يوم التاسع من تشرين اول ، اغارت طائرات الفانتوم الاسرائيلية على دمشق من الناحية الشمالية الغربية وضربت اهدافاً في قلب دمشق . وقد ادعت الحكومة الاسرائيلية بأن جميع الاهداف كانت « استراتيجية » وان القصف كان دقيقاً : وكان هذا مخالفاً للواقع . فبالرغم من ان وزارة الدفاع اصيبت في دمشق ، فان عدداً من القنابل تساقط على اهداف مدنية واحياء سكنية . وقد تأكدت في وقت لاحق التقديرات السورية بواقع نحو ٢١٠٠ اصابة بين المدنيين . ولم يترك نموذج القصف اي شك من ان الطائرات الاسرائيلية قامت باعمال القصف دون تمييز ويفترض انها جاءت من قبيل الانتقام والتحذير .

وقد فسر الجنرال دايان في ذلك المساء الغرض والضرورة من وراء ضرب دمشق بما يلي :

« كانت هذه هي المرة الاولى التي قصفنا فيها اهدافاً عسكرية في دمشق . فهنالك حي خاص تقع فيه الابنية الحكومية ـ ومنها مركز قيادة سلاح الجو السوري ووزارة الدفاع وقصر الرئاسة ـ ولا توجد بالقرب منها ابنية سكنية ، غير انني لا استطيع ان اجزم بانه لم تقع اصابات بين المدنيين . وكانت هناك اعتبارات رئيسية فيما اذا كان ينبغي ضرب دمشق ام لا .. وكان من بينها لجوء سوريا الىٰ استعمال صواريخ فروغ ، لانه في حال الشروع باستخدام صواريخ ارض ارض ، تصبح دمشق على لائحة الاهداف . غير ان هذا لم يكن الاعتبار الرئيسي حيث اننا كنا نريد كثيراً اخماد الجبهة السورية ، وكانت هذه تحتل الأولوية القصوى قبل كل شيء لان الصواريخ كانت تقع داخل اسرائيل . ومن هنا اعتبرنا هذا العمل ضد سوريا في محله : فاذا كان لا بد من الحرب ، فيجب على السوريين ان يدفعوا ثمناً غالياً لها » .

وكانت روح السكان المعنوية في دمشق ، على نقيض ملحوظ مما كانت عليه سنة ١٩٦٧ ، مرتفعة . وقد ظلت على تلك الحال خلال الحرب كلها . لم يكن هناك اية اشارة الى حالة ذعر ، وكان في الامكان مشاهدة الجماهير محتشدة على الارصفة تنظر الى

طائرات الفانتوم تحلق فوق الرؤوس في انتظار ان تصيبها الصواريخ السورية المضادة للطائرات . ولم يخب امل تلك الجماهير : اذ سقط عدد كبير من الطائرات الاسرائيلية وراحت جماعات من المواطنين تطارد طياريها وتقبض عليهم وسرعان ما اصبح هذا الامر موضع تسلية لهم .

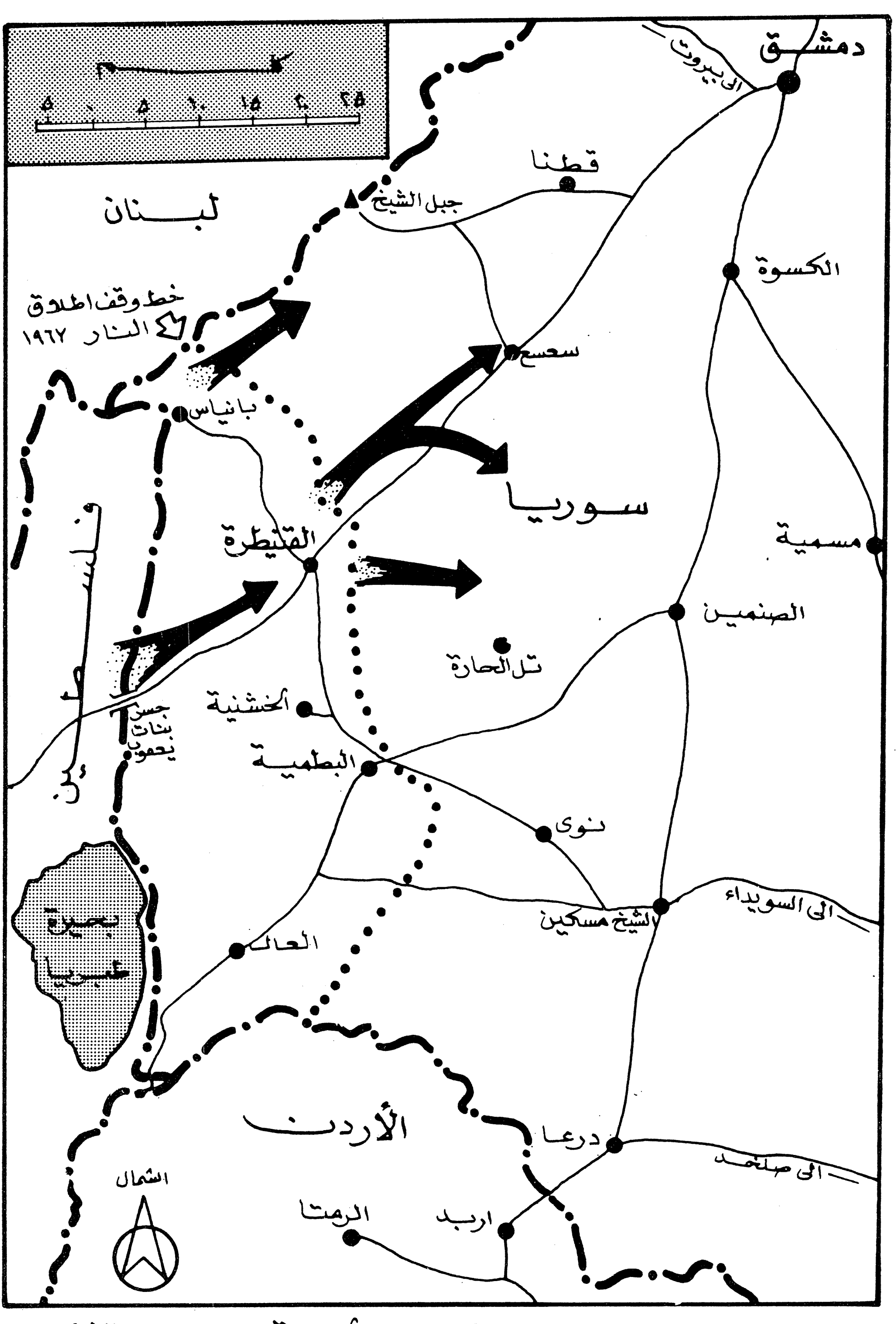
غير ان الاقتصاد السوري تأثر من جراء هذه الغارات تأثراً خطيراً . ففي غارتين دمر الاسرائيليون مصفاة حمص وعطلوا محطة توليد كهرباء رئيسية كانت تزود سوريا بنحو خمسة وعشرين بالمئة من احتياجاتها . وفي غارات لاحقة قصفت الطائرات الاسرائيلية مينائي اللاذقية وطرطوس وارصفة شحن النفط العراقية في بانياس حيث دمر اثنا عشر خزاناً . ولم يستعد الاقتصاد السوري نشاطه من هذه الضربات الا بعد اشهر .

الهجوم الأسرائيلي المضاد

كانت الاستراتيجية الاسرائيلية الهجومية ـ الدفاعية تعطي الجبهة المصرية افضلية على اساس قيامها بتوجية ضربة وقائية عبر قناة السويس بينما يعمل الاسرائيليون على وقف زحف السوريين والاردنيين في الشمال وفي الشرق . غير ان تلك الاستراتيجية كانت قائمة على اساس اخذ زمام المبادرة بيد الاسرائيليين منذ البداية . بيد ان هجوم القوات العربية ، وعلى الاخص سرعة وضراوة الهجوم السروي قلبت الاستراتيجية الاسرائيلية ظهراً على عقب . ففي الجنوب كانت صحراءسيناء تقف عقبة في وجه اختراق قوات مصرية للمنطقة الاسرائيلية في حين ان الهجوم السوري من مرتفعات الجولان كان اقرب الى تهديد الارض الاسرائيلية . ولما وجد الاسرائيليون انهم التزموا تماماً الوضع الدفاعي ، قامت القيادة الاسرائيلية العليا باجراء تغيير في آخر دقيقة للافضلية الاستراتيجية من الجنوب الى الشمال مما ادى الى حدوث بلبلة كبيرة في خطة التعبئة .

غير ان الاركان الاسرائيلية واجهت هذا التحدي ببراعة واتقان . ففي اليوم السابع من تشرين الاول كان الامر يحتاج الى سرعة فائقة ، لكن ما كادت شمس اليوم الثامن تبزغ حتى كانت القيادة الاسرائيلية قد سيطرت على الاوضاع . فتدفقت القوات الاحتياطية عبر جسر بنات يعقوب ، حيث اختلط الحابل بالنابل ، ولكن الاسرائيليين تمكنوا فيما بعد من وقف التقدم السوري عند حافة وادي الجولان .

وبعد ذلك ، اخذت القوات الاسرائيلية تعيد تجميع الوحدات والتشكيلات تمهيداً للقيام بهجوم رئيسي مضاد . وفي الشمال قام الجنرال ايتان بشن هجوم مضاد في اليوم الثامن من تشرين الاول وتمكن من احراز بعض التقدم ، لكن بالرغم من الدعاية الاسرائيلية التي راحت تتبجح بأنها حطمت « كل القطاع الاوسط » ، واجه الاسرائيليون في الواقع صعوبة كبيرة على الطريق الرئيسية في دحر الطوابير السورية المدرعة ، التي قاتلت بضراوة كبيرة وشنت عدداً من الهجمات القاسية بالدبابات على التجمعات الاسرائيلية . ولم تقو القوات الاسرائيلية على البدء في صد السوريين الى الوراء حتى يوم الثلاثاء الواقع في التاسع من تشرين الاول بعد ان قام سلاح الجو الاسرائيلي بتوفير غطاء كثيف من القصف الشديد استعمل فيه قنابل النابالم . وقد تخلل ذلك اليوم سلسلة من معارك الدبابات الضارية التي اسفرت عن وقوع خسائر فادحة بين الجانبين .



الهجوم المضاد الاسرائيلي على الجبهة السورية ١٩٧٣

«جيب سعسع»

وقد استمرت المعارك بدون توقف طوال اليوم العاشر . ودافع السوريون بعنف عن اوديتهم ، غير ان دباباتهم كانت تصاب الواحدة تلو الاخرى وتصبح طعما للنار . وكان الفضل في ذلك يعود الى اسلحة دبابات السنتوريون وم — ٦٠ المتفوقة ، وبذلك اضطر السوريون الى التراجع اكثر فأكثر الى الوراء . ولكن على الرغم من المحاولات التي بذلها الاسرائيليون بشدة ، فانهم لم يتمكنوا من احداث انهيار في الخطوط السورية ، فقد دافعت الخطوط بصلابة حتى عندما انسحبت الى ما وراء مدينة القنيطرة . فعلى النقيض مما حدث في ١٩٦٧ ، عندما كان السوريون يتراجعون بلا نظام ، كان هذا الانسحاب مقرراً ومنظماً ، نفذه محترفون بدون اي ذعر او بلبلة . وهذا مما انقذ السوريين والعرب من هزيمة منكرة . فلو ان الاسرائيليين تمكنوا من كسر شوكة السوريين لا نفتح الطريق امامهم الى دمشق ، ولأحدق خطر اكبر بجبهة سيناء .

وبحلول مساء يوم الاربعاء ، العاشر من تشرين اول ، كانت القوات الاسرائيلية قد تجاوزت خط وقف اطلاق النار لسنة ١٩٦٧ في عدة نقاط في القطاع الشمالي والاوسط ، وبحلول يوم الخميس الحادي عشر من تشرين اول تمكن الاسرائيليون من احتلال خط متواصل شرقي خط وقف اطلاق النار في القطاع الاوسط ، يمتد تقريباً الى الشمال والجنوب من الاحمدية — على الرغم من ان بعض المشاة السورية والمجموعات المختصة بالصورايخ تمكنت من الصمود في التلال الى الوراء من الخط .

وركز الاسرائيليون فيما بعد كل جهودهم الحربية ضد سوريا . ووافق مجلس الحاخامين الاسرائيلي العسكري على السماح للقوات الاسرائيلية المسلحة بمواصلة القتال يوم السبت ، وتعهد الجنرال دايان بأن يلقن السوريين درساً في علم الجغرافيا فقال : « ان الطريق الذي يقود من دمشق الى تل ابيب هو ذاته يقود من تل ابيب الى دمشق » .

وفي اليوم نفسه قامت البحرية الاسرائيلية بضرب عدد من الاهداف على الشاطىء السوري بين اللاذقية وطرطوس . فردت البحرية وبطاريات الشواطىء السورية عليها ، وبناء على معلومات السوريين ، فانهم اغرقوا ثمانية زوارق دورية اسرائيلية — بينما ادعى الاسرائيليون الذين قيل انهم استخدموا صواريخ غابريال من طائرات الهليكوبتر لتقديم الدعم لسلاح البحرية ، انهم اغرقوا العدد نفسه من الزوراق السورية . وقد واصل سلاح الجو الاسرائيلي مهاجمته وقصفه المدن السورية ومرتفعات الجولان . وادعت سوريا انها اصابت سبعا وثمانين طائرة اسرائيلية وادعى الاسرائيليون انهم اسقطوا احدى عشرة طائرة للسوريين . وقد ادعى الجنرال الاسرائيلي هيرتزوغ ان القوات الاسرائيلية دمرت ما مجموعه ثمانمئة دبابة سورية في ذلك اليوم .

وفي صباح يوم الجمعة ، استأنف الاسرائيليون تقدمهم ، ولكن بدأ يتضح لهم ساعة بعد اخرى ان الطريق الى دمشق سوف تتخللها معركة دموية . وقد اقتصر تقدمهم في جبهة ضيقة على جانبي الطريق . ولم تبد اية اشارة الى انهيار المقاومة السورية ، والواقع ان الجيوب السورية التي تخلفت وراء خط الجبهة الاسرائيلية واصلت مضايقة الطوابير الاسرائيلية المتقدمة على طول الطريق . ولم يبلغ ظهر ذلك اليوم حتى اوقفت الاذاعة الاسرائيلية الحديث عن « الزحف الى دمشق » حتى ان الجنرال هيرتزوغ الناطق العسكري الرئيسي الاسرائيلي ، غيرلهجة تعليقاته بان قال من

الاذاعة ، « ليس بالمستطاع تحطيم مثل هذه الخطوط الدفاعية بسرعة . ان الدفاع السوري ينطوي على شبكة متصلة وعميقة وفوق ارض وعرة » .

وكان عامل الاستنزاف هو الذي اثر اكثر من غيره من العوامل في تثبيط عزيمة الاسرائيليين وثنيهم عن الاندفاع بسرعة الى دمشق . وعلى الرغم من انهم كانوا ينتصرون في المعارك الفردية ، فان السوريين كانوا ما زالو يوقعون بالاسرائيليين خسائر جسيمة . وكلما تقدم الاسرائيليون الى الامام ، اصبحت اجنحتهم اكثر عرضة للتهديد ، وخاصة الجناح الشمالي ، الذي كان معرضاً لهجوم مضاد من جانب القوات المغربية التي عززت من جديد بكتيبة اخرى والتي كانت ما تزال متحمسة تحمساً تاماً لمواصلة القتال . وهكذا لم يعد الاسرائيليون ينتظرون احراز انتصار سريع على الجبهة السورية .

وكانت القوات السورية قد انسحبت انسحاباً منظماً الى خطوط دفاعها المعدة التي كان مركزها المتقدم يقع شرقي بلدة سعسع ، وهي بلدة صغيرة تقع في واد ضيق وتبعد حوالي اربعين كيلومتراً عن دمشق . وكانت الطريق من الجانب الاسرائيلي تؤدي الى فجوة ضيقة في التلال بحيث كان من الصعب على هجوم واسع النطاق ان يشن من خلالها . وبالاضافة الى ذلك ، كانت مواقع الدفاع السورية مركزة في امكنة تكتيكية جيدة ومحصنة تحصيناً هائلا . وقد انشئت على طراز روسي ، وحصنت بالخرسانة المسلحة وبحظائر للدبابات ومواقع للمدفعية التي كانت كلها محمية حماية كافية من الغارات الجوية وكان يرابط فيها جنود ذوو عزيمة صلبة .

وبحلول مساء يوم الثالث عشر كان الاسرائيليون قد استقدموا اثنتين من الاوغدات المدرعة ولواء من المشاة بغية شن هجوم على خطوط الدفاع السورية ـ غير انهم عدلوا في نهاية الامر عن القيام بأية محاولة جديدة لتنفيذ هذا الغرض.وقد ادعت الاذاعة الاسرائيلية انه بما ان الهدف الرئيسي كان تدمير المدرعات السورية ، فقد نفذ هذا الهدف على نطاق واسع حيث ادعت الاذاعة ان خمسين بالمئة من المدرعات السورية التي عبرت خط وقف اطلاق النار يوم السادس من تشرين الاول قد دمرت . واغلب الظن انه بما ان الاسرائيليين اخفقوا في اختراق خط الدفاع السوري ، فانهم اعتبروا ان اي تقدم قد يحرزونه على جبهة ضيقة حتى وان كتب له النجاح قد يخلق فجوة خطرة عند بلدة سعسع .

ومهما يكن من الامر ، فقد وجد الاسرائيليون لهم بديلا افضل في القطاع الجنوبي حيث ظهر وجود فجوة واسعة بين الفرقة السابعة على جانبي الطريق العام والفرقة الخامسة في الجنوب . فبما انه لم يقع اي هجوم مضاد على الفرقة الخامسة بمثل قوة ذلك الذي شن في القطاعين الاوسط والشمالي . لم تبدأ هذه الفرقة بالانسحاب حتى اليوم العاشر وقد انسحبت فقط للمحافظة على خط متصل مع الفرقة التاسعة . ولكن بما ان محور انسحابها العام كان في اتجاه شرقي ، منحرفاً عن المحور الاوسط ، فكان من المحتم ان تحدث بسرعة فجوة بين الطريق العام وطريق محور بطمية ـ الصنمين .

ولو تمكن الاسرائيليون من استغلال هذا الاختلال لامكنهم ان يزحفوا نحو طريق دمشق ـ عمان ومن ثم الانطلاق شمالا للاتصال بالجناح الجنوبي للفرقة التاسعة ، ومن بعد ذلك الاتجاه نحو تطويق دمشق . ولو قدر للاسرائيليين ان ينفذوا هذه العملية لكان لها اثر استراتيجي اهم من تهديد بلدة سعسع من الامام .

الفصل السابع

(العراق والاردن يخوضان الحرب)

على الرغم من المحادثات التي عقدت في دمشق بين الاركان العامة السورية والعراقية على مستوى عال في مطلع السنة ، والتي جرى البحث اثناءها حول خطط القيادة والعمليات ، فان الهجوم السوري في مرتفعات الجولان فاجأ العراقيين مفاجأة تامة لما يغتفروها للسوريين حتى اليوم . وقد تناهى الى سمع الرئيس البكر اول نبأ عن نشوب الحرب في اذاعة نشرة للاخبار مساء يوم السادس من تشرين الاول .

ومع ذلك ، وكما كان موقف العراقيين دائما ، فانهم طرحوا جميع شؤونهم الاخرى جانبا ووجهوا جل همهم نحو توفير الدعم الكامل لخدمة القضية العربية . وقد اجرى الرئيس البكر في الحال اتصالات سريعة مع الرئيسين السادات والاسد ليعرض عليهما دعم الجبهة السورية بقوات عراقية برية وجوية (وكان سرب من الطائرات العراقية من طراز هنتر مرابطا بالفعل منذ اشهر في الجبهة المصرية على قناة السويس) . وفي مساء يوم السادس من تشرين الاول ، وضعت القوات المسلحة العراقية في حالة الاستنفار . وفي صباح يوم السابع من تشرين الاول طار اللواء عبد الجبار شنشل ، رئيس الاركان العراقية العامة ، بصحبة فريق من الضباط الى دمشق من اجل وضع تفاصيل تنسيق اشتراك القوات العراقية في الحرب . وفي الوقت ذاته ، صدرت الاوامر لفرقتين مدرعتين بالتحرك نحو الجبهة السورية كما صدرت الاوامر الى سربين من طائرات سوخوي ۷ وسربين من طائرات ميغ ۲۱ س بالتوجه الى سوريا .

وكانت التقديرات الموثوقة تشير الى ان قوة الجيش العراقي كما يلي :
فرقتان مدرعتان (وفرقة ثالثة في طور التشكيل) .
فرقتان جبليتان .
فرقتان من المشاة .
ولواء واحد من المظليين .
والجيش العراقي ، مثله كمثل سلاح الطيران ، يعتمد في تسلحه على الاسلحة الروسية اعتمادا يكاد يكون تاما . واما الفرقتان العراقيتان فهما مسلحتان بدبابات روسية من طرازت ـ ٥٤ وت ـ ٥٥ . غير ان الفرقة الثالثة التي كانت في طور الاعداد

مسلحة بالدبابات الروسية اكثر تطورا من طراز ت ـ ٦٢ .
لقد خلق الصراع الايراني والمشكلة الكردية التي امتدت ردحا طويلا من الزمن حالة توتر شبه دائمة على الحدود الشمالية . ولهذا فان اربع فرق (فرقتين جبليتين ، وفرقة مدرعة ، وفرقة مشاة) تظل في العادة مرابطة على تلك الحدود . ومن الواضح انه كان من الضروري العمل على التوصل الى تسوية مع ايران قبل ان يتمكن العراق من ارسال اي من هذه التشكيلات العسكرية المسلحة الى الجبهة السورية . وقد سارعت الحكومة العراقية الى فتح باب المفاوضات مع الشاه لاعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في هذه الساعة الحرجة التي تدعو الى التضامن الاسلامي . وقد تجاوب الشاه بسرعة مماثلة : فقد ضمن ابقاء الحدود آمنة اثناء قيام العراق بمحاربة الاسرائيليين . كما تجاوب الاكراد ايضا بالمثل في الجبال الشمالية .

وعندما تأكد ان هذه التحركات الدبلوماسية اسفرت عن استتباب الامن والطمأنينة في داخل العراق ، اتخذت الحكومة العراقية قرارا بارسال الفرقة الثالثة المدرعة التي كانت ترابط الى الجنوب من بغداد فورا الى سوريا . وكان اللواء المدرع الثاني عشر أول التشكيلات العراقية التي تحركت باتجاه الجبهة السورية من هذه الفرقة . وكان على الفرقة السادسة المدرعة ان تلحق بها في مرحلة لاحقة بعد ان اعيد تنظيمها تنظيما طفيفا لتصبح فرقة مدرعة ـ آلية مختلطة .
غير ان تحرك هذه التشكيلات المسلحة العراقية باتجاه سوريا اسفر عن مشكلة خطيرة في الإمدادات . وكانت الفرق العراقية ، مثلها كمثل الفرق السورية ، تتألف من ثلاثة الوية مدرعة كل لواء يتألف من كتيبتي دبابات وكتيبة واحدة آلية (او ، في حال اعادة تنظيمها تنظيما طفيفا ، يمكن ان تقوم بمهماتها بلوائين مدرعين كاملين ولواء آلي واحد) . اما مجموع عدد الدبابات في كل فرقة فكان يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ دبابة بالاضافة بطبيعة الحال الى ناقلات الجنود المدرعة في وحدات المشاة الالية . وكان يتعين ارسال جميع عربات القتال على ناقلات دبابات تحملها على طول الطريق الممتدة مسافة ١٠٠٠ كيلومتر من مراكزها العادية بالقرب من بغداد الى ساحات القتال . وكانت الحاجة تقتضي وضع خطة مسبقة محكمة التدبير لسلسة تنسيق عملية النقل التي كانت تنطوي على مشكلات ادارية وعملية . وهنا واجه الجيش العراقي صعوبات معينة .

وعلى الرغم من المحادثات التي عقدت في مطلع السنة بين الاركان العليا للقيادتين السورية والعراقية ، كما سبق ذكره ، لم تكن الحكومة العراقية على بينة من الدور الحربي الذي كان يتعين على جيشها ان يضطلع به بالضبط . فعلى الرغم من أن الحكومتين العراقية والسورية تناديان بالمبادىء البعثية المشتركة ، فان العلاقات بين بغداد ودمشق كانت دائما نوعا ما غير ودية . وعلى الرغم من سمعة العراق الثابتة من حيث موقفه المتصلب من اسرائيل ، ومن تكرار عروضه بان يشترك في « الجبهة الشرقية » في اية مجابهة ، فان سوريا كانت تميل لان تقابل هذه العرض بتحفظ سياسي . وبناء على ذلك كانت مترددة في السماح للقوات العراقية بالدخول الى اراضيها . وبالاضافة الى ذلك ، فيما كانت الاخبار الواردة من الجبهة تشير الى تقدم

القوات السورية السريع نحو الحدود الاسرائيلية ، لا بد ان تكون القيادة العراقية العليا قد ساورها الشك من حيث مدى السماح بان يكون لها كلمة مسموعة في جهاز القيادة وفي اتخاذ القرارات العسكرية عندما تصل القوات العراقية الى الجبهة . ولم يستطع اللواء ناصيف السامرائي ، الذي كان قد اوكلت اليه مهمة قيادة القوات العراقية واجراء الاتصالات مع القيادة السورية ان يبدد شيئا من مخاوف العراق في هذا الشأن ، عندما رفضت القيادة السورية القبول به (ربما كان مرد ذلك يعود لعلو رتبته العسكرية) ، وبذلك حل محله العميد منعم لفتة الريفي .

وكما اسلفنا القول ، كانت اوامر القيادة العربية المشتركة تقضي بان تنضوى جميع القوات العربية التي سترسل فيما بعد لدعم مصر وسوريا تحت امرة مركز القيادة العامة المصرية او السورية . غير ان اقتراح العراق ارسال قوات بمثل هذه الضخامة الى الجبهة السورية لا بد ان يكون قد اثار استياءه من تلك الاوامر . زد على ذلك ان الجيش العراقي كان يفتقر الى كبار الضباط في صفوفه بسبب عدم استقرار الاحوال السياسية التي كانت سائدة فيه ، مما كان يجعل خدمة كبار الضباط محدودة . فمن قبيل ذلك ان ضابطين كبيرين قد احيلا على التقاعد من الخدمة العسكرية لاسباب لا تمت الى ادائهما المهني بصلة . وكان ذينك الضابطين مدير العمليات العسكرية الذي كان من الممكن لولا ذلك ان يلعب الدور الرئيسي في مسؤولية العمليات والتنسيق الاداري في مثل هذه الحالة الطارئة . وبالنظر الى افتقار القوات العراقية الى كبار القادة العسكريين المتمرسين ، فقد تردد ان قيادة الفرقة التي خصصت للانضمام الى الجبهة السورية كانت قد انيطت اولا بضابط برتبة عميد وان قيادة اللواء المدرع الاول قد انيطت بضابط برتبة مقدم وقيادة اللواء المدرع الثاني قد انيطت بضابط رقي حديثا الى رتبة رائد .

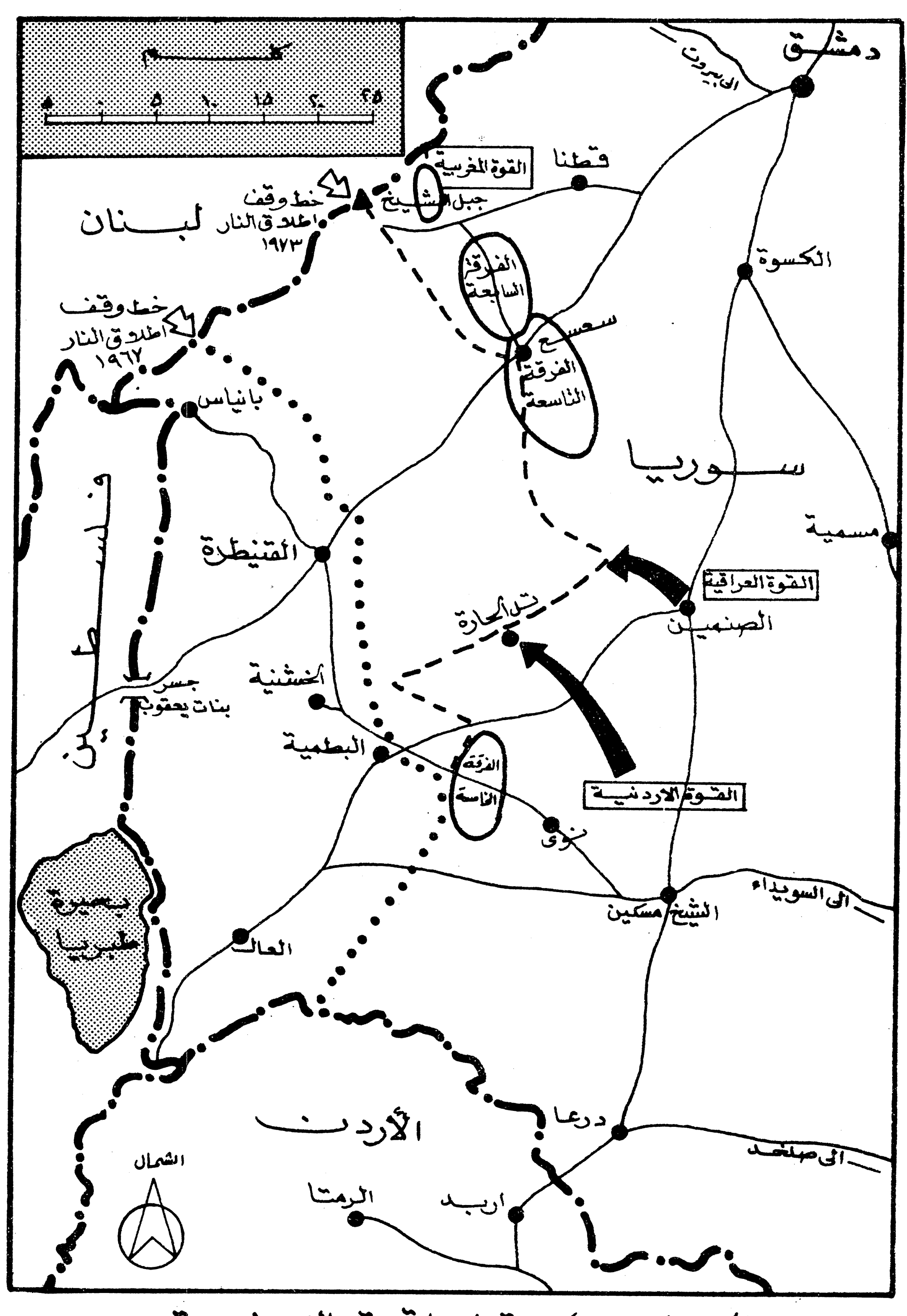
ونتيجة لذلك ، يبدو انه حدثت تغييرات في آخر دقيقة في الوحدات التي خصصت من قبل العمليات ، والتي اعتبرت فيما بعد غير صالحة للقيام بهذه المهمة من حيث معدات النقل المتيسرة لها وغيرها من المعدات . وبالاضافة الى ذلك ، كان عدد ناقلات الدبابات المتيسر غير كاف لنقلها على طريق تمتد ١٠٠٠ ك . م . ولذلك طار وزير الخارجية العراقي الى عمان ليستأذن في استعمال الطريق المؤدية من الاردن الى الرطبة . ولكن عندما رفض طلبه عاد على الاقل بوعد من السلطات الاردنية باعارة ناقلات دبابات ليسهل على الجيش العراقي عملية نقل معداته الى سوريا . ولدى الجيش العراقي ثلاث سرايا من ناقلات الدبابات تتألف من نحو ٢٧٠ ناقلة ولكن قسما منها لم يكن صالحا للاستعمال في عملية عبور الطريق بين بغداد والجبهة . ولكن في تلك الاثناء ، كانت معنويات الجيش العراقي من الارتفاع والحماس بحيث تحركت بعض دباباته سيرا على سلاسلها من بغداد (على امل ان تحمل بعدئذ) بينما انتقلت مجموعات الاستطلاع من التشكيلات الطليعية الى دمشق جوا ، لتكون في استقبال التشكيلات العسكرية الرئيسية . وفي مناسبات عدة تم شحن ناقلات الجنود المدرعة بواسطة شاحنات مدنية صودرت لهذه الغاية .

وقد تحرك اللواء المدرع الثاني عشر من العراق مساء يوم السابع من تشرين الاول .

ومرت طلائعه عبر دمشق في طريقها الى القطاع الجنوبي خلال ليل ١٠ ـ ١١ تشرين الاول . اما اللواء الثاني فقد غادر بغداد في اليوم الثامن من تشرين الاول .
وفي هذه الاثناء كان سلاح الطيران العراقي قد توجه بالفعل الى سوريا واشترك في المعارك الجوية . وكان سلاح الطيران العراقي يتألف (نظريا) من ثلاثة اسراب طائرات من طراز سوخوي ٧ ، واربعة اسراب من طراز ميغ ٢١ س ، وسرب واحد من طائرات ميغ ١٥/١٧ س ، وسربين من الطائرات البريطانية القديمة المقاتلة من طراز هنتر ، وسرب من قاذفات القنابل الروسية من طراز تي يو ١٦ . وكانت بعض تلك الاسراب ناقصة ، مع العلم انه كان في النية ارسال سربين من طائرات سوخوي ، وسربي طائرات ميغ ٢١ س . غير ان الاخبار افادت انه تم في الواقع ارسال حوالي ٤٠ طائرة فقط ـ ٢٦ طائرة من طراز سوخوي و ١٤ من طراز ميغ ٢١ س . واشتركت هذه الطائرات مباشرة بمعمعة القتال بحيث اصيب منها خلال ايام معدودة ٢٥ طائرة . وترددت بعض الانباء بان المعدات الالكترونية والتي تميز بين الطائرات المعادية والصديقة التي كانت تحملها طائرات سوخوي ٧ س العراقية لم تكن منسقة مع اجهزة الرادار السورية المعادية . ولذلك فقد تكبد الطيران العراقي تلك الخسائر الفادحة بحيث تعين في اثر ذلك ابدالها بسرب من طائرات ميغ ١٥/١٧س . وقد افادت الانباء ان اثنتين من القاذفات العراقية من طراز تي يو ١٦ حاولتا اختراق مجال وسائل الدفاع الاسرائيلية ولكنهما لم تفلحا في الوصول الى تل ابيب فاسقطت واحدة منهما .

اما على الارض ، فما كادت حال القوات السورية تصل الى درجة تدعو الى اليأس ، حتى حشد العراق لواءه الثاني عشر المدرع في موقع الصنمين (على بعد ٥٠ كيلومترا جنوبي دمشق) قبل ظهر يوم الحادي عشر من تشرين الاول . وعلى الرغم من ان القوات السورية واصلت مقاومتها الصلبة على المحور الرئيسي ، فان انسحاب الفرقة السورية من الجنوب ، على الطرق المؤدية بعيدا عن الحدود الاسرائيلية ، قد ادى الى اتساع الجبهة اتساعا كبيرا بحيث ادى الى فتح بعض الثغرات الخطرة في الخطوط السورية بين الفرقة الخامسة والتاسعة السوريتين مما اتاح للعدو (المتخصص بسرعة الحركة) الفرصة للقيام بعملية تطويق كبيرة من الجنوب .

ولو كانت القوات الاسرائيلية قد خططت في ذلك الوقت لتطويق دمشق من الجنوب ، كما كان مرجحا ، فان الثغرة التي حدثت بين الفرقتين السوريتين قد وفرت للاسرائيليين الفرصة التي كانوا يحلمون بها . ومن اجل سد تلك الثغرة سارع اللواء العراقي الثاني عشر المدرع الى الدخول لسد هذه الثغرة من غير ان يتيسر له وقت للقيام بعمليات استكشاف او حتى لاصدار اوامر للقيام بالعمليات العادية . وقد تقدمت دبابات هذا اللواء من موقع الصنمين الى الخط الدفاعي الامامي الاول في الوقت المناسب تماما .
غير ان الهجوم الاسرائيلي الرئيسي المضاد كان قد صد امام بلدة سعسع دون ان تظهر اية دلائل على انهيار الجبهة السورية . ولذلك قرر الاسرائيليون باسلوبهم العسكري المعروف القيام بهجوم في العمق فتقدم طابور اسرائيلي قوي مدرع باتجاه جنوبي نحو حرار والصنمين . وقد يكون الاسرائيليون قد تلقوا صورا استطلاعية تدل على تحركات اللواء العراقي واحتشاده في موقع الصنمين ، ولذلك خططوا للقيام بهجوم



الهجمات المعاكسة العراقية والاردنية
على الجبهة السورية ١٩٧٣



مضاد . (ولكن من المحتمل ان يكون نجاح كمين اسرائيلي بطائرات هليكوبتر نصب لطابور الدبابات العراقية شرقي دمشق قد ادى الى تنبه الاسرائيليين الى وجود القوات العراقية) . ولسوء الحظ ، بينما كان اللواء العراقي المدرع الثاني عشر مندفعا ببسالة لسد الثغرة ، تعرض لهجوم اسرائيلي مدرع في جناحه اليساري الحساس .

وتعتبر هذه المنطقة من الارض اقفر البقع وامنعها في هذه الناحية من العالم ـ فهي تتكون من صحراء من الصخور البركانية السوداء تخترقها الوهاد والوديان الجافة التي لا تكسوها النباتات . وكان المكان لا يلائم رفع معنويات جنود كانوا قد قدموا لتوهم من رحلة شاقة عبر البادية . غير ان العراقيين واجهو الاسرائيليين بدون تردد ، واذ شعروا بحرج الوضع على الجبهة السورية ، هبوا مباشرة لدخول المعمعة .

وقد تحدثت بعض التقارير العراقية عن ان قوة الطابور الاسرائيلي الذي هاجم كان يتألف من فرقتين . غير ان في ذلك مبالغة لا شك فيها . اذ يتعذر في تلك الاونة ان يتصور المرء كيف امكن للجيش الاسرائيلي ان يخصص فرقتين في تلك المرحلة من القتال للقيام بهجوم بقصد استطلاع او تطويق العراقيين . واغلب الظن ان تكون القوات الاسرائيلية المذكورة على شكل « اوغدا » تتألف من ١٠٠ الى ١٢٠ دبابة ولكنها فاجأت العراقيين مفاجأة لم تكن في صالحهم . فبعد ان قطعت المدرعات العراقية مسافة ١٠٠٠ ك . م . فريدة في مدى يومين ، اضطر اللواء العراقي فجأة للاستعداد للقيام بدور خطير دون ان يتيسر له شيء من الراحة واعادة التنظيم ، وكان عدد من دباباته بحاجة الى الاصلاح والصيانة . فلا غرابة والحالة هذه ان يكون العدو قد بدا امامه وكأنه قوة هائلة .

وقد خسر العراقيون عدداً من الدبابات في الدقائق الاولى من الاشتباك ولكن سرعان ما استدارت القوات العراقية الى الشمال لمواجهة التحدي واشتبكت في معركة ضارية بالدبابات مع القوات الاسرائيلية في معركة دامت اكثر من ساعة ، اتضح على اثرها انها لم تكن في صالح العراقيين . اذ تغلبت مدافع الدبابات الاسرائيلية على مدافع الدبابات الروسية . كما ان الصواريخ الالمانية الصنع من طراز كوبرا المضادة للدبابات قصر مداها عن مدى صواريخ اس اس ـ ١١ و ٢ . زد على ذلك ان القوات العراقية في خارج مدى صواريخ مظلة الدفاع الجوية السورية كانت تتعرض ايضا لضربات سلاح الجو الاسرائيلي . ولو نظرنا الى تلك المعركة من جميع النواحي لوجدنا انها كانت غير متكافئة من البداية الى النهاية . غير ان رجال المدرعات العراقية لم يرهبهم تفوق سلاح العدو فأبدوا كل بسالة في خوض المعركة وتمكنوا من تفويت الفرصة على الاسرائيليين لكسب المعركة . وباقتراب الظلام اخذ العراقيون يتنفسون الصعداء بعد ان انهكهم التعب . وقد اعترف مصدر عراقي آنذاك ان اللواء العراقي تكبد اصابة ٨٠ دبابة اعطبت او اتلفت . ولو لم يصل لواء ثان اثناء الليل لكان من المحتمل ان يقع القطاع الذي كان يحتله العراقيون في ايدي القوات المعادية في اليوم الثاني . وفي مساء ليل ١١/١٢ تشرين الاول ، وصلت طلائع من اللواء المدرع (التابع للفرقة السادسة المدرعة) وانضم الى اللواء الثاني عشر في حركة اعادة تنظيم ليؤلفا معا فرقة متكاملة . وقد انيطت بهذه الفرقة في صباح ١٣ تشرين اول مهمة وهي المحافظة على القطاع الممتد من شمال تل الحرار الى الجنوب من سعسع .

وكانت القوات الاسرائيلية قد اجتازت خطوط وقف اطلاق النار على المحاور الثلاثة قبل ان يحل اليوم الثالث عشر من الشهر . وهكذا ما كاد الخطر المحدق بموقع الصنمين ينتهي بوصول امدادات القوات العراقية ، حتى نشأ هناك خطر آخر هدد المنطقة جنوبي حرار على الطريق الممتد من بطمية الى الشيخ مسكين ، غير ان القوات الاردنية كانت قد تقدمت للنجدة هذه المرة .

وفي عمان ، لم يكن الملك حسين مطلعا على خطط الهجوم العربي . غير ان اللواء بهي الدين نوفل ، من القيادة العربية المشتركة الذي قام بزيارة لاجراء اتصالات بالاركان العامة الاردنية في اليوم الرابع من تشرين الاول كان قد الح في اثناء هذه الزيارة انه في حال وقوع مجابهة مع اسرائيل ، من الممكن ان تقوم القوات الاردنية بمهمة المحافظة على الجناح الجنوبي من الجبهة السورية . وكما فكر السوريون من قبل في احتمال مهاجمة اسرائيل من الاراضي الاردنية ، جنوبي بحيرة طبريا ، كذلك فكر الاسرائيليون بالقيام بالهجوم على جنوب سوريا عبر الاراضي الاردنية . وهذه فكرة كانت واردة دائما .

وكانت الحيلولة دون تنفيذ خطة الاسرائيليين المذكورة مهمة جسيمة تقع على عاتق الاردنيين . اذ يمتد خط الدفاع الاردني من ميناء العقبة في الجنوب الى بحيرة طبريا في الشمال ، ويبلغ طول تلك الحدود نحو ٦٠٠ ك . م . والقوات المتيسرة لدى الملك حسين لصد اي هجوم لم تكن اكثر من فرقتين من المشاة ولواء مدرع ، بالاضافة الى فرقة مدرعة ولواء مشاة مستقل ولواء من القوات العربية السعودية . وبالاضافة الى ذلك ، كانت الترتيبات تتخذ بالقرب من عمان لتشكيل فرقة مدرعة وفرقة آلية اخرى ، وكان من الممكن ان تعزز هذه القوات بلواء اخر من المشاة وفوجين مدرعين من القوات السعودية المرابطة في تبوك . اما سلاح الجو الاردني فكان يتألف من سربين من طائرات هنتر وسربين من طراز ١٠٤ ستار فايتر .

وكانت القوات الاردنية تعتبر دائما وحدة متلاحمة متماسكة تم تدريبها حسب الاصول العسكرية البريطانية (ونشأت هذه القوات على تقاليد الجيش العربي في عهد كلوب باشا) . وكانت دائما تلزم الانضباط في مواجهة القوات الاسرائيلية وان كانت قد منيت من قبل بهزيمة منكرة على يد تلك القوات في حرب ١٩٦٧ حين خسر الاردنيون ثلثي سلاحهم الجوي وقواتهم البرية اثناء عملية الانسحاب من القدس والضفة الغربية . ويتألف الجيش الاردني بصورة رئيسية من قبائل البدو التي حافظت على روحها المعنوية وولائها للملك . ولكن رجال القوات الاردنية كانت تغلب عليه الروح الانهزاميه بالنسبة الى التفوق التكنولوجي الذي تتمتع به القوات الاسرائيلية المسلحة . وبالاضافة الى ذلك ، كانت القوات الاردنية تفتقر ايضا الى الصواريخ . غير ان التشكيلات المدرعة كان في حوزتها نحو ٦٠ دبابة من طراز م ــ ٦٠ (وكان الباقي من طراز سنتوريون (المزودة بمدافع جديدة) . وخلاصة القول ان القوات الاردنية كانت تفتقر بصورة عامة الى المعدات والاسلحة المتطورة كالتي كانت تمتلكها القوات المصرية والسورية . كما كان الاردن يفتقر الى شبكات الرادار ، لان محطة الرادار التي كانت قائمة في عجلون نسفت في حرب ١٩٦٧ . لهذه الاسباب اقر اجتماع القمة

الذي عقد في القاهرة في شهر ايلول رسميا بان القوات الاردنية عاجزة عن القيام باي هجوم ضد اسرائيل ، بل حتى ان امكانيتها الدفاعية كانت محدودة ايضا . وكان اقصى ما يمكن ان ينتظر ان تقوم به ، انسجاما مع الخطة العربية بصورة شاملة ، هو ان تعمل على شغل القوات الاسرائيلية على طول نهر الاردن ومنعها من التسلل عبر الاراضي الاردنية من جنوبي بحيرة طبريا للهجوم على سوريا .

وقد جرى توزيع القوات الاردنية على النحو التالي : احتلت الفرقة الاولى والثانية من المشاة مواقع دفاعية لها مدروسة على طول نهر الاردن لتتمكن من مجابهة اي هجوم تقدم عليه القوات الاسرائيلية . فرابطت الفرقة الاولى في منطقة اربد ـ عجلون ، والفرقة الثانية في المنطقة المحيطة بالسلط على طول الطريق الرئيسي الممتد من القدس الى عمان . اما الفرقة الثالثة المدرعة فقد اتخذت موقعا لها حول بلدة المفرق في العمق ، بينما كان يجري اعداد الفرقة الرابعة الالية في عمان والفرقة الخامسة المدرعة في الزرقا شمالي عمان . ولم يكن حجم كلا الفرقتين قد وصل الى حجم اللواء لانهما كانا في المراحل الاولى من الاعداد .

اما القطاع الجنوبي الممتد من جنوبي البحر الميت الى ميناء العقبة ، فقد انيطت حمايته بلواء المشاة الحادي عشر السعودي الذي رابط افراده في منطقة تمتد من الكرك الى معان . اما فرقة المشاة الرابعة المستقلة فقد رابطت على محور مغان ـ العقبة .

وبعيد توارد انباء الهجوم العربي في اليوم السادس من تشرين الاول ، استنفرت القوات الاردنية وصدرت الاوامر باعلان التعبئة العامة في اليوم السابع . في اليوم التالي كانت البلاد باسرها في حكم حالة الحرب وكان الملك حسين في الوقت ذاته قد امر بنقل سلاح الطيران الاردني الى المملكة العربية السعودية والقواعد الجوية في مناطق الخليج خوفا من قيام اسرائيل بتوجيه الضربة الاولى له . ولكن سلاح الطيران الاسرائيلي لم يقم في ذلك الوقت باي نشاط يذكر فوق الاردن باستثناء حادثة اختراق المجال الجوي الاردني خلال الايام الاولى عندما حاولت القاذفات الاسرائيلية المرور بسرعة فائقة من الجنوب لضرب الجناح السوري المدرع في مرتفعات الجولان ، لكن يقظة المدافع الاردنية المضادة للطائرات احبطت تلك المحاولات وادعت اسقاط طائرتين للعدو مما لم يشجع الاسرائيليين على القيام بمحاولات اخرى في هذا الشأن .

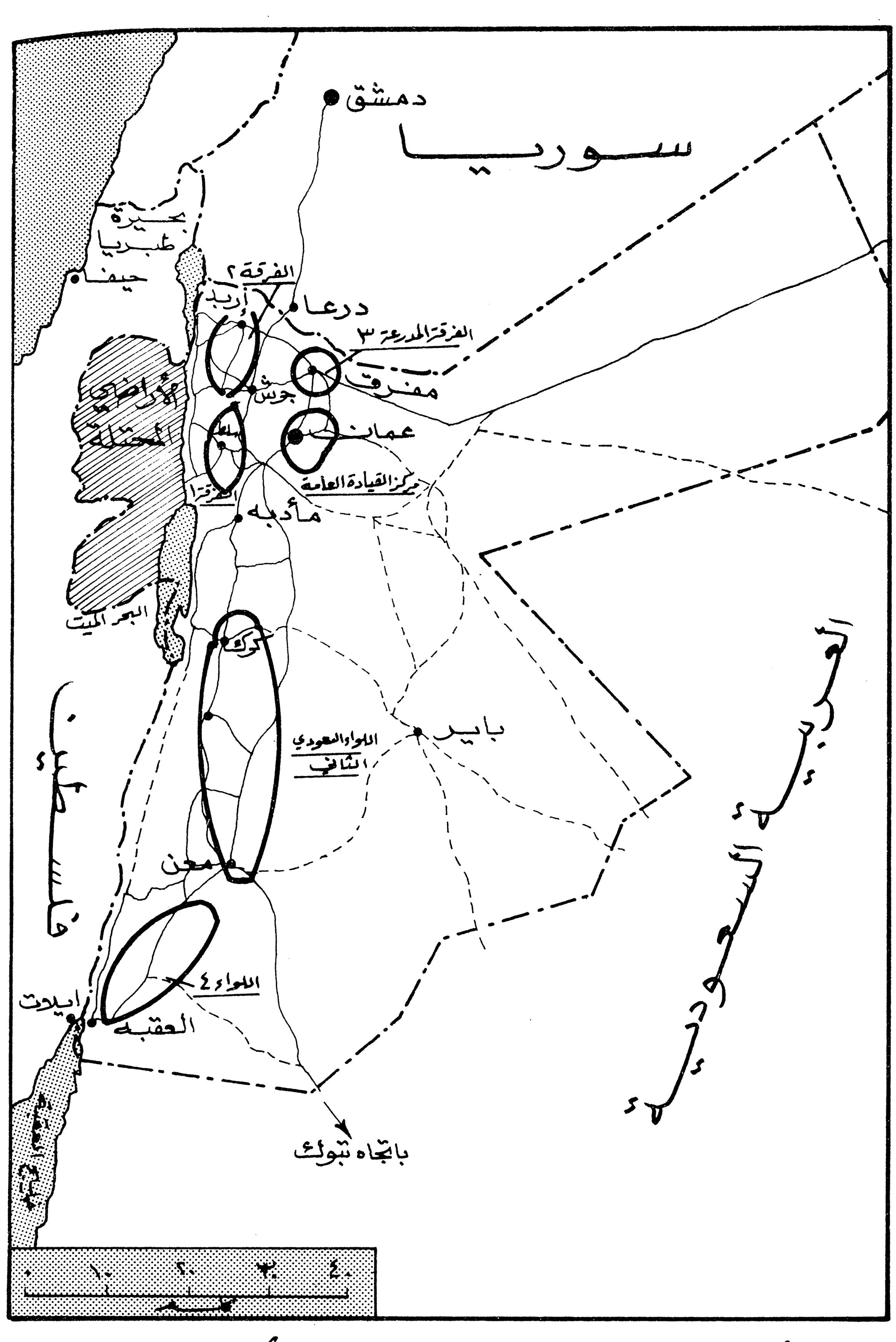
وفي الوقت ذاته كان على الاردن ، بناء على قرارات مؤتمر القاهرة ان يخصص قوة ويبعث بها الى الجبهة السورية ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . والواقع ان هذه النقطة لم تخلق اي مشكلة في التخطيط ، حيث انه سبق للجيش الاردني ان كلف وقام بالفعل بتنفيذ مهمة التصدي للجيش السوري في الشمال . وقد خصص الملك حسين لهذا الغرض هذه المرة تشكيلات من الفرقة الثالثة المدرعة وقرر لتنفيذ هذه المهمة ان يقود هذه الفرقة بنفسه .

بناء على ذلك ، وعندما تدهورت الاحوال بسرعة في ١١ ـ ١٢ تشرين الاول ، اصدر الملك اوامر الى اللواء المدرع ٤٠ والتابع للفرقة المدرعة الثالثة (وهو عبارة عن كتيبتين من الدبابات) بان يتحرك نحو الجبهة السورية . وصلت هذه القوات الى الشيخ مسكين في اليوم الثالث عشر في الوقت المناسب الذي تعرض فيه المحور العراقي للثغرة في

قطاع الصنمين ــ بطمية .
ولسوء الحظ رافقت هذا التحرك البلبلة المعتادة التي تصاحب الاجراءات التي تتخذ اخر دقيقة اذ انه لم يخصص اي اشارة اتصال لشبكة اللاسلكي في التشكيلات المدرعة حسبما تم عليه الاتفاق المتبادل . وفضلا عن ذلك فان العراقيين لم يبلغوا بامر دخول القوات الاردنية ميدان القتال . وهكذا حين اخذت الدبابات الاردنية تتقدم لتسد الثغرة المفتوحة في تل الحرار وقع الخطأ المنتظر من حيث ان القوات العراقية المرابطة هناك اخذت في اطلاق النار على طابور الدبابات الاردنية المتقدم ، حيث ان دبابات الجيش الاردني كبعض دبابات الجيش الاسرائيلي من طراز سنتوريون . وقد افادت الانباء ان خمس دبابات اردنية اعطبت في هذه البلبلة . وما كاد يتم تبين هذا الخطأ حتى اخذت القوات الاسرائيلية تهاجم الجناح الايسر المكشوف من اللواء الاردني . فخرجت القوات الاردنية من هذا الاشتباك بخسارة ٢٠ دبابة حيث انها لم تجد ما ترد به على الصواريخ الاسرائيلية من طراز اس اس ١١ و تاو غير ان القوات الاردنية استطاعت الصمود في مواقعها والحفاظ على خط دفاعها . وبعد ذلك دفع الاردن باللواء المدرع ٩٢ واستكمله فيما بعد ببقية الفرقة الثالثة المدرعة التي اتخذت مواقع لها في الشيخ مسكين . وبعد اليوم الرابع عشر ، انخفضت حدة القتال الى حد كبير . وبدأ الاسرائيليون بالفعل ينقلون قواتهم الى صحراء سيناء ، وتوقفت القوات الاسرائيلية عن الاندفاع في اتجاه دمشق او الجنوب . غير ان النجدات كانت ما تزال تتدفق من البلاد العربية : فبعث السعوديون بلواء من تبوك ، وارسل المغرب كتيبة اخرى لتشترك مع مفرزته التي حاربت ببسالة في القطاع الشمالي .

وفي اليوم السابع عشر ، وصل لواء عراقي مختص بحرب الجبال ليدخل المعركة فورا . وبعد يومين ، وصل لواء دبابات عراقي ثالث (تابع للفرقة المدرعة السادسة مع كامل قيادة الفرقة المدرعة السادسة . وبعد ان تم تجميع القوات العراقية وضعت تحت امرة قيادة الفرقة المدرعة السادسة . وهكذا في صباح يوم عشرين من تشرين الاول تعززت القوة العربية الى درجة كبيرة على جبهة الجولان .

غير ان النقاب لم يكشف عن تفاصيل العمليات خلال هذه المرحلة . مع ذلك فقد علم انه في اليوم السادس عشر من تشرين الاول كانت قوة مشتركة سورية ــ عراقية ــ اردنية تشن هجوما من موقع تل الحرار كان الهدف منه قطع خط المواصلات الاسرائيلي غربي القنيطرة . وكانت الخطة تقضي بان يكون اللواء الاردني في طليعة الهجوم لاختراق خطوط العدو في جبهة ضيقة . غير ان هذا الهجوم لم يبدأ لسوء الطالع بداية حسنة ربما لعدم كفاية الاستعدادت التي سبقته ومع ذلك فقد احرز اللواء الاردني بعض التقدم في البداية ولكن تردد انه تعرض لوابل من نيران المدفعية العراقية التي كان من المقرر ان تطلق نيرانها قبل نصف ساعة من الهجوم . وما كاد يتم اصلاح هذا الخطأ ايضا حتى اقبل سرب من الطائرات السورية من طراز ميغ استدعي لتأمين دعم بري للاردنيين وراح يصب نيرانه خطأ على القوة الاردنية . وفي هذه المرحلة صدرت الاوامر بالغاء الهجوم .
وكان من المقرر ان يتم وقف اطلاق النار مساء يوم ٢٢ تشرين الاول ، ولكن العراق



الأردن: خطة الدفاع الأردنية



وسوريا لم يقبلا بوقف اطلاق النار وقررا معا متابعة القتال ضد اسرائيل . فحدثت عدة اشتباكات محلية عنيفة خلال الايام التي تلت قرار وقف اطلاق النار بين مجموعات المدرعات والمدفعية . ولكن هذه الاشتباكات لم تسفر عن اي تغير تكتيكي رئيسي في الموقف الا في اقصى الطرف الشمالي حيث راح الاسرائيليون يستجمعون قواتهم للانقضاض على المعاقل السورية في جبل الشيخ .

وفي ٢٢ تشرين الاول اذاع راديو اسرائيل ان « القوات الاسرائيلية قد استولت على المواقع التي احتلتها القوات السورية في جبل الشيخ منذ اندلاع القتال » . واعلنت ان الهجوم قام به مظليون انزلوا بطائرات هيليكوبتر » تدعمها عناصر المشاة المرابطة في هضبة الجولان وقطع المدفعية وسلاح الجو مع وحدات مدرعة ... وقد ابتدأ الهجوم بعد ظهر يوم الاحد في ٢١ تشرين الاول . واستمر القتال ضاريا بالسلاح الابيض طوال الليل بين جنودنا والجنود السوريين ... وكانت عملية الليلة الماضية من اعقد العمليات حتى الان » .

وفي ٣ تشرين الاول ، اعلنت الاذاعة السورية ان الحكومة عاكفة على درس قرار مجلس الامن لوقف اطلاق النار (الثاني) . ويعتقد بان الحكومة العراقية حاولت اقناع الرئيس الاسد بالعدول عن قبول مشروع وقف اطلاق النار حتى انها تعهدت بتعزيز القوات العراقية المرابطة في سوريا بتشكيلات اخرى من بغداد . ولكن عندما قبل السوريون في النهاية وقف اطلاف النار انسحبت على الاثر القوات العراقية من الجبهة .

وفي ٢٥ تشرين الاول اختتم راديو العراق برامجه بتعليق هذا ترجمته :

لقد كنا على علم بجميع هذه الحقائق في الوقت الذي دخلنا فيه المعركة بكل طاقتنا بغض النظر عن جميع التضحيات التي كان علينا ان نبذلها . لقد كنا نظن ، عن وهم خاطىء ، بان اشقاءنا واصدقاءنا ، بعد ان رأوا العراق يضع كل امكاناته في المعركة رغم انه لم يعلم بوقوع الحرب الا من خلال الاذاعات ، سوف يقدرون ويحترمون شعور العراق فانه بوصفه طرفا رئيسيا في القتال ، لن يقبل بان يقرر سير او نتيجة المعركة فريق شقيق او صديق ، دون ان يستشيره من قبل .

الفصل الثامن

عمليات رؤوس الجسور في سيناء

بينما كانت الحرب في الجولان تتميز بسرعة الحركة بحيث يمكن لاي مراقب متابعة اخبارها والاستدلال على معاركها الرئيسية بسهولة ، كان القتال في سيناء في اعقاب اقامة مصر رؤوس الجسور لغزا يصعب حله . لقد كانت الحرب في هذه الجبهة بسبب التكرار الذي اتسمت به غامضة وضارية ولكنها كانت مع ذلك تعوزها الحركة الى حد كبير . وكان القتال هنا سلسلة من معارك الدبابات الهائله العدد والتي طغت على جميع المعارك الحربية المماثلة لها باستثناء المعارك المدرعة الكبرى التي وقعت على الجبهة الروسية ابان الحرب العالمية الثانية . وقد اسفرت النتائج عن خسارة كلا الطرفين خسارة فادحة في الدبابات . ولكن هذا ما كان ينشده الجيش المصري ـ حرب الفريق الشاذلي التي سميت « الحرب الطاحنة » .

ففي ٩ و ١٠ تشرين الاول وبعد ان صد الجيش المصري الهجمات الاسرائيلية المضادة ، استمر المصريون يحشدون قواتهم الاحتياطية المدرعة مع غيرها من المعدات الثقيلة بغية تعزيز قواتهم على الضفة الشرقية من القناة . وكان الجيش الاسرائيلي في سيناء في الوقت ذاته قد عزز قواته ايضا بنجدات من الاحتياطيين والوحدات الاحتياطية . وعلى الرغم من ان الاسرائيليين اعطوا الاولوية الى الجبهة الشمالية ، فقد اصبحت اسرائيل فيما بعد في حالة تمكنها من شن هجوم مضاد منظم في سيناء . وقد ابتدأ هذا الهجوم بالفعل بعيد ظهر يوم ١٠ تشرين الاول اذ دارت رحى معركة بالدبابات استمرت طوال الليل ولبضع ساعات من صباح يوم ١١ تشرين الاول بحضور الفريق الشاذلي بذاته ، كما ذكرت التقارير يومها . وقال المصريون انهم استولوا في هذه المعركة على ١٥ دبابة من طراز ام ـ ٦٠ ودمروا ٢٣ دبابة وغيرها من المجنزرات .

وكانت العمليات الجوية والبحرية في الوقت ذاته قد ازدادت حدة واتساعا . ففي يوم ١٠ تشرين الاول ، هاجمت قوة اسرائيلية بحرية الشاطىء الشمالي لمصر وادعت انها اغرقت ثلاثة زوارق صواريخ وقال المصريون انهم دمروا ثلاثة زوارق دورية اسرائيلية ، واسقطوا اربع طائرات هليكوبتر من طراز سي كنغ (يفترض انها كانت مزودة بصواريخ من نوع غابريال) . وفي اشتباك اخر وقع في اليوم التالي ، قال المصريون انهم اغرقوا ثلاثة زوارق صواريخ اسرائيلية وانهم خسروا زورقين . ووقعت اشتباكات مماثلة في خليج السويس وبور سعيد في ١٢ تشرين الاول ، وادعت البحرية المصرية على

اثرها انها اغرقت ثلاثة زوارق صواريخ اسرائيلية في خليج السويس بينما راحت اسرائيل تدعي انها اغرقت في بور سعيد زورقين مصريين (بينما نفى المصريون ذلك فيما بعد) . وصدرت تقارير عن الاركان المصرية العامة في يوم ١٣ تشرين تتحدث عن انتصار باهر وكان ذلك عندما استسلمت حامية اسرائيلية كبيرة على الشاطىء الشمالي من خليج السويس الى قوة مصرية من رجال الصاعقة والبحرية .

واستمر سلاح الجو الاسرائيلي في محاولة اختراق الخطوط الدفاعية في دلتا النيل على طول الممر المفضي الى دمياط . ففي يوم ١١ و ١٢ تشرين ، اغارت طائرات الفانتوم وسكاي هوك على محطات الرادار والقواعد الجوية في القويسمة وابو حماد . كما اغارت ايضا على قواعد الصواريخ وغيرها من الاهداف في منطقة بور سعيد ، قال المصريون اثناءها انهم اسقطوا ٢٣ طائرة قاذفة ـ مقاتلة اسرائيلية . ولم تنف اسرائيل ذلك . وشعرت القيادة العسكرية العامة في القاهرة في هذه المرحلة بان القوات الاسرائيلية تعير منطقة بورسعيد انتباها زائدا بقصفها الجوي الكثيف لاهداف المدينة والمنطقة المحيطة بها عند ملتقى القناة بالبحر الابيض المتوسط مما دل على ان محاولة عملية انزال قد تكون وشيكة الوقوع في مكان ما بالقرب من بور سعيد . وهذا ما دعا القيادة العامة في القاهرة الى ارسال فرقة آلية من الاحتياطي المركزي الى الصالحية . ولكن بعد ان تأكد زوال الخطر انسحبت الفرقة المذكورة . ومن المحتمل ان الاسرائيليين قد فكروا بتنفيذ مثل هذه العملية غير انهم تخلوا عنها لصالح عملية عبور اكثر ملاءمة .

وبدت في هذه الاثناء مشكلة خطيرة ادت الى اسدال الستار بسرعة على التهديد الواقع على بور سعيد . فعلى الرغم من ان المشير احمد اسماعيل كان قد قرر الا يقوم الجيش المصري باية عملية كبيرة في سيناء خارج نطاق مظلة الصواريخ ، فان المأزق الذي وقع فيه الجيش السوري في مرتفعات الجولان احدث تبديلا في الاستراتيجية كلها . فالاتفاق المسبق المشترك كان يقوم على اساس ان لاتكون العمليات على الجبهات السورية والمصرية تعتمد الواحدة منهما على الاخرى (بمعنى ان القيادة العربية المشتركة لا تملك السيطرة على كلتا الجبهتين) ولكن المشير اسماعيل ادرك في سياق المعركة ان انهيار الجبهة السورية قد يعني كارثة لمصر لان ذلك يعطي القوات الاسرائيلية الفرصة لتركز كل قوتها على الجبهة المصرية في سيناء ـ هذا بالاضافة الى الالتزام الادبي تجاه حليف وخاصة بسبب ما بدا للقيادة السورية من ان المصريين يتباطأون في الهجوم على خط الممرات (وبدا ان ضباط الاتصال السوريين الذين حضروا في مطلع السنة واحدا بعد العديد من مؤتمرات التخطيط التي عقدت في القاهرة ، قد افهموا على نحو ما ان الهدف المصري في سيناء يشتمل على الوصول الى طرف الاخاديد وخط الممرات . وهكذا اخذت دمشق بناء على ذلك تمطر مركز القيادة العربية المشتركة باسئلة عن الموعد الذي يعتزم فيه الجيش المصري التحرك الى الامام) . فشعر المشير اسماعيل في هذه الظروف انه مضطر الى شن الهجوم الرئيسي من موقعه المتقدم مكرها بذلك الاسرائيليين على زج الاحتياطي الاسرائيلي في اتون المعركة . ولكن ذلك من شأنه ان يضع جيشه خارج نطاق حماية مظلة صواريخ سام ـ ٢ و٣ وبالتالي العمل في منطقة يكون فيهالسلاح الجو الاسرائيلي تفوق حاسم . ومع ذلك كان لابد من البدء في التحرك الى الامام مهما كان الثمن .

وكانت مجموع القوة التي تمكنت مصر من حشدها حتى ذلك اليوم شرقي القناة تبلغ

ثلاث فرق من المشاة ، وثلاثة الوية مدرعة ، ولواء واحدا مستقلا ، بالاضافة الى سبع بطاريات من صواريخ سام ـ ٦ مع عدد من صواريخ سام ـ ٧ الفردية التي ينقلها الجنود مع التشكيلات المختلفة . وكان لا بد ان تعبر القناة من شاطئها الغربي تعزيزات اضافية من الدبابات ، قبل ان تتمكن القوات المصرية من شن اي هجوم رئيسي . ومن المحتمل ان يكون قد ارسل في هذه المرحلة الجانب الاكبر من فرقة مدرعة ٢١ للالتحاق بالقوات التي عبرت القناة .

وفي فجر يوم الاحد ١٤ تشرين الاول ، وبعد قصف مدفعي استمر اكثر من تسعين دقيقة شمل معظم الجبهة الممتدة من موقع الرمانة في الشمال الى وادي مبوك في قطاع السويس ، تحركت الطوابير المصرية المدرعة في تشكيلات هجومية باتجاه المواقع الدفاعية الاسرائيلية . ولم يقع هذا الهجوم بعد فترة من الهدوء لان القتال كان مستمرا بشكل او باخر منذ ٧ تشرين الاول ولكنه شهد زيادة مثيرة في (ميزان) القوى العسكرية التي حشدت في المعركة . ويقدر مجموع عدد المدرعات التي اشتركت في المعركة التي وقعت في تلك المنطقة بما يتراوح بين ٦٠٠ و ٨٠٠ دبابة .

وعلى الرغم من ان الهجوم قد شن على جبهة عريضة فان الجهد الرئيسي كان يتركز في اتجاه موقع الطاسة على الطريق الى بير جفجافة . وقد ذكر ان الفرقة المدرعة ٢١ هي التي شنت هذا الهجوم وبينما كانت الدبابات تزحف وسط الدخان الكثيف الناتج من قصف المدفعية كان سلاح الطيران المصري قد بدأ بقصف المواقع الاسرائيلية في الخنادق المحفورة التي التجأت اليها دباباته تنتظر حلول الساعة لتشترك في المعركة .

وعلى الرغم من ان المصريين نجحوا في دحر العدو الى الوراء في امكنة متعددة فقد اصيبوا بخسائر فادحة نتيجة القصف الجوي وقصف المدرعات والصواريخ الاسرائيلية . ولقد بدا ان الادوار قد انعكست : كان الاسرائيليون في هذه المرة هم الذين يهاجمون طوابير المصريين المدرعة وهي تهاجم في الصحراء .

وبعد مضي ساعة على شن الهجوم ، اذاع راديو اسرائيل ان الهجوم المصري قد اوقف . هذا بينما اعلن راديو القاهرة ، في اذاعة الظهيرة عن نشوب قتال عنيف على (طول) جميع الجبهات . وقد اتضح فعلا بعد الظهر ان الهجوم قد تلاشى فراح الاسرائيليون يدعون ان قواتهم دمرت ٢٠٠ دبابة مصرية . لكن اذاعة العرب من القاهرة وصفت المعركة بصراحة مثيرة قالت فيها « لقد اصيبت مئة دبابة من دباباتنا » .

وكانت الخسائر الاسرائيلية اقل من الخسائر المصرية ، غير انها كانت كبيرة الى درجة احدثت قلقا شديدا . وكان من بين الذين قتلوا في ١٤ تشرين الاول قائد القوات المدرعة الاسرائيليّة في سيناء الميجور جنرال أ . مندلر ، الذي تولى قيادة « اوغدا » بحجم فرقة او ما يقارب من لواء في هذه العمليات . وقد فاق بالفعل عدد قتلى هذه المعارك ضحايا حرب الايام الستة . وبعد ان جمد الاسرائيليون الجبهة الشمالية في سعسع ، اصبح الان بامكانهم ان يحولوا قسما من قواتهم من الجولان الى قطاع سيناء وقد قدرت الاستخبارات المصرية انه خلال ١٤/ ١٥ تشرين نقل الجيش الاسرائيلي ثلاثة الوية آلية ولواء مدرعا من الجبهة السورية الى جبهة سيناء .

وقد حملت الصحافة الغربية على المشير اسماعيل وانتقدت بشدة تكتيك « حذره

الشديد » في الاسبوع الاول من الحرب ، وتقاعسه عن شن عملية اختراق الى عمق سيناء بعد ان حقق الانتصارات الاولى في عبور القناة . وقد كتبت الصنداي تلغراف في ١٦ كانون الاول ما معناه :

« كانت فلسفة الحذر قبل كل شيء آخر هي التي منعت العرب من كسب الحرب . وبقدر ما جعلت حرب الايام الستة الاسرائيليين يتمادون في ثقتهم بأنفسهم ، جعلت المصريين يتمادون في التزام جانب الحذر . وقد بدا ان المشير اسماعيل قد خاف من مغبة مجابهة المدرعات الاسرائيلية في حرب متحركة بعيدا عن مظلة الصواريخ المضادة لطائرات الفانتوم وسكاي هوك ، بحيث اضاع عليه الفرصة التي اتيحت له ليحمل اي قائد اسرائيلي على الهرب مذعورا هائما على وجهه في الصحراء . وهي فرصة كانت جديرة بان تمكن الجنود المصريين من ان يدقوا ابواب تل ابيب » .

اما صحيفة التلغراف فقد بنت انتقادها على اساس الزعم « انه كان لدى مصر خطط للاستيلاء على كل سيناء ـ ولو ان الفرصة اتيحت لها لتنفيذ ذلك كانت اسرائيل قد انهارت كدولة وسلمت الى الفلسطينيين ـ واخذت كل دولة عربية حصتها من فلسطين » .

وهذه التعليقات تعكس بوضوح خط التفكير الاسرائيلي وهي تفتقر الى الادلة والمعرفة بالخطط المصرية واستعدادات مصر السياسية والعسكرية . وليس من المستبعد ان تكون بعض العناصر المتحمسة من قادة الفرق التي احتلت الخطوط الامامية قد تحدثت الى مراسلي الصحف عن « متابعة السير الى تل ابيب » . بيد ان تلك هي الطريقة التي ينتظر من الجنود ان يتحدثوا بها وسط حماسهم اثناء المعركة . ولكن لا يشتم من طريقة اعداد الفرق العسكرية المصرية في الضفة الشرقية من القناة للقتال ولا من اي دليل استراتيجي اخر ادنى سبب يحمل على الاعتقاد بان مصر كانت قد خططت في يوم من الايام للزحف الى ابعد كثيرا من رؤوس الجسور التي اقامتها عبر القناة ، ناهيك بنقل القتال الى الارض الاسرائيلية . وربما كان الانتقاد الوحيد الذي يمكن تبريره هو انه كان ينبغي ان يشن المصريون هجوما يساعد السوريين في الخروج من المأزق الذي وقعوا فيه . غير ان ذلك كان يجب ان يحدث قبل اكثر من يومين على الاقل . ومع ذلك ، لندع المشير اسماعيل يتكلم بنفسه عن هذا الموضوع .

اجرى رئيس تحرير الاهرام الاستاذ محمد حسنين هيكل بعد انتهاء الحرب مقابلة مع المشير اسماعيل . وعندما سأله « لماذا لم يتطور الهجوم كله بسرعة كما كان يجب ، وما اذا كان التخطيط المصري باكمله كان ينطوي فقط على عملية العبور على نطاق واسع لقناة السويس » . وقد اعترف المشير اسماعيل بانه على الرغم من عملية عبور القناة قد شغلت جل انتباهه ، فانها كانت مجرد مقدمة ، على انه كان يجب ان تكون هناك خطة اشمل :

فالحروب هي حوار بين خطة واخرى ... بين قوة ضاربة وقوة مثلها ... بين امكانية متحركة وبين اخرى مماثلة ...

وكنا قد اجرينا حسابا دقيقا على كل شيء ، لكن كان ذلك في النهاية يتوقف على ماذا كان سيفعل العدو .. اما من ناحيتي الشخصية فان المسألة لم تكن مجرد فرصة

متاحة ، بل كانت عملية حساب . فمهما كانت الفرص التي اتيحت لنا فانه كان من واجبي الا اقدم على اية مجازفات .

لقد ابتدأنا العمليات بحماية شبكة صواريخنا المعروفة . واذا كان يجب علي ان اتقدم الى ابعد من ذلك ، كان يجب علي ايضا ان انتظر لارى ما اذا كانت هناك فرصة مؤاتية يمكن انا وغيري ان يعرف بها ، حتى اتأكد تماما من ان قواتي تملك الحماية الكافية . لقد حقق سلاحنا الجوي اعمالا بطولية . ولكن لو جازفت بجيشي عند سنوح اول فرصة مؤاتية دون اية حماية جوية ضد طيران العدو المتفوق ، لكان ذلك يعني انني كنت اضع على كاهل سلاح الجو المصري العبء واكلفه ما هو فوق طاقته .. لذلك التزمت بخطتنا . اعني خطتنا الاصلية . وقد اخذت بعين الاعتبارنشوءفترة من التريث لحشد القوات وكان من شأن فترة التريث المذكورة ان تتيح لي تقييم الاوضاع السائدة في ضوء ردود فعل العدو .. مع ذلك ، كان علينا ان نشن هجوما واسعا قبل ان تتاح الفرصة المناسبة وذلك لكي نخفف الضغط عن سوريا ... وعندما شعرت اننا قد نجحنا في حمل العدو على سحب قواته من الجبهة السورية .. فضلت الرجوع الى منطقة رؤوس جسورنا لأحتفظ بتماسك قواتنا .

كان المشير اسماعيل حذرا دون اي شك ــ وكان له كل العذر في ذلك ــ ولقد ساعد سلاح الطيران المصري في دعم العمليات البرية كلما دعت الحاجة الى ذلك . ولكن المشير اسماعيل كان يعلم بان سلاح طيرانه لا يمكنه التصدي لطائرات الميراج والفانتوم الاسرائيلية في المعارك الجوية دون المجازفة بتكبده خسائر فادحة . لهذا لم يكلفه مهمة انتزاع السيطرة الجوية فوق سيناء من الاسرائيليين . والظروف الوحيدة التي كان من الممكن ان تتيح له ذلك هي خسارة سلاح الطيران الاسرائيلي عددا كبيرا من طائراته في المراحل الاولى للهجوم العربي بحيث لا يعود في موقف يمكنه من الاحتفاظ بالسيطرة على الاجواء . وكان ذلك يعني ايضا التروي ليرى ما اذا كان الامريكيون سيتدخلون لتعويض اسرائيل على نطاق واسع بطائرات فانتوم وسكاي هوك وصواريخ تطلق من الجو ــ الى الجو .

فمهما يكن الامر ، كان هجوم ١٤ تشرين الاول سيء التوقيت ولو انه شن قبل ذلك بيومين او ثلاثة ايام لما كانت ضربات المدرعات الاسرائيلية موجعة بالقدر الذي كانت عليه في ذلك التاريخ . ولكان الاسرائيليون ايضا على درجة ادنى من الاستعداد ، ولأحرزت رؤوس الجسور المصرية تقدم بضعة كيلومترات اضافية في العموم . وهذا كل ما في الامر . غير ان القيام بشن هجوم عام حتى الممرات كان يعني تهديد نجاح الهدف السياسي الذي كان ينشده الرئيس السادات وبالتالي دفع الاميريكيين الى تقديم فيض وافر من الاسلحة الى اسرائيل . وهذا ما كان يبرر الحذر الذي التزمه المشير اسماعيل .

مساعدة الدولتين العظيمتين

قالت صحيفة الصاندي تايمز في احدى زواياها : « لقد قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل ضمانات في حالة نشوب حرب بان تعطيها جميع ما تطلبه من مساعدات عسكرية . واكدت هذه الضمانات حتى على تقديم المساعدات قبل ان تبدأ الاعتداءات ويبدو انه في الساعة الاولى من يوم ٦ تشرين الاول التقطت اجهزة الاستماع الاسرائيلية

والامريكية اخيرا نماذج الاشارات المرسلة بالراديو التي دلت بما لا يدع مجالا للشك على الاستعداد للهجوم . وقد اقترح الجنرال اليعازر ، رئيس الاركان الاسرائيلي بالحاح قيام سلاح الطيران بتوجيه ضربة وقائية ضد العرب ، حتى ولو لم تسفر تلك الضربة عن اي نتيجة كاسحة كتلك التي حققتها اسرائيل في عام ١٩٦٧ . وقال الجنرال اليعازر انه بالرغم من احتمال تكبد سلاح الجو الاسرائيلي خسائر فادحة ، فان مثل تلك الضربة قد تفسد على العرب على الاقل خطط الهجوم التي يعدونها . ولما كانت رئيسة الوزراء (السيدة) غولدا مئير تدرك نتيجة ردود الفعل العدائية في الولايات المتحدة اذا انتهجت اسرائيل ذلك المنهج ، فقد رفضت اقتراح الجنرال اليعازر . غير انها بعثت بطلب السفير الامريكي السيد كنيث كيتنغ واجتمعت به في الساعة السادسة صباحا . وتفيد الاخبار ان السفير قد حذر (السيدة) مئير من انه في حال اقدام اسرائيل على الاعتداء قد يجعل الرأي العام العالمي من الصعب على الولايات المتحدة ان تمد اسرائيل بالمعدات العسكرية . وقال ما معناه « انه اذا امتنعت اسرائيل عن توجيه الضربة الاولى ، كما اشارت الصحف فان السماح للعرب بان يقدموا البرهان الكافي على انهم هم الذين بدأوا بالعدوان ، سيخلق في الولايات المتحدة شعورا بان واجبها الادبي يلزمها بتقديم المساعدة العسكرية لاسرائيل».

ورغم ان التجاوب الاميركي في البدء (في ٧ تشرين الاول) للنداء الاسرائيلي كان سلبيا ، حيث ان الدكتور كيسنجر كان يؤكد بان الاميركيين كانوا يتوقعون انتصارا اسرائيليا على كل حال ، فلم يوافق الرئيس نكسون على تقديم عون مماثل للعون الروسي للعرب الا بعد ان اصبح جليا بعد يومين ان العرب قد احرزوا انتصارات كبيرة ، وان الروس كانوا يعتزمون مواصلة تزويد مصر بالاسلحة . (وهذا يعني دون شك تقديم مساعدة تتجاوز الترتيبات الاعتيادية القائمة بين وزارة الدفاع الامريكية وبين القوات الاسرائيلية بشأن تزويد اسرائيل بالاعتدة والسلاح . تلك الترتيبات التي تنص على اعادة القوات المسلحة الاسرائيلية ومدها بقطع الغيار والذخيرة وغيرها من الاعتدة العسكرية دون توقف . فكانت الامدادات في الواقع تتدفق لتسد احتياجات اسرائيل منذ اللحظة التي اندلعت فيها الحرب ، بما فيها الصواريخ ومجموعات مختلفة من المعدات الالكترونية التي تحتاج اليها طائرات فانتوم حتى تتمكن من مقاومة الخطر المحدق بها والكامن في صواريخ سام ـ ٦) .

وفي غضون ذلك ، قامت جماعات اليهود الامريكيين التي تمارس النفوذ والضغط في اروقة مجلس الشيوخ الامريكي في واشنطن بحملة ضغط ودعاية مبالغ فيها لتحمل المجلس على تأييد نقل امدادات كبيرة من الاسلحة الى اسرائيل . ولقد زعمت هذه الجماعات ان روسيا تقوم بمئة رحلة طيران يوميا بعد انتهاء اول اسبوع من الحرب . لكن وزارة الدفاع الامريكية اعترفت فيما بعد بان الجسر الجوي الروسي لم يكن كبيرا الى ذلك الحد كما كنا نتصور وقال : « ان التقديرات المعدلة هي ان الجسرالجوي الروسي كان يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ رحلة طيران في اليوم ، لكنه كان من المتعذر تعديل مجرى الامدادات العسكرية الامريكية الكبيرة التي كانت تنقل الى اسرائيل » .

فكانت تنطلق طائرات نقل ضخمة من طراز « هيركوليس » و « غالاكسي » من قواعد متفرقة في شتى انحاء الولايات المتحدة وذلك في مطلع الاسبوع الثاني من القتال ـ لتهبط كل خمس عشرة دقيقة طائرة في جزر الازور البرتغالية للتزود بالوقود قبل ان

تواصل رحلتها الى مطار اللد ـ تحمل ما لا يقل عن الف طن من المعدات العسكرية كل يوم . وقد قام طيارون امريكيون بقيادة سربين من طائرات فانتوم وعدد كبير من طائرات سكاي هوك الى اسرائيل . وكان يجري تزويد بعض تلك الطائرات بالوقود في الجو اما في هولندا او جزر ازور .

وحتى قبل ان يقر الكونغرس الامريكي قانون منح اسرائيل مساعدة تبلغ مليارين من الدولارات لشراء الاسلحة ،كانت المؤن والمعدات التي تلقتها في اعقاب اول اسبوع من القتال كافية لاقناع القيادة المصرية العليا بان سلاح الجو المصري عاجز عن انتزاع التفوق الجوي من سلاح الطيران الاسرائيلي . وتدل التقديرات العربية المتحفظة جدا بان اسرائيل خسرت في اول اسبوع من القتال نحو ١٥٠ طائرة . ولكن مؤونتها من الذخيرة قد انخفضت الى درجة كبيرة بحيث لم يعد لديها منها في ١٤ تشرين الاول ما يكفي الا لمدة اربعة ايام لتموين الاشتباكات المحدودة . ولكن بحلول الاسبوع الثاني من الحرب لم تكن اسرائيل قد استعادت مقدرتها على مواصلة القتال فحسب ، بل ان الشحنات الجوية التي تلقتها من الاسلحة اشتملت ايضا على معدات متطورة جدا كالقنابل التي توجه باشعة ليزر والصواريخ الدقيقة جدا المضادة للدبابات من طراز « تاو » التي كانت قد جربت بنجاح كبير في فيتنام . وبذلك اصبحت اسرائيل مجهزة تجهيزا افضل مما كانت عليه قبل الحرب بحيث حافظت على تفوقها العسكري ـ التكنولوجي .

وقد ادرك المشير اسماعيل ، الذي شعر انه مرغم على التريث ليتسنى له تقييم وضع اعادة تسليح اسرائيل ، قبل ان يقوم بمحاولة اي هجوم كبير ، انه كان محقا في ضرورة الابقاء على عملية بدر بما اسميناه « بالحرب الطاحنة » المقتصرة على المواقع المتقدمة الى مدى لا يتجاوز عشرين كيلو مترا من رؤوس الجسور المصرية . ويمكن معرفة اهمية توقيت اقامة الجسر الجوي الامريكي من وضع الامدادات العسكرية وكميات الذخيرة التي كانت متيسرة يوم السبت ١٣ تشرين الاول كانت سيئة الى درجة ان اسرائيل كانت مستعدة لقبول وقف اطلاق النار في مكان وجود القوات العسكرية . وكان من الجلي حينذاك انه بالرغم من ان الهجوم العربي قد صد فعلا ، بل وان القوات الاسرائيلية تقدمت في القطاع الشمالي ، فان القتال لا يمكن ان يتوقف بصورة سريعة ـ كما كانت دائما تتوقع الاذاعة الاسرائيلية ـ وتدل التقارير الواردة من القدس ان وضع الذخيرة كان خطيرا بنوع خاص وان مخزون بعض انواع ذخائر الدبابات قد انخفض لما يكفي يومين مع الامدادات من الولايات المتحدة عبر الطرق الاعتيادية . وقد ظهرت غولدا مئير على شاشة التلفزيون ذلك المساء لتعلن انه في حالة عرض العرب وقف اطلاق النار « سيجتمع مجلس الوزراء في مدى دقائق معدودة لاتخاذ قرار بهذا الشأن » .

وقد فهم المصريون من تصريح رئيسة الوزراء الاسرائيلية انه قد تقبل بوقف اطلاق النار شرق المواقع المصرية المتقدمة من القناة . ولكن المصريين تجاهلوا ذلك الموقف الاسترضائي وخسروا بذلك فرصة لن تتاح لهم مرة اخرى . ذلك لان الحرب كانت تسير سيرا جيدا بالنسبة اليهم مما حدا بهم الى مقاومة اغراء فوائد وقف الحرب في الشؤون الداخلية . فكانت قواتهم تتدفق عبر القناة لتقوم بدعم استراتيجية « الحرب الطاحنة » ـ اي استراتيجية الفريق الشاذلي . فحتى لو لم يكسب المصريون ارضا اضافية ، كانوا يحققون هدفا مرسوما ، بالرغم من الخسائر التي كانوا يتكبدونها :

الا وهو تدمير سلاح المدرعات الاسرائيلي . وقد علقت جريدة الاهرام على ذلك بقولها : « ان الهدف المباشر هو انزال افدح الخسائر الممكنة بالاسرائيليين » .

وينبغي الا يغيب عن اذهاننا هنا اعتبار التضامن العربي المتصاعد الذي ينبغي مراعاته ، لقد كان من الممكن ان يؤدي وقف اطلاق النار في هذه المرحلة الى استياء عدد من عواصم البلدان العربية . فالعراق دخل المعركة بكل قلب وقالب وكان على استعداد لان يلقي في ذلك الوقت بقوات اضافية في ساحة المعركة على الجبهة السورية ، اما الملك حسين فقد ارسل لتوه احدى افضل واقوى تشكيلاته العسكرية لمعاضدة السوريين ، بعد ان تردد لمدة اسبوع . ويصدق هذا القول ايضا على المملكة العربية السعودية التي دفعت بلواء الى ساحة المعركة وعلى المغرب الذي بعث بكتيبة اخرى وصلت الى سوريا .

كان الجسر الجوي الذي اقامه الروس في هذا الوقت قد تصاعد بصورة كبيرة . فكانت الطائرات العملاقة من طراز انطونوف ١٢ و ٢٢ تهبط في مطارات القاهرة ودمشق وبغداد محملة بالتعويضات الضرورية جدا من الاسلحة المستهلكة ، بما فيها عدد كبير من صواريخ سام ــ ٦ . اما على الصعيد الاقتصادي فقد اطلقت آنئذ الطلقة الاولى من حرب النفط . ففي يوم الخميس الواقع في ١١ تشرين الاول دعا الكويت الدول العربية الى اجتماع عاجل يعقد « للبحث في الدور الذي ينبغي ان يلعبه النفط في القتال»

وكان العرب جد متفائلين بشأن الاثر السياسي والاقتصادي الذي يمكن ان يخلفه تخفيض انتاج النفط . ولعل الغرض الرئيسي من وراء ذلك كان الضغط على الدول الاوروبية واليابان التي كان يتوقع ان تكون اكثر الدول تضررا من نتائجه وكذلك حمل الولايات المتحدة على الحد من المساعدة التي تقدمها لاسرائيل . غير ان ذلك بطبيعة الحال لم يحدث نظرا لان الولايات المتحدة كانت قد عزمت على تجاهل حلفائها في اوروبا والمضي قدما في تنفيذ سياستها في غرب اسيا على مسؤوليتها الخاصة . غير ان الاثر الفعال لاستراتيجية النفط على المدى البعيد كان من المحتم تقريبا ان يأتي اكله عندما يحين الوقت للتداول من اجل التوصل الى تسوية نهائية لقضية الارض المحتلة . هذا فضلا عن كونه عاملا مؤثرا جدًا في استمرار التضامن العربي .

وهكذا كان من الواضح ، اذن ، انه لم يحن الوقت بعد للحديث عن وقف اطلاق النار في تلك المدة وقد عارض الرئيس السادات نصيحة الزعيم السوفييتي الكسي كوسيجن لوقف القتال . وفي الساعة الرابعة من صباح يوم السبت ، طلب السفير البريطاني في القاهرة مقابلة الرئيس السادات ، بناء على طلب الولايات المتحدة ، ليتحرى مدى استعداد الرئيس السادات للحصول منه على موافقة وقف اطلاق النار وذلك على اساس وجود القوات العسكرية في اماكنها . غير ان الرئيس السادات رفض العرض حيث انه لم يكن قد اقتنع عندئذ بان اسرائيل قد انهزمت الى درجة كافية تحملها على الحضور الى مائدة المفاوضات للبحث في اجراء تسوية نهائية لقضية المناطق المحتلة .

الفصل التاسع

عملية الغزال

ان الصدمة التي المت باسرائيل من هول الانتصارات العربية في المرحلة المبكرة من الحرب فعلت الشيء الكثير لا لعلاج غرور القادة العسكريين فحسب ، بل وضعت حداً لميلهم لوضع افتراضات مبسطة حول اي حرب تقع في المستقبل ضد العرب . اذ كانت الانتصارات السهلة التي حققها الاسرائيليون في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ قد استدرجتهم الى الاعتقاد بان القتال في المستقبل سيجري باسلوب سهل مبني على اخذ زمام المبادرة ، والمسارعة الى تسديد الضربة الاولى ، ومطاردة العدو الهارب ، ومواصلة التوسع في « محيط مستسلم » . غير ان الهجوم العربي قوض كل تلك الافتراضات والاحلام : فكان العرب هم الذين سددوا الضربة الاولى ، وهم الذين راحوا يطاردون اعداءهم ، ولو في المعارك الاولى ، كما انسدت المنطقة في وجه الاسرائيليين بدل ان تستسلم .

لقد تصدعت الثقة التي وضعتها الحكومة الاسرائيلية في العسكريين الى درجة حملتها على اتخاذ خطوة لم يسبق لها مثيل باستدعاء ستة من كبار الجنرالات المتقاعدين الى الخدمة ، كان من بينهم رئيس الاركان حاييم بارليف ، والجنرال هود القائد السابق لسلاح الجو ، والجنرال اهارون ياريف رئيس الاستخبارات السابق . وكانت هذه الخطوة تعبر بجلاء عن استياء الوزارة الاسرائيلية من عدم كفاية رد فعل القوات المسلحة الاسرائيلية ضد الهجوم العربي . ولعل الفشل الكبير الذي لقيه الاسرائيليون كان في تنفيذ صد الهجوم في القطاع الجنوبي الذي تمخض في معظم معاركه عن نتائج مفجعة لاسرائيل ، حتى ان المصريين انفسهم فوجئوا بضعف ردود الفعل الاسرائيلية على جبهة القناة .

ولم تؤد المشاحنات التي وقعت بين الجنرالات الاسرائيليين في مركز قيادة القطاع الجنوبي الى رأب الثقة المصدعة . فكان الجنرال شارون لا يخفي ازدراءه بالجنرال المسالم غونين ، الذي كان قد حل مكانه قبل عدة اشهر من الحرب . ولم تكن نتيجة هذه المشاحنات في صالح اسرائيل . ولذلك عندما تلقت وزارة الدفاع اخبارها في الثامن من تشرين الاول ، تقدم الجنرال موشي دايان باقتراح استثنائي لحل المشكلة ، فاقترح بوصفه وزيراً للدفاع ، على الجنرال اليعازر رئيس الاركان ، بان يتبادل الجنرالان غونين وشارون منصبيهما . وقد تهيب الجنرال اليعازر من هذا الاقتراح غير المألوف وطار الى مركز القيادة الجنوبية ليجري تحقيقاً حول المشكلة ، ثم عاد منها وفي جعبته حل من وحيه الخاص . فقد اتضح له من التحقيق ان الجنرالين الاخرين في مركز القيادة الجنوبية افرام ادان وكلمان ماجن قد اخذا ايضاً يعارضان اوامر الجنرال

غونين . فقرر عند ذاك انه لا يمكن لا للجنرال شارون الطائش ولا للجنرال غونين المسالم ان يظلا في قيادة جبهة سيناء معاً . ولذلك فقد ارسل الجنرال بارليف ، الذي عينته رئيسة الوزراء غولدا مئير مؤخراً وزيراً للتجارة ، الى مركز القيادة الجنوبية . وعلى الرغم من ان مهمته الرسمية هناك « كانت مهمة خاصة » فقد تولى منذ ذلك الحين اتخاذ القرارت ولكن الجنرال غونين الذي سمح له بالبقاء في منصبه كان هو الذي يصدر الاوامر بالنيابة عن بارليف .

وقد جاء هذا الترتيب الجديد في اوانه لمنع الجنرال شارون من الاقدام على اي عمل طائش . فمنذ ان التحق شارون بمركز القيادة الجنوبية لم ينفك يدعو الى القيام بهجوم عبر القناة من اجل اعادة الامور الى سابق طبيعتها . وكان يقول انه اذا اعطي دبابات ومظليين ، فسيتمكن من ان « يدمر العدو في غضون ٤٨ ساعة » . بل لقد نقل عنه قوله انه حتى لو لم يسمح بذلك فسيقوم بتنفيذ هذه المهمة على مسؤوليته . فتطلب الامر عندها تدخل الجنرال دايان لينصحه بالعدول عن اتخاذ مثل تلك الخطوة ، غير ان الشكوك كانت قد ساورت الجنرال غونين من شارون ، فوضع وسيلة لاستراق السمع على شبكة خطوطه اللاسلكية ليتمكن من التقاط اية برقية قد يوجهها .

وعلى الرغم من ان الجنرال شارون كان له الفضل في تنفيذ الهجوم الاسرائيلي الجريء الذي احتل موطيء قدم في غرب القناة ، واعترف له بذلك الفضل ، فان فكرة هجومه لم تكن سوى احد نماذج التفكير العسكري الاسرائيلي الذي كان سائداً قبل حرب ١٩٧٣ . اذ كانت وزارة الدفاع الاسرائيلية تحتفظ دائماً في ملفات العمليات بخطط لمثل العملية التي نفذها الجنرال شارون وغيرها من خطط الهجوم المضاد عبر القناة .

وعندما كان الجنرال شارون على رأس القيادة الجنوبية ، انيطت به مهمة الاستقصاء والاعداد لمثل ذلك الهجوم . ولكن الصورة الاستراتيجية في يوم ٩ تشرين الاول في سيناء كانت تختلف عن اي صورة اخرى راودت مخيلة الاسرائيليين . فبالرغم من انهم تمكنوا في النهاية من وقف الزحف السوري في الجبهة الشمالية ، ومن املهم في دحر السوريين الى الوراء ، فان خسائرهم كانت جسيمة في الرجال والمعدات . ومعنى ذلك ان الوقت لم يكن وقت تفكير في القيام بهجوم رئيسي ضد المصريين .

ولقد تحدث الجنرال دايان في ٩تشرين الاول فقال :

« ان قواتنا المرابطة هناك متمركزة في حالة دفاعية ، وانها تقيم خطأ لصد الهجوم المصري الى حين تبدل الاوضاع في غضون الايام القليلة التالية . لقد سحبنا قواتنا من حصون خط بارليف ، لانه لا يمكننا الحفاظ على اتصال مستمر بها . ولذلك فقد تخلينا عن الخط . ولسنا اقوى من المصريين . اما التبجح بالتفوق الاسرائيلي والمبدأ السياسي والعسكري القائل بان اسرائيل اقوى من العرب ، وانه اذا تجرأ هؤلاء على شن حرب فسيلاقون هزيمة منكرة ، فلم يعد هناك من يستطيع اثباته . ونحن عاجزون الآن عن دحر المصريين وارجاعهم الى ما وراء القناة . وانا اشدد على كلمة الآن . » .

غير ان الموقف بدأ يتغير كثيراً لصالح الاسرائيليين في يوم الخميس الواقع في ١١ تشرين الاول .

لقد صدوا السوريين ودحروهم الى الوراء . مع ان المدرعات الاسرائيلية اخفقت في اختراق خطوطهم ، لكنهم تكبدوا خسائر في الدبابات كانت من الجسامة بحيث لم يعد

يمكنهم شن هجوم رئيسي قبل مضي مدة لا يستهان بها من الوقت .

اما في الجنوب ، فقد استولى المصريون على القنطرة واخذوا يتمركزون في خنادق دفاعية ، ويخرجون منها في دفعات روتينية ليشتبكوا اشتباكات قتالة مع المدرعات الاسرائيلية .

غير ان المعارك اخذت تنحصر في المناطق المتاخمة لرؤوس الجسور المصرية ، وكان المصريون يتكبدون خسائر لا يستهان بها ولكنها كانت على وجه العموم آخذة في التناقص . وكانت المشكلة الاستراتيجية الرئيسية التي واجهت القيادة الاسرائيلية العامة هي ما اذا كان بمقدور الاسرائيليين ان يعدوا رجالا وعتاداً الى درجة كافية تتيح لهم مواصلة الحرب لمدة طويلة . غير ان الدلائل الواردة من الولايات المتحدة كانت تدعوهم الى التفاؤل ومن هنا فقد بدأوا يرون ان الوقت قد حان فعلا لاعطاء الجبهة المصرية الافضلية وللبدء في التفكير بشن هجوم هناك . ولئن بدأت الاحـوال تتحسن ، فقد كانت القيادة الجنوبية الاسرائيلية ما برحت ترزح تحت عبء الهزيمة النكراء التي منيت بها قواتها المدرعة التابعة للواء ١٤ بقيادة الكولونيل ريشيف في معركة الفردان . فمن اصل ما مجموعه ٢٥٠ دبابة قبل وقوع المعركة ، لم تبق لدى هذا اللواء سوى ٩٠ . لهذا لم يعد لديه الباع الطويلة ليجابه بها مجموعات المشاة التي كانت تطلق الصواريخ المضادة للدبابات وتتقدم فيما وصفه ريشيف « بهجوم يزحف ببطء » .

وكانت خطط عملية عبور القوات الاسرائيلية القناة قد اعدت منذ وقت بعيد . غير ان الجنرال بارليف لم يكن بعد قد قرر السماح للجنرال شارون بالانطلاق في هجومه . فقد رأى ان مثل ذلك الهجوم قد يكون سابقاً لاوانه ويتسم بالتهور في مثل هذه الظروف . ولكن في ١١ تشرين اول قرر الاسرائيليون في النهاية التقدم الى الامام وكان كل شيء قد جهز منذ ١١ تشرين الاول . ولقد شاهد المراسلون الصحفيون الذين اكتظت بهم الطريق المؤدية الى جنوبي العريش ارتالا من الشاحنات الهندسية المحملة بمعدات الجسور والعوامات . وكانت القوات الاسرائيلية قد قامت بعمليات استكشاف من الجو وبواسطة رجال الكومندوس في الضفة الغربية .

وقبل ان يقرر الجنرال بارليف الهجوم ، كان يحتاج الى ضمانات بان للهجوم حظاً معقولا من النجاح . فلم يسلم كما فعل الجنرال شارون كالديك المتباهي ، بأن المقاومة المصرية ستضمحل قبل ان يبدأ في الهجوم . فقد تراءى له ان الخطر الرئيسي كان يمكن في مرحلتين : قد تتعرض القوات الاسرائيلية خلال المرحلة الاولى في مكان العبور الى هجوم مضاد من الضفة الشرقية تقوم به عناصر الجيش المصري الثاني .

اما في المرحلة الثانية ، فقد تتعرض هذه المرحلة الى هجوم مضاد مركز تقوم به الوحدات الاحتياطية التابعة للقيادة العامة في القاهرة والتي اتخذت مواقع لها في الضفة الغربية ، عندما يتم انشاء رأس الجسر ولكن قبل ان تصل التعزيزات . وقبل ان يقرر رئيس الاركان الاسرائيلي اطلاق العنان لفورة الجنرال شارون ، كان لا بد له من ان يضمن نوعاً من التدابير الوقائية خلال تلك المرحلتين .

وقد وفرت نتيجة المعركة المدرعة التي وقعت في ١٤ تشرين اول للجنرال بارليف الضمان الكافي الذي كان ينشده . ذلك ان الخسائر المصرية كانت فيها كبيرة بحيث تركز اهتمام الجيش الثاني على المنطقة التي تجري فيها المعارك . وعندئذ قامت القوات الاسرائيلية بشن عدد من الهجمات المدرعة في المنطقة لتجتذب انتباه الجيش الثاني الى

تلك المنطقة . ومن المحتمل ايضاً ان تكون صور الاستطلاع التي التقطتها الطائرات الامريكية التي تحلق على علو شاهق قد اكدت ما كان يشتبه به جهاز الاستخبارات الاسرائيلي دائماً ، من ان مصر لم تكن تتخذ تدابير وقائية على طول الشواطىء الشرقية والغربية المتاخمة للبحيرات المرة . ومن هنا فقد قرر بارليف ان ساعة اطلاق يد شارون قد ازفت .

ولعل هناك عاملا آخر دفع الجنرال بارليف الى الانتظار حتى ١٥ تشرين الاول . فعلى الرغم من تبجح شارون بانه يمكنه ان يقهر الجيش المصري في مدى ٤٨ ساعة ، شعر الجنرال اليعازر انه يواجه عدواً جديداً اصبح يحارب بعزم ويعرف كيف يستخدم اسلحته المعقدة ، وكان في قيادته ضباط احسنوا القيادة . فمهما احرز الجنرال شارون من نجاح في اقامة رأس جسر فانه في النهاية لن يمكن الدفاع عنه ما لم تتأكد التزامات الولايات المتحدة بشأن امداد اسرائيل بالسلاح والذخيرة . وبحلول ١٥ تشرين الاول وصل الى تل ابيب ما يفيد بان الولايات المتحدة قررت تقديم كل المساعدة الى اسرائيل . وكانت القيادة الاسرائيلية قد عرفت في ذلك الوقت ايضاً ، ان الدولتين العظميين ستفرضان وقف اطلاق النار في القريب العاجل والمعقول ان الاسرائيليين قرروا اغتنام الفرصة المتاحة .

الثغرة في خطوط الدفاع

بحلول ١٥ تشرين الاول ، كان الجيش المصري قد انجز تعزيز قواته في الضفة الشرقية الى درجة كبيرة بالرغم من عدم اكتمال قوة الالوية الخمسة . غير ان النكسات التي اصابت القوات المصرية في اليوم السابق عرقلت مؤقتاً برنامج حشد القوات . وفي الوقت ذاته صعد سلاح الجو الاسرائيلي غاراته تمهيداً لتنفيذ عملية الغزال وهي عبارة السر التي اطلقها الجنرال شارون على هجومه ، فاخذت تحدث ثغرات في شبكات صورايخ الدفاع المصرية من طراز سام ـ ٢ و ٣ . ومع ذلك ، كانت الروح المعنوية مرتفعة بين الجنود المصريين على الرغم من ان القوات التي تمركزت عند رؤوس الجسور كانت في حالة مؤقتة من اختلال النظام بسبب الحاجة الى اعادة تجميع وتنظيم الجيشين الثاني والثالث .

ومن سوء الطالع ان الجيش الثاني ترك مؤقتاً دون قائد خلال هذه المرحلة الحرجة من المعركة . ففي ١٣ تشرين اول ، اخلي قائد اللواء مأمون لاصابته بنوبة قلبية ، ولم يعين بديل له الا في ١٥ تشرين الاول حين حل محله اللواء عبد المنعم خليل .

وقد حدث اختلال اخطر في الضفة الغربية لم ينتبه اليه احد ، ولكن كان من الصعب الحصول على معلومات رسمية من المصادر المصرية لمعرفة الاسباب الحقيقية لوجود الثغرة الدفاعية التي نشأت الى الغرب من البحيرات المرة غير ان السبب الاساسي لوجودها يعود الى انه منذ بدء عملية بدر لم يوجه انتباه كاف للدفاع عن منطقة البحيرات المرة .

وكنا قد اوضحنا من قبل ان الحدود المتداخلة بين الجيشين المصريين الثاني والثالث قد جرى فصلهما بخط يقع عبر البحيرة الكبيرة المرة ـ مما استوجب اقتسام المسؤولية عن الدفاع عن تلك المنطقة ـ وقد ادى هذا الاجراء ، بالاضافة الى اعتقاد القيادة

المصرية بانه ليس من المحتمل ان يقوم الاسرائيليون بمحاولة عبور القناة من خلال مساحة عريضة من البحيرات ، الى سحب قوات الجيشين تدريجياً الى العمق نحو منتصف محوريهما شمالي وجنوبي منطقة البحيرات . ويستدل من المعلومات التي امكن تجميعها ان الجناح الايمن للجيش المصري الثاني قد ارسى قواعده على الطرف الجنوبي للقناة بين بحيرة التمساح والبحيرة الكبيرة المرة (مقابل الدفرسوار) . ورابط في تلك القواعد لواء من الفرقة ١٦ . اما الجناح الايسر للفرقة السابعة التابعة للجيش الثالث ، فقد ارسى قواعده على الشاطىء الشمالي للبحيرة الكبيرة المرة . وقد تركت الثغرة بين الجيشين والبالغ طولها ٢٥ كيلو متراً ، تحت حراسة طابور مدرع يقوم باعمال الدورية ، وذلك بدون تحصينات دفاعية كافية على الرغم من انشاء نقاط مراقبة على بعض السفن الراسية في البحيرة الكبيرة المرة منذ ان اغلقت القناة في سنة ١٩٦٧ .

اما الضفاف الغربية من البحيرات ، فقد عهد بحراستها الى لواء كويتي والى لواء عين جالوت التابع لجيش التحرير الفلسطيني . وكان اللواء الكويتي جيد التدريب ومزوداً باسلحة ومعدات حديثة . اما اللواء الفلسطيني فلم يكن مسلحاً تسليحاً جيداً ولكن كلا اللوائين احتفظ برباطه جأشه وحارب الاسرائيليين بضراوة رغم الخسائر الجسيمة التي تكبدها . (استشهد قائد اللواء الكويتي في ساحة المعركة) . ولكن يمكن توجيه الانتقاد الى القيادة المصرية العليا من حيث التكتيك القيادي والرقابة والمواصلات لتخصيصها بقوات عربية غيرمصرية للدفاع عن هذا القطاع التكتيكي المهم الفاصل بين الجيشين . اذا كان ينبغي عليها الا تتكل على القدرة القتالية وحدها للبت في هذه المسألة في ظروف كهذه لان عامل السرعة وفعالية وسائل المخابرات من العوامل الجوهرية في حالات الطوارىء. والذي حدث ان التقصير في هذه النواحي كان السبب الحقيقي للنكسات التي منيت بها القوات العربية عندما وضع الجنرال شارون عملية « الغزال » موضع التنفيذ .

عملية الغزال

كان الجنرال شارون القائد الاسرائيلي الذي عين مسؤولا عن القطاع الاوسط في جبهة سيناء بعد اندلاع الحرب وهو رجل أهوج ومتهور الى درجة اللامسؤولية . ومع ذلك ، فان له شخصية ساحرة اكسبته شعبية سريعة لدى جنوده . وفي حرب ١٩٥٦ ،كان على رأس لواء من المظليين قام بهجوم على ممر متلا . وكان في اغلب الاحيان لا يكترث كثيراً بالاوامر الصادرة اليه مما ادى الى وقوعه ذات مرة في كمين . وعلى الرغم من انه خـرج من ذلك الكمين موفقاً في نهاية المطاف الا ان تهوره ادى الى تكبد قواته خسائر فادحة . وفي مرة ثانية في سنة ١٩٦٧ عندما كان يقود « اوغدا » في اوساط سيناء ، اقدم على هجوم متسرع على ام قطن بالقرب من ابو عجيلة مما عرض قواته لتكبد خسائر جسيمة .

وقد عين في سنة ١٩٦٩ ، قائداً للجبهة الجنوبية حيث لم ينقطع عن توجيه الانتقاد العلني للاستراتيجية الدفاعية لخط بارليف . وكان يدعو لقيام قواته بدور اكبر من حيث الدفاع والهجوم في منطقة القناة . وعندما تجاوزته الحكومة الاسرائيلية في تعيين رئيس للاركان في تموز ١٩٧٣ استقال ودخل معترك السياسة كبطل في جناح الاحزاب

اليمينية المتطرفة .
وكان استدعاؤه ثانية الى الخدمة يوم اندلعت الحرب السبب الرئيسي الذي ادى الى المشاحنات التي وقعت بين الجنرالات الاسرائيليين . فهو متهور يتمرد على كل قائد يعلوه رتبة ،ولم يستطع ان يتحرر من هذه المساوىء في العمليات التي جرت اثناء المعارك الاولى في القطاع الاوسط . فكان منذ البداية يجهر بانتقاد استراتيجية تل ابيب بسبب اعطائها الافضلية للجبهة السورية .
وكان يدعو عوضاً عن ذلك الى القيام بهجوم مضاد مباشر ضد المواقع المصرية المتقدمة قبل ان يحل الوقت الذي يتمكن المصريون فيه من ان يستجمعوا قواتهم .
وكان ، بالاضافة الى ذلك ، هو الذي امر الكولونيل ياغوري بقيادة « اوغدا » والقيام بذلك الهجوم المضاد الفاشل .
وفي معركة لاحقة كان عليه ان يأمر بتراجع سريع للقوات التي كانت تحت قيادته امام هجوم الدبابات المصرية ، ولكنه تعثر في تنفيذ ذلك التراجع بحيث سمح للقوات المصرية باجتياح مركز قيادته الرئيسي .
فلا غرو اذن ان تنظر اليه القيادة الاسرائيلية بعد كل تلك النكسات التي تسبب بها نظرة لا تتسم بالتقدير الكبير . ومن هنا فقد كان لدى الجنرال بارليف سبب وجيه يدعوه الى التردد في اطلاق يد شارون للقيام بعملية الغزال . لكن ما ان حل يوم الاحد ١٤ تشرين الاول حتى انقلبت الاحوال وتبدل ميزان القوى تبدلا ملموساً . وكان المشير اسماعيل قد امر بتحرك القسم الاكبر من الفرقة المدرعة ٢١ من مواقعها الاحتياطية في الضفة الغربية الى خطوط امامية عبر القناة تمهيداً للهجوم الكبير ، وبحلول مساء اليوم الحاسم ، تعين عليه ارسال تعزيزات اضافية مدرعة على جناح السرعة الى الضفة الشرقية لتعويض الخسائر التي مني بها في معركة ذلك اليوم . وهذا ما هيأ لعملية الجنرال شارون حظاً اوفر من النجاح . وفي النهاية سمح الجنرال بارليف لشارون بعبور القناة في صباح يوم ١٥تشرين الاول .
كان الجنرال شارون اثناء توليه مهام قيادة القطاع الجنوبي يملك الوقت الكافي للتخطيط والاعداد من اجل تلك المهمة . حتى انه انتقى مكان العبور سلفاً ، وعينه في منطقة تقع في شمال الطرف الشمالي للبحيرة الكبيرة المرة . وكان من قبيل محض الصدفة الاستثنائية انه لم يكن داخل ثغرة المواقع الدفاعية المصرية في الضفة الغربية فحسب بل كان يقع ايضاً في منطقة عملت فيها القوات الاسرائيلية لاقامة المنشآت الدفاعية في خط بارليف ، بحيث تحولت الى شاطىء رملي يبلغ عمقه نحو خمسين متراً .
وكان الموقع مكوناً من الرمال المتماسكة المخلوطة بالحصى الصغيرة التي يصعب تمهيدها . وكان المصريون قد حاولوا قبلا اختراق ذلك الجدار الرملي الصلب ، لكنهم تركوه وفضلوا عليه موقعاً آخر بعد ان وجدوا ان العمل فيه صعب . اما الشيء الذي غاب عن انتباه المصريين فهو ان جنود الجنرال شارون عملوا في السنين الماضية في تلك المنطقة الشرقية من القناة على تضييق عرض الجدار الرملي في مواقع مختارة هناك ووضعوا عليها قطعاً من القرميد تحمل علامة « مدخل » بل انهم مهدوا ساحة في الصحراء لكي يتاح للآليات المرور عبرها . وشقوا طريقاً تفضي اليها من موقع الطاسة في الشمال ومن ثم الى ضفة القناة نفسها في الجنوب . ومن الواضح ان المصريين لم يتنبهوا الى اهمية تلك الاستعدادات بعد ان احتلوا المنطقة فيما بعد .

وبعد ان اصبح الجنرال شارون قائداً للقطاع ، في ٩تشرين اول ، بعث بدوريات استطلاعية الى المنطقة بل حتى وعبر القناة ليستقصي مواقع الدفاع المصرية والقوات المرابطة فيها . ولا بد انه كان قد ادرك في وقت مبكر ان المنطقة تقوم بحراستها قوات ضئيلة بحيث لا تشكل عملية العبور بحد ذاتها امراً صعباً . اما المشكلة الرئيسية فقد تكون في نقل قواته من موقع قرب الطاسة ، عبر القوات المصرية المرابطة على جانبي الموقع على الطريق المفضية من الطاسة الى البحيرة الكبيرة المرة ، الى ضفة القناة في غفلة عن المصريين وينشىء جسراً ويعبر في الليلة ذاتها ويعزز موقعه . وكان الهدف من العملية في تلك المرحلة ، كما جاء في الخبر الذي نشرته صحيفة الصاندي تايمز تحت عنوان « فريق استطلاع » ، محصوراً في احتلال موطىء قدم على الضفة الغربية (لاستغلاله في المفاوضات اللاحقة قبل ان يفرض وقف اطلاق النار) . واذا تمكنت قوات الجنرال شارون على احسن تقدير من السيطرة على الطريق الغربية الممتدة بمحاذاة القناة والمفضية الى بور سعيد ، فقد يمكنها بذلك ان تطوق قوات الجيش الثالث في الضفة الشرقية او تقطع عنه المواصلات والامدادات .

وكانت قوات شارون التي قامت « بعملية الغزال » تتكون مما يلي :

القوات التابعة لمركز القيادة في موقع الطاسة

كان قوام هذه القوات « اوغدا » تتألف من خليط من المظليين والقوات المدرعة ومجموعات مهندسين بقيادة الميجور جنرال ادان وهي القوة التي انيطت بها مهمة العبور .

وكان هنالك ثلاث مجموعات مدرعة يتألف كل منها من حوالي كتيبتين يدعمها المشاة ، وكان لدى كل مجموعة من ٩٠ الى ١٠٠ دبابة . ولواء مدفعية يشتمل على بطاريات مدفعية ثقيلة تسير بقوتها الذاتية .

اما مخطط « عملية الغزال » فكان على النحو التالي :

المرحلة ــ ١

كان من المقرر ان يقوم لواء مدرع واحد بالتظاهر بانه يقوم بهجوم من شمالي موقع الطاسة ويتجه غرباً نحو خط دفاع الجيش الثاني .

المرحلة ــ ٢

كان ينبغي على مجموعتين مدرعتين ان تخترقا الصحراء على محور واسع نحو الجنوب ، ثم تتقدما الى « الثغرة » القائمة في مواقع الدفاع المصرية . وكان من المقرر بعد ان تصلا الى الطريق الواقعة شرقي القناة ان تتجها الى الشمال .

المرحلة ــ ٣

كان ينبغي على لواء واحد ان يتجه نحو الغرب ، عند مفترق الطريق جنوبي نقطة

العبور ، تكون مهمته تأمين سلامة الموقع بينما تستمر المجموعات الاخرى متقدمة شمالا لتعمل على صد القوات التابعة للجيش الثاني ، وتحاول دفعها الى شمال مثلث الطريق بقدر المستطاع . ويتقدم قسم من اللواء الثاني باتجاه الشمال الشرقي الى نحو منتصف طريق الطاسة ليعمل على زحزحة القوات المصرية التي تجاوزت الطريق من مواقعها ويحافظ على فتح الطريق بغية مرور القوات الى القناة .

المرحلة ـ ٤

تقوم القوات التابعة لقيادة الجنرال آدان بعبور القناة .

البرنامج الزمني لمراحل العمليات

المرحلة ـ١ : تبدأ في الساعة الخامسة مساء .
المرحلة ـ ٢ : تبدأ في الساعة السادسة مساء .
المرحلة ـ ٤ : تبدأ في الساعة الحادية عشر ليلا .

وقد اقتضت الضرورة ان تكون الخطة معقدة . وكان يجب عمليا تنفيذ جميع مراحلها في ساعات الليل . وكان اصعب ما فيها مرحلتها الثانية التي استوجب خلالها قطع مسافة ٣٠ كيلو متراً في الليل عبر كثبان الرمال ، على الرغم من عدم توقع اي اعتراض في « الثغرة » .

وقد جرى تنفيذ المرحلة الاولى من الخطة في الساعة الخامسة مساء ١٥ تشرين الاول . وقد اجتذبت المعركة التي دارت فيما بعد قوات الاحتياط المصرية المدرعة الى موقع الطاسة كماكان منتظراً . وتحت غطاء التمويه الذي جرى في المرحلة ـ ١ ، جرى تنفيذ المرحلة ـ ٢ باختراق المدرعات الاسرائيلية صحراء سيناء لتصل الى طريق القناة بالقرب من الطرف الجنوبي للبحيرة الكبيرة المرة . ثم استدار الطابور شمالا في الطريق نحو مثلث الطرق ، وبناء على الخطة المرسومة ، انفصلت هناك الالوية ولو انها كانت قد تأخرت بعض الوقت عن الموعد المحدد لذلك .

وما ان قطع اللواء الذي اتجه شمالا بعض الكيلومترات من مثلث الطرق حتى واجهته نيران مصرية حامية نشبت على اثرها معركة مريرة دامت اكثر من يومين بين كر وفر . اما القوة التي اتجهت شرقاً ، فقد توقفت عن التقدم وفتحت الطريق المؤدية إلى موقع الطاسة ، بينما شرعت القوة المخصصة لعبور القناة بالتحرك من موقع الطاسة جنوباً . وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، فتأخرت القوات عن الموعد المحدد لها نحو ساعتين . وبعد ذلك ظهر القمر فتنبهت القوات المصرية في هذا الوقت ، ولكن بعد ان لم يبق لها امل في الاسراع نحو القناة .

وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حضر الجنرال شارون الى ضفة القناة مع افراد طاقمه التكتيكي ومجموعة من الحرس تقدر بنحو ٢٠٠ رجل . ولما وجد ان القوات المعدة للعبور لم تصل بعد الى نقطة العبور ، فضل بتهوره المعهود ان يعبر بنفسه مع مجموعته الصغيرة . فنزل الجميع في قوارب من المطاط واخذوا يجذفون الى الضفة الغربية حيث اقام شارون مركز قيادته .

وحدث ان دارت معركة مشوشة خلفهم عندما شقت مجموعة مصرية من المشاة المسلحة بالصواريخ طريقاً لها الى منطقة مثلث الطرق . فاشتعلت المنطقة كلها بوابل القنابل واحتدمت المعارك على طول قوس الخط المصري من ضفة القناة حتى موقع جبهة الطاسة . وقد اخر ذلك كثيراً عربات المهندسين المحملة بالعوامات والجسور العائمة في عبورها الطريق من الطاسة الى الجنوب ، حتى انها لم تكن قد وصلت بعد الى نقطة العبور عند بزوغ الفجر . وكانت عمليات تمديد العوامات لم تبتدىء بعد ـ ناهيك ببناء جسر كامل واحد . ولم تتمكن الموجة الاولى من عبور القناة لتنضم الى القوة الصغيرة التي كانت قد عبرتها مع الجنرال شارون الا حتى الساعة التاسعة من صباح ١٦ تشرين اول . وكان قوام الموجة المذكورة ٢٠٠٠ جندي من المظليين والمشاة ونحو ٣٠ دبابة .

وبحسب جميع الاعراف الرسمية كان ينبغي ان تعتبر « عملية الغزال » فاشلة . ففي صباح اليوم الثاني من يوم العبور لم يكن هناك ما يصح ان يسمى جسراً . وبدلا من ان تكون فرقة باكملها قد عبرت الى الضفة الغربية ، لم تتمكن من العبور الى هذه الضفة سوى قوة صغيرة الحجم تقدر بأقل من لواء . زد على ذلك ان بعض المعدات التي كان يراد استخدامها في اقامة الجسور قد اعطبت بفعل النيران التي انصبت عليها . ولم يستطع الاسرائيليون اقامة الجسر حتى ذلك المساء . وكان في امكان قوة مصرية ضئيلة من احتياطي الضفة الغربية ان تبيد قوات شارون لو شنت هجوماً مضاداً عليها في اي وقت من ذلك اليوم . غير ان حظ شارون كان سعيداً بنوع خاص في ذلك اليوم لسبب عجيب وهو انه لم تبدر اية ردة فعل مطلقاً من القوات المصرية المرابطة في الضفة الغربية .

وكان الجنرال شارون قد ادرك ان قوته الصغيرة الحجم في الضفة الغربية ستكون عديمة النفع اذا واجهت هجوماً مضاداً عليها . ولذلك بدلا من ان يوقف تقدمه ويحفر الخنادق بانتظار معركة دفاعية خاسرة ، اصدر الاوامر الى قوته لتنقسم الى مجموعات صغيرة تتألف كل منها من دبابتين او ثلاث بحماية المظليين والمشاة وتتفرق بين الاشجار كمجموعات مغيرة . وادعى انه بهذه الطريقة دمر في ذلك اليوم ستة مواقع لصواريخ ارض جو محدثاً بذلك ثغرة في مظلة الدفاع الجوية فوق تلك المنطقة مما اتاح في وقت لاحق لسلاح الطيران الاسرائيلي ان يدعم موقع رأس الجسر الاسرائيلي عندما قامت القوات المصرية في اليوم الثاني بشن هجوم مضاد شديد عليه .

وعلى الرغم من القتال العنيف المشوش الذي نشب قبل تلك الليلة والغارات الجوية في الصباح على مواقع صواريخ سام ، لم يكتشف مركز قيادة الجيش الثاني ان عملية عبور كبير كانت في طور التنفيذ او اذا كان مركز القيادة المصري قد شعر بذلك ، فلا بد انه قصر عن ابلاغ النبأ سواء الى مركز القيادة العام او الى تشكيلات الجيش الثالث . اما المشير اسماعيل فقال انه لم يسمع شيئاً عن تلك العمليات الا بعد ظهر يوم ١٦ تشرين الاول ، بل ان الخبر الذي تلقاه في ذلك الوقت افاد بان قوة صغيرة مؤلفة من سبع دبابات عبرت القناة .

ومن الصعب ان نتفهم كيف تكللت « عملية الغزال » بالنجاح في تحقيق تلك المفاجأة التامة . فاذا اعتبرنا انه كان قد صرف النظر عن القيام بشن هجوم مضاد على القوات الاسرائيلية التي عبرت القناة ، فلا بد ان يكون مركز القيادة في القاهرة قد شعر

بالتهديد الكامن . والواقع ان القوات الاسرائيلية القت القبض في وقت لاحق على ضابط مصري شاب تابع للمخابرات في اركان الجيش الثاني . وكان هذا الضابط يحمل تقييماً لكيفية امكان محاولة الاسرائيليين عبور القناة من تلك الناحية وقد كاد ذلك التقييم ينطبق تماما مع الخطة العملية التي نفذها الجنرال شارون .

ومن هنا يتضح ان خط المواصلات بين القوات المتقدمة والقيادة المصرية العامة لم يكن فعالا وسلسا كما يجب . ان جيشا كالجيش المصري تمرس طويلا في الفنون الحربية ، بما في ذلك الفنون الدفاعية التي اصبحت من عقائده اثناء حرب الاستنزاف ، ينبغي ان تتوفر لديه اجراءات ادارية . ولكن الذي حدث ان تقاريره كانت ترسل بصورة كتابية بدلا من ارسالها بالهاتف او بواسطة ضباط ارتباط . كما ان تقييم الاستخبارات كان يجري في اوقات محددة خلال اجتماعات تعقدها لجان بدلا من ان يكون هناك جهاز استخبارات يعمل طوال الليل والنهار كل يوم كما تتطلبه مقتضيات الحرب السريعة الحركة . ولعل هذا هو سبب اختلال عمل جهاز الاستخبارات المصرية في قناة السويس .

وهناك ايضاً انتقاد لكثرة تسلسل جهاز القيادة المصري مع تبنيه اجراءات شكلية اكثر مما ينبغي تعرقل سلاسة الاتصالات غير الرسمية التي يقف في وجهها اعتبارات الرتب والاقدمية .

وقد تولى المشير اسماعيل قيادة العمليات من غرفة العمليات الفسيحة التي كانت مقامة تحت سطح الارض في مكان ما خارج القاهرة ، ويقال انه دخل غرفة القيادة المذكورة المحصنة في اليوم الثاني من تشرين الاول ولم يخرج منها حتى يوم السادس عشر ، عندما كان عليه ان يحضر اجتماعاً يعقده مجلس الشعب . فاذا تعين على جميع القواد والضباط ان يتبعوا النظام الروتيني نفسه ، فيمكن عندها لاي امرىء ان يتصور السهولة التي تصبح بها الاجراءات القيادية آلية وغير فعالة . ويوضح هذا بالتأكيد سبب تعثر البت في المسائل الجوهرية كانتداب المفوضين بالمسؤولية وقيام الضباط الصغار باتخاذ المبادرات اللازمة اثناء تغير الاوضاع بسرعة اذ لا تنجح العمليات السريعة الحركة الا في الاحوال التي يقوم القواد وكبار الضباط اثناءها باجراء زيارات مطردة للتشكيلات العليا والدنيا . ومن هنا كانت ردود الفعل تجاه الهجوم الاسرائيلي بطيئة ومتقطعة . وقد جرى اولا نقل كتيبة من رجال الكومندوس المصريين من بلبيس الى المنطقة بطائرات الهليوكبتر ــ لكن تبين ان هذه القوة كانت غير كافية لصد العدو على الرغم من القصف الكثيف الذي دعمتها به طائرات الميغ المصرية ــ ولم يكن في الامكان شن هجوم مضاد اوسع وانظم من الضفة الغربية ضد رأس الجسر الاسرائيلي لان معظم الدبابات الاحتياطية كانت قد عبرت القناة في الضفة الشرقية ولم يتمكن الجيش المصري الا في ليلة ١٦ / ١٧ تشرين الاول من شن هجوم مضاد منسق تنسيقاً ملائماً قامت به القوات المرابطة في الضفة الشرقية ــ وعلى الرغم من تأخر هذا الهجوم فقد كاد ينجح في عزل موقع العبور الاسرائيلي .

كانت قوة من المشاة المصريين ما زالت تقاوم في مثلث الطرق . وفي ليل ١٦ تشرين الاول ، شن الجيش الثاني هجوماً من الشمال بينما بعث الجيش الثالث بقوة لنجدة قوة المشاة المصرية على طول الضفة الشرقية من البحيرات . واستمرت معارك الدبابات طوال الليل . ولم يكن في الامكان التوصل الى نتيجة حاسمة في تلك المعارك المشوشة

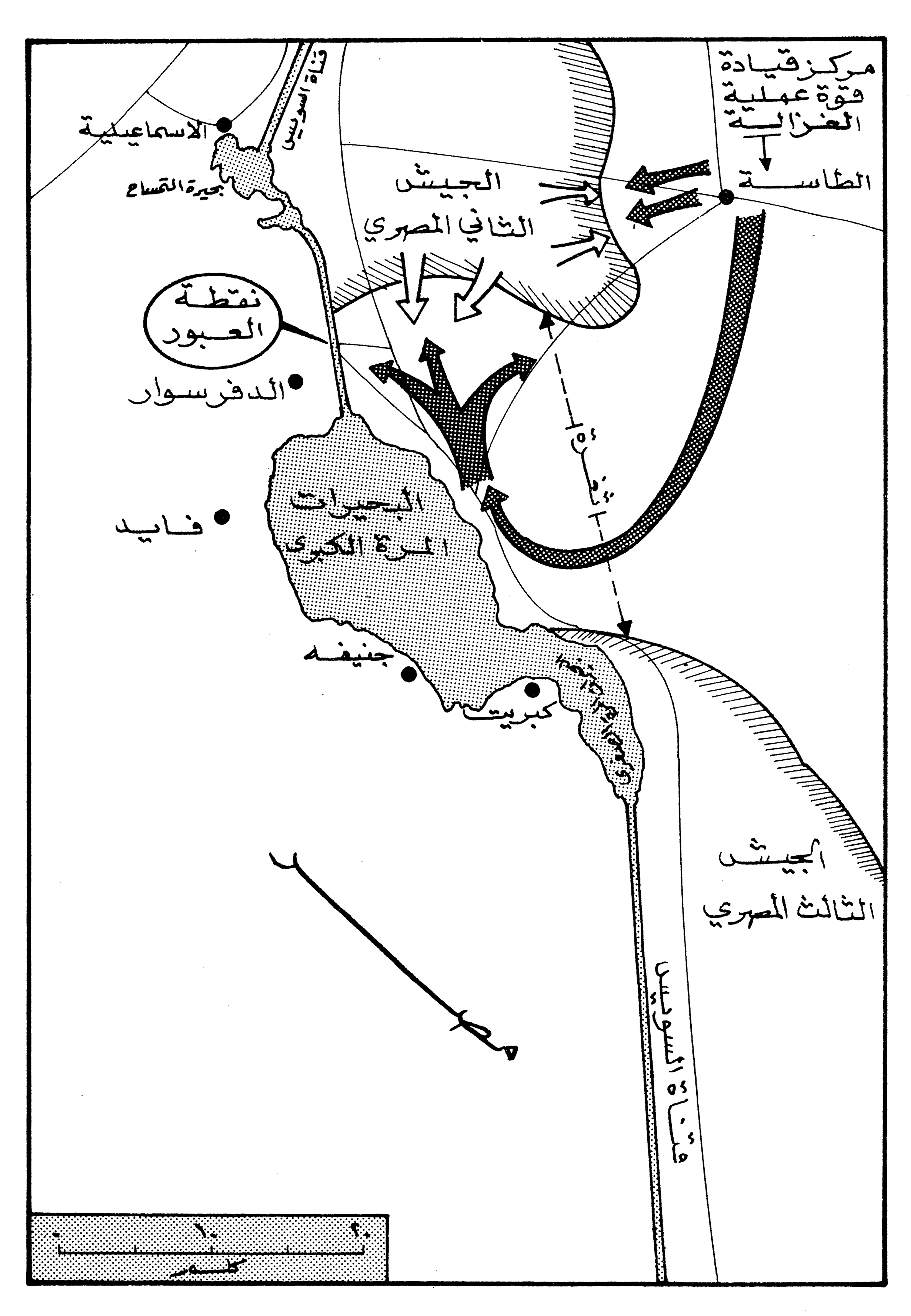
التي وقعت اثناء الظلام . غير ان المصريين تمكنوا بالفعل من منع الاسرائيليين من اقامة جسرهم فوق القناة . وكانت الآليات الاسرائيلية تواجه صعوبات كبيرة في المرور عبر منطقة المعركة الى ضفـــة القناة . ولم يتمكن الاسرائيليون من تعزيز رأس الجسر في الضفة الغربية الا من خلال نقل الدبابات والجنود عن طريق المعديات وكان ذلك يجري ايضاً تحت نيران المدفعية المصرية الكثيفة الامر الذي اوقع بالاسرائيليين عدداً كبيراً من الاصابات .

وظلت المعركة دائرة حتى بزوغ الفجر وعندها دخل سلاح الطيران المصري المعركة بقوة . (بحيث بلغ مجموع طلعات طائراته ١٥٠٠ طلعة قبل انتهاء المعركة وذلك بغية تقديم الدعم للقوات البرية) . غير ان سلاح الطيران الاسرائيلي عندئذ بادر الى دخول المعركة ايضاً بقوة مغتنماً الفرصة التي اتاحها الجنرال شارون بالثغرة التي احدثها في مظلة الصواريخ في الضفة الغربية واخذ سلاح الطيران الاسرائيلي يسيطر تدريجياً على الاجواء فوق رأس الجسر . وبعدئذ انقلبت اوضاع القتال البري بشكل واضح لصالح الاسرائيليين . اما القوة المصرية التي كانت صامدة تقاوم قرب الطريق فقد ارتدت على اعقابها ـ واخيراً اصبح في امكان الاسرائيليين ارسال معدات اقامة الجسور الى ضفة القناة . مع ذلك استمرت المدفعية والطائرات المصرية في قصف الاسرائيليين لانهاك مجموعات المهندسين ، ولكن بحلول بعيد ظهر ١٧ تشرين الاول تمكن الاسرائيليون من اقامة الجسر في مكانه واخذت قوات الجنرال ادان تعبر الى الضفة الغربية .

وشن اللواء خليل ، الذي عين حديثاً قائداً للجيش الثاني ، هجوماً مضاداً في ليلة الاربعاء ضد رأس الجسر ولكن لم يتمكن من تجميع مدرعات كافية لذلك الهجوم المضاد بحيث لم يكن الهجوم فعالا ولم يكن قد تقرر بعد سحب المدرعات من الضفة الشرقية حتى يوم ١٨ تشرين الاول : ولكن قوات الجنرال ادان كانت في ذلك الوقت قد انتشرت في المنطقة .

وبسرعة بالغة اعاد الجنرال ادان تجميع قواته وقسمها الى اربعة طوابير من المدرعات والمظليين ، وبينما كان اللواء المدرع الرابع عشر ، بقيادة الكولونيل رشيف يسرع شمالا نحو الاسماعيلية ، واتجه طابور ثان جنوباً نحو بور سعيد على جانبي الطريق الشرقية للقناة ، بينما راحت قوة صغيرة تزحف عبر الصحراء باتجاه القاهرة . وكان الهدف المباشر لكل ذلك هو تدمير قواعد الصواريخ ارض جو وغيرها من المنشآت العسكرية والاندفاع من ثم نحو المناطق الخالية لاحتلال اراض والادعاء بالاستيلاء عليها .

ومن الصعب اعادة تقييم سير العمليات التي نفذها الطرفان وذلك بسبب الادعاءات المضادة التي صدرت عن كل منهما بشأن انتهاكات وقف اطلاق النار بعد يوم التاسع عشر من تشرين الاول . فقد جازفت قوات اسرائيلية كبيرة بعبور الضفة الغربية من القناة ، وكانت خطوط مواصلاتها تواجه تهديداً من القوات المصرية على الضفة الشرقية . وكانت القوات الاسرائيلية تواجه مطلبين متناقضين : الحفاظ على تماسك رأس الجسر وعلى الممرات في الضفة الشرقية ، قبل ان يتطور التهديد المصري ويشكل خطراً يتعذر معه الدفاع عن مواقع القوات الاسرائيلية ، واستغلال نجاح عملية العبور قبل فوات الاوان . وتدل الاحداث التي تتابعت فيما بعد ان القيادة العليا الاسرائيلية ، بعد ان علمت بان الرئيس المصري قد وافق على وقف اطلاق النار ؛ انتهزت الفرصة التي



منطقة البحيرات

اتاحتها هذه التطورات لتعمل على التوفيق بين المطلبين المتناقضين المذكورين . والى ان اصبح وقف اطلاق النار الاول نافذاً ، كان هدف العمليات الرئيسية للقوات الاسرائيلية يتركز على مقاومة الجيش الثاني ـ في ضفتي القناة . ولم تتمكن القوات الاسرائيلية من المجازفة في القيام بهجوم كبير نحو الجنوب بهدف قطع المناطق الواقعة وراء الجيش الثالث والاندفاع نحو ميناء السويس الا بعد ان اصبح وقف اطلاق النار نافذ المفعول في يوم ٢٢ تشرين اول .

وفي اليوم ذاته ، اذاعت محطة الاذاعة الاسرائيلية ما ترجمته ما يلي :

تلقينا في هذه اللحظة تقريراً من منطقة القناة من مراسلنا اسحق فللر يفيد بانه في الساعة ١٨,٥٢ (كان تنفيذ وقف اطلاق النار قد سرى مفعوله) لم يتوقف المصريون عن اطلاق النار في القطاع الاوسط وانه حتى الساعة ١٩,٠٥ كانت المدفعية المصرية ما زالت تطلق نيران مدافعها . وتسمع طلقات المدافع المضادة للطائرات ومدافع الهاون .. »

وكانت الاذاعة الاسرائيلية قد تلقت تقريراً آخر من جبهة القناة ، قبل بضع دقائق تفيد ما يلي :

« يقول اسرائيل كارتين من سيناء انه في الساعة ١٩,١٢ كان القطاع الاوسط من القناة هادئاً حسبما ارى . ولم يدل حتى ذلك الوقت اي قائد باي تصريح . لكن يبدو لي ان عدم سماع اي شيء هو دليل حسن . وبما اننا سمعنا اصوات المعركة بكل قساوتها في بضع الساعات الماضية ، فان الجو الان هادىء تماماً . فاذا لم نسمع اي شيء بعكس ذلك من اي قائد في المنطقة فعندها يبدو ان وقف اطلاق النار قد اصبح ساري المفعول . » .

وقد اجمع المراسلون الاسرائيليون في تقاريرهم من الجبهة الجنوبية ان المدافع المصرية فتحت بالفعل نيرانها في منطقة الدفرسوار بعد الموافقة على وقف اطلاق النار ، لكن المصريين لم يشنوا اي هجمات مضادة او يقوموا باي تحركات للقوات . ولو اننا استعرضنا الوضع لرأينا ان جميع الدلائل كانت تشير الى ان المصريين كانوا ينوون فعلا التقيد بوقف اطلاق النار لكن الاوامر صدرت لبطاريات المدفعية لكي تطلق فقط في حالة الدفاع ضد استمرار الانتهاكات الاسرائيلية . وفي وقت باكر من اليوم ذاته كان المشير اسماعيل قد اذاع نداء من القاهرة الى الجنود يفيد ما يلي :

« اصدر القائد الاعلى للقوات المسلحة امراً بوقف اطلاق النار ابتداء من اليوم الموافق للثاني والعشرين من تشرين الاول ، الساعة ١٨,٥٢ بتوقيت القاهرة ، اذا تقيد العدو بوقف اطلاق النار في هذا الوقت . وانا اقف باعجاب في هذه البرهة وانحني بخشوع وولاء امام رفاقنا الذين سقطوا شهداء او جرحى وانني اشكر جميع افراد القوات المسلحة للجهود والدماء التي بذلوها .. وفي الوقت ذاته آمر الجميع ان يتخذوا جميع التدابير والاحتياطات الكفيلة بتأمين سلامة وحداتهم من العدو . ويجب ان تبدأ التشيكلات العسكرية فوراً باعادة تنظيم وحداتها في مواقعها . » .

غير ان الامر لم يكن على هذا الشكل بالنسبة الى القوات الاسرائيلية ـ باعتبار ان الاوامر التي اصدرتها تل ابيب كانت متغايرة ـ فخلال ليل ٢٢ / ٢٣ تشرين الاول ، بعد الليلة التي تلت وقف اطلاق النار ، شن الجيش الاسرائيلي عدواناً متعمداً باتجاه الجنوب نحو مدينة السويس ودفع بقوات اضافية عبر القناة بغية تعزيز قواته في منطقة

الدفرسوار . وقال المصريون ان قوة من الكوماندوس الاسرائيلية عبرت خليج السويس الى المرتفعات الواقعة فوق الادبية مما مكنها من ان تطوق السويس من ناحيتين .

وفي اليوم الثالث والعشرين من تشرين الاول انفجر القتال بعنف من جديد . واذ ادرك المصريون ان الاسرائيليين خدعوهم ، قاموا بشن بضعة هجمات مضادة وقام سلاح الطيران بالاغارة مراراً على المواقع الاسرائيلية ـ غير ان الضرر كان قد وقع ـ وقد التزم المصريون بوقف اطلاق النار دون ان تتوفر لهم الاداة التي يمكن ان تمكنهم من ذلك كوجود مراقبين محايدين او قوة دولية . وبذلك دفعوا ثمناً باهظاً لسذاجتهم . وفي الوقت الذي تم فيه وقف اطلاق النار الثاني في ٢٤ تشرين الاول الذي فرضته هذه المرة القوات التابعة لهيئة الامم المتحدة ، كانت السويس وكذلك الجيش الثالث في الضفة الشرقية قد عزلا .

الفصل العاشر

وقف اطلاق النار

كان واضحا منذ اللحظة التي اندلع فيها القتال في غرب آسيا ان مصالح الدولتين العظميين ستتبلور بشكل هائل في ميدان المعركة . فلم تكن اي منهما تريد الحرب ، لكن عندما شن العرب هجومهم لم يكن امام روسيا من خيار سوى ان تقدم لهم مساعدة مادية وسياسية كاملة . وفي خلال الايام الثلاثة الاولى لنشوب الحرب اقامت روسيا جسرا جويا ضخما لنقل المعدات الحربية ، وخاصة الى سوريا . وكان الزعماء الروس يدركون في الوقت ذاته ما قد يتمخض عن الحرب في غربي آسيا من تهديد للوفاق بين الدولتين .

اما الامريكيون فقد انتظروا مدة اطول ليقرروا مدى المساعدة التي يمكن ان يلتزموا بها نحو اسرائيل . ويعود السبب الرئيسي في ذلك الى تردد الدكتور كيسنجر في تقديم مساعدة عمياء غير مشروطة الى اسرائيل . والظاهر ان كيسنجر اقنع الرئيس نكسون بان الامر ينطوي على مشكلتين رئيسيتين : الاولى انهاء العمليات الحربية باسرع وقت ممكن . والثانية وضع حد للقتال بشكل يهيء للولايات المتحدة ان تساهم مساهمة رئيسية في ازالة الاسباب التي ادت الى نشوب الحروب الاربعة بين العرب واسرائيل في غضون الخمس والعشرين سنة المنصرمة وربما كان الامريكيون يفضلون ان يمنى الاسرائيليون بهزيمة محدودة تكون مؤثرة بحيث تحد من غطرستهم وتحملهم على الانفتاح اكثر نحو التفاوض حول الاراضي المحتلة . وتكون من الخطورة بحيث ترضي كبرياء العرب ولكن ليس كذلك بحيث توفر دعاية الانتصار لموسكو او تؤدي الى اسقاط حكومة المسز مائير . وهذه هي الاسباب التي جعلت تجاوب الامريكيين لنداء اسرائيل من اجل تزويدها باسلحة حديثة سلبيا في البداية . اما حقيقة الامر ، فهي ان الدكتور كيسنجر كان يشعر بان اسرائيل كانت ستربح الحرب . وقد اعترف بذلك الى الرئيس السادات في وقت لاحق قائلا : « عندما سمعت انكم قمتم بشن الهجوم ، قلت لنفسي : يا لهم من مساكين هؤلاء العرب ، ستدمى انوفهم مرة اخرى وسوف يضعف ذلك اكثر فرص احلال السلام » .

وكان الدكتور كيسنجر يدعو آنئذ الى وقف اطلاق النار على اساس الرجوع الى خطوط ١٩٦٧ ــ وقد بدا هذا الاقتراح للعرب غير معقول . والواقع انه عندما اخبر السفير البريطاني في القاهرة الرئيس السادات بان المساعي تجري في مجلس الامن لفرض وقف اطلاق النار على تلك الخطوط ، استاء الرئيس السادات كثيرا حتى انه رفض مجرد البحث في مثل هذا الاقتراح .

فالبنسبة الى الرئيس السادات كان الاساس الوحيد الذي يمكن القبول به لوقف اطلاق النار هو القرار ٢٤٢ الذي يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة .

ولم يداخل واشنطن شعور بالذعر الا في اليوم الرابع من نشوب الحرب ، اي بتاريخ ٩ تشرين اول ، حين ورد على العاصمة الامريكية سيل من التقارير التي تتحدث عن الانتصارات العربية .

وفي الوقت نفسه كانت التقارير المبالغ فيها عن المساعدة الروسية الى العرب وعن حث بريجينيف العلني للدول العربية الاخرى كالعراق والجزائر ، لتهبا لنجدة مصر وسوريا في الحرب قد وفرت دعما لنفوذ اليهود والامريكيين في اروقة الكونغرس الامريكي . وكان المتحدث باسم اليهود آنئذ السناتور جافيتس من ولاية نيويورك الذي كان يمارس الضغط على البيت الابيض للموافقة على امداد اسرائيل بالمعدات الحربية بطريق الجو .

وفي التاسع من تشرين الاول ، وافق الرئيس نكسون على تقديم المساعدة العسكرية لاسرائيل وبعد وصول هذه المساعدات تحسنت بسرعة الاوضاع العسكرية الاسرائيلية تحسنا ملموسا . وبحلول الحادي عشر من تشرين الاول تقهقر السوريون الى ما وراء خطوط وقف اطلاق النار سنة ١٩٦٧ ، اما على جبهة قناة السويس ، فقد اصبح واضحا ان المصريين لا يعتزمون القيام بهجوم رئيسي في سيناء . ومع كل ذلك كان الدكتور كيسنجر واثقا من ان في امكانه اقناع المسز مائير بقبول وقف اطلاق النار في المواقع التي كانت قائمة في ذلك الحين ، واكد السفير السوفيتي في واشنطن انه يمكن اقناع الرئيس السادات بقبول وقف اطلاق النار على هذا الاساس .

واقترح الدكتور كيسنجر في الثاني عشر من تشرين الاول على بريطانيا ان تتقدم باقتراح لوقف اطلاق النار الى مجلس الامن بدعم من الولايات المتحدة وروسيا معا . غير ان بريطانيا ترددت في التقدم بمثل هذا الاقتراح لا ن سفيرها في القاهرة اشار بوضوح الى ان الرئيس السادات كان يعارض مثل هذا الاقتراح . وكان قد اجتمع بالرئيس مرة ثانية فلم يجد اي تبدل في تصميمه على عدم البحث في اي اقتراح لوقف اطلاق النار الا اذا كان جزءاً من تسوية بعيدة المدى مبنية على أساس القرار رقم ٢٤٢ . فالح الدكتور كيسنجر على الحكومة البريطانية ان تطلب من سفيرها ان يفاتح الرئيس السادات مرة اخرى في ذلك فتلقى الجواب الحازم السلبي ذاته وفي اثر ذلك رفضت الحكومة البريطانية مشروع كيسنجر باعتباره غير عملي حتى لا تعرض علاقاتها بمصر الى الخطر .

وكانت اوضاع الامدادات العسكرية حتى يوم الرابع عشر من تشرين الاول تدعو الى قلق بالغ في اسرائيل . فعلى الرغم من ان الاوضاع قد استقرت على الجبهة السورية وتحسنت الصورة الاستراتيجية هناك ، فان المعارك الضارية في سيناء اذاقت القيادة الاسرائيلية العليا مقدما مرارة طعم عامل الاستنزاف الذي من شأنه ان يكون ذا اثر بالغ في اسرائيل فيما اذا وقع المزيد من المعارك على النطاق نفسه . صحيح ان الامدادات الاميركية قد بدأت بالفعل تصل الى اسرائيل بطريق الجو ، ولكن النقص الحاد في مخزون مختلف انواع الذخيرة كان من غير المحتمل ان يتحسن تحسنا ملموسا ، لان معدل نفقات اسرائيل كان من المحتم ان يستمر في تجاوز معدل تجديد مخزوناتها من الذخيرة .

واذ واجهت المسز مائير هذه الصعاب وجدت نفسها مضطرة لان تبدل الشروط التي كانت قد وضعتها سابقا من اجل وقف اطلاق النار . فظهرت على شاشة التلفزيون في ذلك المساء لتعلن عن استعدادها للجلوس حول مائدة المفاوضات « خلال دقائق » اذا عرض العرب وقف اطلاق النار على الخطوط التي كانت قائمة آنذاك . ومع ذلك ، رفضت مصر العرض بالنصح الروسي في قبوله حين كان العرب ما زالت لهم اليد الطولى في القتال .

غير ان الدولتين العظميين شعرتا بأن من الواضح ان الوقت قد حان لكي تفرضا وقف اطلاق النار قبل ان تستحفل الامور وتصبح مصالحهما مهددة بالخطر فرأتا ان من واجبهما اتخاذ اجراء لوقف اطلاق النار في غضون الايام الثلاثة او الاربعة القادمة . غير ان الحكومة الاسرائيلية كانت قد ادركت ذلك جيدا ولعل ذلك كان احد العوامل الذي حدا بها الى اعطاء الجنرال شارون الضوء الاخضر للقيام بمجازفته بعبور القناة وفي هذه الاثناء اي في السادس عشر من تشرين الاول تلقت المسز مائير نبأ نجاح شارون . فاصبح موقفها متصلبا اكثر بكثير من الموقف الذي كانت تتخذه قبل يومين فقط حول وقف اطلاق النار . وفي خطاب القته امام البرلمان الاسرائيلي ، اتت على ذكر التكهنات الدائرة حول وقف اطلاق النار في الصحف العالمية وفي اروقة هيئة الامم المتحدة . ولكنها اكدت انه « لم يتقدم اي زعيم سياسي على الاطلاق بعرض على الحكومة الاسرائيلية » . وفي الوقت نفسه كشفت امام البرلمان عن نوايا حكومتها ازاء هذا الامر . وكان مما قالته ما معناه :

« يبدو ان المصريين والسوريين لم ينهزموا حتى الان انهزاما ما يكفي لكي يبرهنوا عن رغبتهم في وقف اطلاق النار . والذي حدث هو ان بعض زعماء العرب السياسيين قد اطلقوا تصريحات سخيفة هنا وهنالك تدعو الى وقف اطلاق النار بشرط ان ننسحب الى الخط الذي كان قائما في الرابع من حزيران لعام ١٩٦٧ .. وانني على يقين بعد ان نجحنا في دفع اعدائنا الى شفير الانهيار ، من ان ممثلي مختلف الدول لن يتطلعوا الى التطوع لانقاذ مهاجمينا من خلال وقف اطلاق النار . » ومن ثم انتقلت المسز مائير في خطابها الى شكر الامريكيين للدعم الذي قدموه لاسرائيل ، وتحدثت عن بطولة الشعب الاسرائيلي واكدت بذلك ان اي محادثات ستجري في نهاية المطاف بشأن وقف اطلاق النار ان تشتمل على اعادة الاسرائيليين ومن ثم كشفت امام اعضاء البرلمان عن الدافع الذي كان يحدوها الى اتخاذ مثل هذا الموقف المتصلب فقالت :

« في هذه اللحظة بالذات تقوم وحدة من قوات الدفاع الاسرائيلية بعمليات عسكرية في الضفة الغربية من القناة . »

اما الرئيس السادات فكان قد اوضح في وقت مبكر من اليوم نفسه امام مجلس الشعب المصري شروطه الخاصة لوقف اطلاق النار . فقال ان الاهم من كل شيء هو ان العرب سيصرون على استعادة جميع الاراضي التي احتلتها اسرائيل في سنة ١٩٦٧ ، والاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وتنفيذ قرارات هيئة الامم المتحدة حول قضية الشرق الاوسط ولن يكون العرب على استعداد للحضور الى مؤتمر سلام دولي للتوصل الى تسوية عربية ــ اسرائيلية ما لم تنفذ هذه الشروط . وحرص الرئيس السادات على القول ان العرب لا يهدفون الى تدمير اسرائيل ولكنهم في الوقت ذاته ليسوا على استعداد لتقبل وعود مبهمة تكون عرضة لتأويلات مختلفة واضاف قائلا : ان كل ما اردناه وما زلنا

نريده هو العدل وليس الحرب .
وكان قد وصل في اليوم ذاته الى القاهرة المستر كوسيجين للقيام بزيارة تستغرق ثلاثة ايام وكان الغرض من هذه الزيارة اقناع الرئيس المصري بالموافقة على وقف اطلاق النار . وفي هذا اليوم بالذات كان الجنرال شارون قد اقام رأس جسر على الضفة الغربية من القناة . ولئن لم يكن الرئيس المصري على علم بالمدى الذي توغلت فيه القوة الاسرائيلية في الاراضي المصرية ، فلا بد من ان يكون رئيس الوزراء السوفيتي قد تلقى معلومات دقيقة حول ذلك الموضوع من مصادر الاستخبارات الروسية . ويقال انه في اثناء تلك الليلة التي كان مجتمعا فيها الى الرئيس المصري في مبنى السفارة السوفييتية ، قدم اليه الملحق العسكري صورا تبين الموقع الاسرائيلي المتقدم التي كان القمر الاصطناعي الروسي كوزموز التقطها . واوضح الملحق السوفيتي للرئيس السادات حقيقة الخطر الكامن في ذلك التوغل الذي احرزه شارون في مواقع الدفاع المصرية الضعيفة .
ومع ذلك ، فانه يتعذر علينا ان نقرر بالضبط متى ادرك الرئيس المصري للمرة الاولى خطورة الحالة في قطاع البحيرات المرة . فحتى السادس عشر من تشرين الاول كان مقتنعا بان قواته كانت منتصرة في الحرب من الناحية العسكرية والسياسية على السواء . صحيح ان الهجوم الذي شنته القوات المصرية اخيرا لم يتكلل بالنجاح غير ان الاسرائيليين كانوا يلتزمون جانب الدفاع في صحراء سيناء في حين كانت الجسور المصرية في الضفة الشرقية امينة وسالمة تماما ولا يستبعد ان يكون الرئيس السوفيتي قد مارس على السادات ضغطا شديدا ليحمله على القبول بوقف اطلاق النار حيث انه كان من الصعب على السادات ان يرضخ فجأة للامر الواقع ويقبل بحقيقة انقلاب الاوضاع مابين عشية وضحاها رأسا على عقب وقيام الاسرائيليين بعبور القناة ، بحيث اصبحوا يشكلون تهديدا لا للاسماعيلية ومنياء السويس فحسب ، بل وربما لمشارف القاهرة ذاتها .
وبناء على معلومات الاستخبارات الامريكية ، فان الاسرائيليين انفسهم كانوا قد فوجئوا بمدى ما احرزوه من النجاح وقد اكد هذا الجنرال شارون نفسه في وقت لاحق . فالعمل الذي بدأ كغارة جريئة او عملية استكشافية انقلب فجأة بقوة دفع وحركة بارعة الى هجوم متشعب ضد مواقع الدفاع المصرية في منطقة القناة . وفيما كانت المجموعات الاسرائيلية المغيرة تنطلق من الموقع المتقدم عن الدفرسوار ، اخذت الحكومة الاسرائيلية تدرك ان في استطاعتها ان تقلب الميزان العسكري بصورة دراماتيكية لصالحها . لقد كاد هجوم شارون « ان يستنفد اغراضه » ولكنه مهد الطريق امام انتصار كبير كان قمينا بأن يعطي اسرائيل اليد الطولى في المحادثات الدبلوماسية .
وقد حدث قبل ثلاثة ايام فقط ، اي في الثالث عشر من تشرين الاول ، ان تمكن الدكتور كيسنجر من اقناع ابا ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، بالقبول « بتنازلات كبيرة » في محادثات وقف اطلاق النار ، ومن ذلك على سبيل المثال انسحاب اسرائيلي مرحلي في سيناء يصل اولا حتى خط الممرات ومن ثم الى ابعد من ذلك ــ على ان تكون المنطقة الفاصلة منزوعة السلاح . حتى ان الامريكيين والروس اجروا بعض المحادثات حول من سيضطلع بمهمة مراقبة المنطقة المنزوعة السلاح . ومع ذلك عندما تمكن

المستر كوسيجين من اقناع الرئيس السادات بقبول وقف اطلاق النار عل اساس انسحاب اسرائيلي جزئي ، واقامة منطقة منزوعة السلاح ، واعادة فتح قناة السويس بمعونة دولية ، عاد الاسرائيليون الى التشبث بالمطالب التي كانوا قد تقدموا بها قبل اشتعال نار الحرب ، اي الى رفض الشروط المسبقة للمفاوضات ، مع الاشتراط بان تكون المفاوضات مباشرة .

وكان قد اصبح واضحا في واشنطن انه اذ اصرت اسرائيل على شروطها تلك ، فان ذلك سيؤدي الى صدام بين الدولتين العظميين . وكان الدكتور كسنجر تقريبا منذ اندلاع الحرب على اتصال وثيق مع السفير السوفيتي في وشنطن اناتولي دوبرينين . واسفر هذا الاتصال الدبلوماسي الوثيق عن نتائج طيبة لصالح السلام . وبعث زعيم الحزب الشيوعي السوفيتي ليونيد بريجينيف برسالة عاجلة الى الدكتور كيسنجر يطلب اليه فيها الحضور الى موسكو لاجراء محادثات مع القادة السوفيات . وفي الوقت ذاته اعلن مجلس الامن القومي في واشنطن بانه تلقى تقارير تفيد بان قوات روسية محمولة جوا قد استنفرت وهي على اهبة التحرك ـ وفهم من هذه التقارير ان الروس كانوا على وشك التدخل في مصر فيما اذا كان الهجوم الاسرائيلي في الضفة الغربية يشكل تهديدا مباشرا للقاهرة . ولهذا فقد اسرع ، الدكتور كيسنجر في الذهاب الى العاصمة السوفيتية مع وفد من مستشاريه .

وقد ادت المحادثات التي عقدت في موسكو بين العشرين والحادي والعشرين من تشرين الاول الى اتفاق بوقف القتال وتبني اقتراح مشترك بوقف اطلاق النار يهدف الى تسوية دائمة . وقد اتفقت الدولتان العظميان على مواصلة كل منهما تزويد الدول الصديقة لها بالمعدات وعلى تنفيذ وقف اطلاق النار في الثاني والعشرين من تشرين الاول : وكذلك على قيام الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفتي بتبني قرار مشترك يدعو الى وقف اطلاق النار .

وفي مساء الحادي والعشرين من تشرين الاول بعث الزعيم بريجينيف ببرقية الى الرئيس السادات يعتقد بانها تضمنت تأكيدات بانسحاب القوات الاسرائيلية من المناطق المحتلة اذا قبلت مصر بوقف اطلاق النار .

وقد سارع مجلس الامن الدولي الى الموافقة على قرار بوقف اطلاق النار في الساعات الاولى من يوم الثاني والعشرين من تشرين الاول ، بدون معارضة احد اعضائه . (مع امتناع الصين عن التصويت) . وقد دعا القرار الى وقف الأعمال الحربية على ان يتبع ذلك مباشرة مفاوضات سلام مبنية على اساس القرار رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ . ووافقت كل من مصر واسرائيل على قبول وقف اطلاق النار ، غير ان سوريا والعراق وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية رفضت التقيد بالقرار . وبالرغم من قبول الاردن بالقرار ، فقد اعلن ان قواته ستبقى تحت امرة القيادة السورية . وقد جرى الاتفاق على ان تشترك مصر واسرائيل بقبول تنفيذ القرار حتى ولو لم تقبل سوريا وغيرها من الدول العربية بذلك القرار .

وكان من المقرر ان يسرى مفعول القرار في الساعة ٥٢ :٦ من مساء الثاني والعشرين من تشرين الاول . فقد صدرت الاوامر ، كما تقدم ذكره ، الى القوات المصرية لتتقيد به . غير ان اسرائيل انتهزت الفرصة لاستغلاله لمصلحتها في محاولة لقطع خطوط المواصلات عن الجيش المصري الثالث عبر القناة وعزل بور سعيد . وقد صدر في

القاهرة بلاغ رقم ٥٥ صباح الثالث والعشرين من تشرين الاول يفيد بما يلي :
« دفعت القوات الاسرائيلية ببعض وحداتها الى الامام واحتلت بعض المواقع بين قواتنا ، خاصة في الجبهة الغربية من القناة . واستخدمت سلاح طيرانها لضرب قواتنا ، مما يضطرنا الى استخدام القوة لضرب القوات الاسرائيلية التي احتلتها بعد وقف اطلاق النار .»

واستمر القتال طوال ليلة الثالث والعشرين من تشرين الاول : وفي خلال ساعات النهار « وسعت القوات الاسرائيلية رقعة المنطقة التي كانت قد احتلتها اثناء الليل .. من طريق السويس ـ القاهرة في الجنوب الى كيلو متر واحد جنوبـي طريـق الاسماعيلية ـ القاهرق من الشمال .» (هذا ما اذاعـه راديو اسرائيل في ٢٣ تشرين اول) . وقد زعم ان المنطقة الجديدة التي احتلتها القوات الاسرائيلية تشتمل على ثلاثة مطارات مصرية وان القوات الاسرائيلية اصبحت على بعد نحو مئة كيلو متر من القاهرة .

وقد شرحت المسز مائير في خطاب القته امام البرلمان الاسرائيلي ، في الثالث والعشرين من تشرين الاول ، موقف اسرائيل من وقف اطلاق النار ، من حيث انها يجب ان تطبق ايضا على« الاعمال التي تقوم بها القوات غير النظامية ضد اسرائيل من اراضي الدول التي تقبل بوقف اطلاق النار وانها « يجب ان تضمن منع الحصار والتدخل ضد الملاحة الحرة في مضيق باب المندب » وان تتضمن تبادل الاسرى . وكما اشار راديو القاهرة في اذاعته ان « تحليل تصريح غولدا مائير يدل على انه ، بينما تدعي رئيسة الوزارة الاسرائيلية بانها قبلت بقرار وقف اطلاق النار فانها لم تفه بكلمة واحدة حول تقيد اسرائيل بالقرار او تنفيذها الفعلي له » .

وفي يوم الثالث والعشرين من تشرين الاول أقر مجلس الامن قرارا آخر . بالاشارة الى القرار المتخذ في اليوم السابق (رقم ٣٣٨) ترجمته ما يلي :

(١) يؤكد مجلس الامن قراره بوقف جميع انواع اطلاق النار وجميع الاعمال الحربية فورا ويحث قوات الجانبين على العودة الى المواقع التي كانت تحتلها حين اصبح وقف اطلاق النار نافذ المفعول .

(٢) يطلب المجلس من السكرتير العام اتخاذ الاجراءات لارسال مراقبين تابعين لهيئة الامم المتحدة فورا للاشراف على التقيد بوقف اطلاق النار بين القوات الاسرائيلية وجمهورية مصر العربية ، مستخدما لتنفيذ هذا الغرض رجال الامم المتحدة الموجودين الان في الشرق الاوسط واولهم اولئك الموجودون الان في القاهرة .

وقد واصلت اسرائيل بكل استخفاف عدم اكتراثها بهذه القرارات واستمرت تعمل على التقدم داخل المناطق المصرية . وفي الرابع والعشرين من تشرين اول ، انطلق طابور اسرائيلي نحو السويس بغية الاستيلاء عليها قبل ان يفرض مرة ثانية وقف اطلاق النار ، غير انـه رد على اعقابه بعد ان تكبد خسائر جسيمة . وقالت مصر ان الجنود الاسرائيليين كانوا يمنعون مراقبي الامم المتحدة من الوصول الى المواقع التي خصصت لهم . وفي اليوم نفسه طلبت مصر من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي ارسال جيوش لمراقبة وقف اطلاق النار . وكاد هذا يؤدي الى قيام مجابهة رئيسية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

فقد ايد المستر جاكوب ماليك ، المندوب السوفيتي لدى هيئة الامم المتحدة ، طلب

مصر ارسال الجنود قائلا انه كان له « مبرر تام » وزاد على ذلك بقوله ان الولايات المتحدة هي المسؤولة عن حمل اسرائيل على التقيد بوقف اطلاق النار . وفي اليوم ذاته قدمت السفارة السوفيتية في واشنطن مذكرة عنيفة اللهجة الى الدكتور كيسنجر يفترض انها انطوت على تهديد بارسال قوات سوفييتية الى مصر ما لم يتم انصياع اسرائيل لقرار وقف اطلاق النار .

غير انَّ الولايات المتحدة عارضت في ارسال قوات من الدولتين العظميين للاشراف على وقف اطلاق النار ، كما طلب الرئيس السادات . وكانت قد وصلت في هذه المرحلة تقارير من الاستخبارات الامريكية الى واشنطن تفيد بان الروس يستعدون لنقل قوات بالطائرات لتشرف على وقف اطلاق النار على ما يبدو وان كان في الواقع ينم عن نيتهم بالتدخل في منطقة القناة . وكان ما لايقل عن اربعين الف جندي روسي على استعداد للانتقال جوا من مواقعهم في جنوبي روسيا الى مصر ، حسب رواية مصادر الاستخبارات الامريكية . وقد ظهرت تقارير في الصحف الامريكية تفيد ان فرقا روسية هبطت في دلتا النيل وتوجهت الى ساحة المعركة . اما في الاتحاد السوفيتي ، فلم تبدأ اية اشارة تدل على توترالحالة هناك ولم يرد ذكر لما تمخضت عنه هذه الانباء .

وقد قررت واشنطن تصعيد هذه القضية حتى لا تظهر بمظهر الضعف . وفي الساعة ١١: ٣٠ من مساء ٢٤ تشرين اول ، قام الاميرال مور ، رئيس هيئة الاركان الامريكي المشتركة ، بناء على اوامر المستر جيمس شلسنجر وزير الدفاع الاميركي (الذي تسلم بدوره تفويضا من مجلس الامن القومي) بوضع القوات العسكرية الامريكية في جميع العالم في « حالة استنفار احتياطي » وقد تم تحريك حاملات الطائرات وصدرت الاوامر باستدعاء الطائرات من طراز بـ ٥٢ التابعة للقيادة الستراتيجية الجوية من قواعدها في جزيرة قوام . وكانت هذه المرة الاولى التي تتخذ فيها الولايات المتحدة مثل هذه الخطوة الخطيرة منذ الازمة الكوبية في سنة ١٩٦٢ .

وبما ان مصر كانت تواصل ارسال التقارير عن الهجمات المدرعة الجديدة التي كانت تقوم بها القوات الاسرائيلية على مدينة السويس فقد اتخذ مجلس الامن في الخامس والعشرين من تشرين الاول قرارا قدمه ثمانية اعضاء من الدول اغير المنحازه (بما فيها الهند) اعرب فيه عن القلق لعدم تمكن المراقبين العسكريين التابعين لهيئة الامم المتحدة من الوصول حتى ذلك الحين الى مواقعهم على كلا الجانبين لوقف اطلاق النار . وفيما يلي ترجمة نبذة من نص القرار الصادر عن مجلس الامن الدولي :

« يطلب مجلس الامن التقيد التام بوقف اطلاق النار وان ينسحب الطرفان الى المواقع التي احتلاها في الساعة ١٦: ٥٠ بتوقيت غرينتش من يوم الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٩٦٣ ... »

وقد اشتمل القرار على فقرات تلتمس من السكرتير العام للامم المتحدة زيادة عدد المراقبين فورا ، وان يوضع تحت تصرفه قوة طوارىء تابعة لهيئة الامم المتحدة تتألف عناصرها من الدول الاعضاء في الامم المتحدة باستثناء الدول الاعضاء في مجلس الامن . وقد عين السكرتير العام « الميجر جنرال » انزيو سيلاسفو رئيس اركان قوات المراقبة التابعة للامم المتحدة قائدا مؤقتا لهيئة مراقبي الهدنة وتألفت قوات الطوارىء من تسعمائة جندي كان من المقرر ان يطيروا فورا من قبرص (وتألفت عناصر قوة الطوارىء هذه من النمسا وفنلندا والسويد) .

وقد استمرت الازمة بين الدولتين العظميين اربعا وعشرين ساعة فقط ، مع ان الاستنفار الاميركي لم يلغ الا بعد عدة ايام . وقد شرح الدكتور كيسنجر في مؤتمر صحفي عقده في ٢٥ تشرين اول الاسباب التي حملت الولايات المتحدة الامريكية على اتخاذ تلك الخطوة الاحتياطية من حيث استنفار القوات الامريكية في جميع انحاء العالم . ولكنه اضاف قائلا ان الولايات المتحدة الامريكية لا تعتبر نفسها بعد الان في حالة مجابهة مع الاتحاد السوفيتي . « وانه ليس لديه اي علم عن اية قوات سوفياتية محتملة قد تكون دخلت مصر » .

وفي السادس والعشرين من تشرين اول قدمت مصر شكوى من ان اسرائيل تواصل عدوانها في القطاع الجنوبي من منطقة القناة بهدف الاستيلاء على ما تستطيع من الاراضي قبل ان تتدخل الامم المتحدة . وفي الوقت نفسه ادعت اسرائيل بان القوات المصرية شنت هجوما الى الشمال من السويس في محاولة لاقامة جسر عبر القناة بغية فك الحصار عن الجيش الثالث في الضفة الشرقية .

ووافقت سوريا في الرابع والعشرين من تشرين الاول على قرار وقف اطلاق النار الصادر في الثاني والعشرين من الشهر ، غير ان اطلاق النار استمر على فترات متقطعة حتى يوم السابع والعشرين من تشرين الاول عندما وصلت الاخبار عن هدوء الجبهتين لاول مرة . وتمت الموافقة على ان يجتمع ممثلون عسكريون عن مصر واسرائيل في اليوم التالي للتداول في تطبيق وقف اطلاق النار .

الفصل الحادي عشر

العمليات الجوية والبحرية

ان الفارق الرئيسي بين هذه الحرب والحروب التي سبقتها بين العرب والاسرائيليين هو انه لم تتح الظروف للاسرائيليين هذه المرة ان يقاتلوا في البر في ظل سيطرتهم الجوية المطلقة .

ففي سنة ١٩٧٣ ، حرم سلاح الطيران الاسرائيلي فرصة القيام بتوجيه الضربة الاولى . وحتى لو اتيح له ذلك لما تمكن من احراز قدر كبير من النجاح ، بفضل مظلة الصواريخ العربية المضادة للطائرات . ولذلك لم يتمكن سلاح الطيران الاسرائيلي قط من فرض سيطرته المطلقة على اجواء المعارك ، على الرغم من احتفاظه بالسيطرة في اجواء المناطق المحتلة ، وفوق قطاع البحيرات في منطقة القناة خلال الايام المعدودة والاخيرة من الحرب . اما على الجبهة السورية ، فعلى الرغم من ان الاسرائيليين تمكنوا من انتزاع سيطرة جوية اكبر ، فقد اعوزتهم الطاقة على توفير الظروف المؤاتية لشن هجمات كاسحة بالمدرعات كتلك التي شنوها خلال حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ .

ويعود سبب مقدرة الاسرائيليين على الاحتفاظ بالسيطرة على مجالاتهم الجوية دون ان ينازعهم فيها منازع تقريبا الى تفوق طائراتهم ومعداتهم الحربية على تلك التي يملكها العرب . واهم طائرة في سلاح الطيران الاسرائيلي هي طائرة (الفانتوم) ، القاذفة المقاتلة . ومن المرجح ان تكون هذه الطائرة افضل طائرة حربية من نوعها في العالم اليوم . ففي الامكان استخدامها في عمليات مختلفة اكثر من الطائرة الروسية من طراز ميغ ٢١ س . وهي تحمل اربعة صواريخ من نوع « سبارو » وعددا من صواريخ « سايد ويندر » للاشتباكات الجوية ، وقنابل من وزن ٥٥٠ رطلا ويمكنها ان تطير بسرعة ٢,٤ (ماخ) سرعة الصوت ولها مدى لا يقل عن ٢٥٠٠ كيلومتر" ❋" فهي اذن اسرع من طائرة الميغ ٢١ س وابعد مدى . وبعبارة اوضح يمكنها البقاء في جو المعركة زمنا اطول من بقاء الطائرة المقاتلة السوفياتية الصنع بثلاث او اربع مرات . (وكان قد تردد ان عددا من طائرات ميغ سقطت لنفاذ الوقود منها اثناء عودتها من رحلات فوق سيناء) .

اما المقاتلة الاسرائيلية من طراز ميراج ٣ سي ، وهي الطائرة المقاتلة الرئيسية ، فانها تطير بمعدل سرعة الصوت على علو منخفض لكن باستطاعتها التحليق بضعف تلك السرعة على ارتفاع عال ، ومداها ابعد كثيرا من مدى طائرة الميغ ٢١ التي يبلغ مداها ٦٠٠ كيلو متر فقط .

غير ان طائرة الميغ ٢١ قد برهنت على انها اكثر قدرة على المناورة من المقاتلات

الاسرائيلية لكنها لا تحمل الا صواريخ من طراز « اتول » ، (وهو نظير صاروخ سايد ويندر) ، ولا تحمل صاروخا شبيها بصاروخ « سبارو » ، الذي يمكن اطلاقه على طائرة مقبلة مثلما يمكن اطلاقه على طائرة مدبرة . من ثم ، يقال ان الصواريخ التي تطلقها طائرة الميغ ٢١ من الجو الى الجو لم تسفر عن نتائج مرضية على الرغم من انه ليس من السهل تقدير ما اذا كان ذلك يعود الى خطأ في طريقة الاطلاق او الى نقص في الصواريخ ذاتها . والاعتقاد السائد ان الطيارين المصريين تدربوا في الانقضاض على التشكيلات الاسرائيلية المهاجمة من تحتها بغية شطر تلك التشكيلات . وكان ذلك يتم لسبب معروف وهو ان طائرة واحدة مقاتلة فقط في التشكيلات الاسرائيلية تحمل اجهزة تشويش الكترونية (مما يوفر مظلة واقية للطائرات الاخرى) ، وعندما يتم شطر تشكيلات الطائرات الى شطرين يجردها ذلك من الحماية ، بحيث تصبح فريسة سهلة لصواريخ سام . ولذلك فان اداء الطيارين المصريين ضد الطائرات الاسرائيلية المزودة بمعدات واسلحة افضل من الطائرات المصرية يعتبر اداء ممتازا . وقد فاجأ ذلك الاسرائيليين مفاجأة تامة . واذ كان العرب يدركون تفوق الاسلحة والمعدات العسكرية التي يملكها سلاح الجو الاسرائيلي فقد فرضوا عن حكمة وتعقل اجراءات تقيد العمليات الجوية ضد الاسرائيليين . فالتزم السلاح الجوي العربي لذلك بصورة رئيسية جانب الدفاع . وتفيد التقارير انه تم توزيع سلاح الجو المصري في مطارات دلتا النيل وفي اماكن نائية حتى اسوان .

ويبدو ان القيادتين المصرية والسورية كانتا تدركان الحاجة الى تحديد العمليات الجوية . ولذلك فقد اصدرا لسلاحيهما الجويين تعليمات محددة على النحو التالي :

أ ـ القيام بشن هجوم مفاجىء ضد المواقع الاسرائيلية المتقدمة ومنشآت الرادار والمواصلات دعما للهجوم البري الرئيسي .

ب ـ اكراه الاسرائيليين على توزيع سلاحهم على جبهتين وكذلك اجباره على توسيع جبهته على اوسع نطاق ممكن في كل قطاع .

ج ـ العمل على منع سلاح الطيران الاسرائيلي من ان يكون له التفوق الجوي التكتيكي بدعم من قواعد صواريخ ارض ـ جو والمدفعية المضادة للطائرات .

د ـ العمل على دعم العمليات البرية مع البقاء ضمن مدى حماية مظلة الصواريخ الا في الحالات الطارئة .

وقبل ساعة الهجوم ، قامت طائرات من طراز اس يو ـ ٧ وطائرات ميغ ٢١ ج ، التي يعتقد بانه ادخل عليها بعض التحسينات ، بغارات جوية ضد المواقع الاسرائيلية في سيناء . ويعتقد انه كان لضرباتها اثر فعال . فكانت اسراب المقاتلات المصرية المتوالية تتسلل تحت مدى مجال الرادار الاسرائيلي وتضرب اهدافا اسرائيلية كمواقع القيادة المتقدمة ومراكز شبكات الرادار والمواصلات وقواعد صواريخ ارض ـ جو من طراز هوك وغيرها من المنشآت الحيوية على عمق يقرب من ستين كيلومترا . ولم تنج المطارات الاسرائيلية الامامية من الهجوم ايضا . وقد كررت هذه الطائرات غاراتها بعد ثلاثة ايام وبالاضافة الى ذلك ، قدم سلاح الطيران العربي دعما للعمليات البحرية ولعمليات رجال الكوماندوس في عمق سيناء وفي خليج السويس . ولكن يعتقد بان خسائر الطائرات المصرية في هذه المعارك كانت فادحة نتيجة اصابتها بنيران المدفعية المضادة للطائرات وبصواريخ هوك .

وبعد الهجوم عبر القناة استخدم سلاح الطيران المصري في حالات متفرقة . فكانت مهماته الرئيسية ، آنئذ ، الاغارة على المواقع الاسرائيلية المتقدمة وتجمع الدبابات الاسرائيلية لكنه لم يقم باية محاولة جدية للقيام باعتراض الطائرات الاسرائيلية التي حاولت ضرب المواقع والجسور المصرية المتقدمة . وقد شكلت صواريخ ارض ــ جو كل الحماية من الطائرات الاسرائيلية تقريبا ، واستطاعت استنزاف طيران العدو على نطاق واسع حتى ان سلاح الطيران الاسرائيلي لم يتمكن من احراز نجاح يذكر في المراحل الاولى ضد هذه الاهداف . وتفيد التقارير ان عددا كبيرا من الطائرات الاسرائيلية التي كانت تطير على علو منخفض في محاولة لتجنب التعرض لصواريخ سام ٢ و٣ قد سقط بفعل صواريخ ارض ــ جو من طراز سام ٦ وسام ٧ .

وبما ان رؤوس الجسور المصرية لم تتقدم الى ابعد من مدى مظلة صواريخ سام ٢ وسام ٣ ، فلم تكن هناك حاجة كبيرة الى استخدام سلاح الطيران المصري في دعم القوات المصرية التي عبرت القناة في الاسبوع الاول من الحرب ولهذا فقد بقي معظمه بلا نشاط باستثناء مهمات طارئة انيطت به للقيام بغارات ضد القوات الاسرائيلية البرية . ولكن بعد ذلك ، في الرابع عشر من تشرين الاول ، عندما تقدم الجيش المصري مهاجما خارج نطاق مظلة الصواريخ ، تعين على سلاح الجو المصري ان يقوم بعمليات لدعمه مما ادى الى تعرضه لنيران وسائل الدفاع الجوي الاسرائيلية بحيث خسر عددا من طائراته . وكان مما يدعو الى الاسف خلال هذه العمليات ، كما رددت الاخبار ، ان الطيارين المصريين الذين كانوا يهبطون بالمظلات فوق المناطق التي يحتلها العدو لم تكن تتوفر لديهم عمليات الانقاذ من الوقوع في ايدي الاسرائيليين بحيث تعين عليهم في كثير من الحالات ان يعبروا الصحراء مشيا على الاقدام ليصلوا الى رؤوس الجسور المصرية .

لقد خلق الحزام المتشابك من الصواريخ المضادة للطائرات في الضفة الغربية مشكلة ايضا حتى للطائرات المصرية . لانه يكاد يكون من المستحيل على اجهزة تمييز الطائرات الصديقة من الطائرات المعادية معرفة هوية الطائرات التي تحلق على علو منخفض وبسرعة تساوي او تفوق سرعة الصوت حيث ان شبكات الرادار لا يتيسر لها في مثل هذه الحالة وقت كاف لتمييز الطائرات .

لذلك كان هناك خطر دائم من ان تصاب طائرات مصرية بصواريخ مصرية وبدلا من انشاء ممرات مأمونة كان في امكان سلاح الجو الاسرائيلي اكتشافها بسرعة وسهولة ، تقرر ان تسلك المقاتلات المصرية في طريق عودتها من القيام بمهماتها طريقا يدور حول مواقع حزام الصواريخ المذكورة . اما اذا ضلت طريقها ودخلت منطقة الحزام ، فانها تكون بذلك قد جازفت بتعرضها للاصابة بالصواريخ المصرية وقد وردت تقارير تفيد بالفعل انه تم اسقاط طائرات مصرية بسبب اقدامها على تلك المجازفة .

ان سلاح الجو المصري ووسائل الدفاع الجوي هما ادارتان مستقلتان في مصر غير انهما تخضعان لاشراف مركز القيادة العسكري بقيادة رئيس الاركان : لكن مهما تعاظمت جهود التنسيق بينهما ، فقد تعذر القضاء على خطر اسقاط طائرات مصرية بصواريخ مصرية قضاء تاما . ولكن ليس من الحق ان تلقى مسؤولية ذلك بكاملها على جهاز وسائل الدفاع الجوي وحده . ويقال ان السبب يعود الى ان اعداد صواريخ الدفاع الجوي في خطوط منتشرة احدها وراء الاخر جعل اجراءات تفادي هذه

الصواريخ التي اتبعتها الطائرات المصرية في بعض الاحيان مغلوطا ، اضف الى ذلك ، ان قوات الدفاع البرية في المواقع المتقدمة في الضفة الشرقية كانت تستعمل صواريخ من طراز سام ٧ « ستريلا » التي تطلق من الكتف وكانت مدافع مضادة للطائرات ذات سبطانتين تشغل يدويا مركبة على شـاحنات قد نقلت الى المواقع الامامية واستعملت في العمليات العسكرية ، وبما ان مثل هذه الاسلحة تعتمد على العين المجردة لتمييز الطائرات ، فقد كان من الطبيعي ان تقع اخطاء من حيث تسليط نيرانها على الطائرات الصديقة اثناء احتدام المعارك . ولا يعرف كيف تمكن الروس من حل مثل هذه المشكلة واجهزة دفاعهم الجوي مكثفة اكثر من كثافة الصواريخ المصرية مع افتراض امتلاكهم عددا اكبر من الطائرات . والظاهر ان سلاح الجو المصري لم يتوصل على ما يبدو الى ايجاد جواب لهذا السؤال حتى الان .

وقد تردد انه خلال الغارات الجوية الاسرائيلية على المطارات المصرية كانت الطائرات المصرية تنتظم في مجموعات مختلفة حسبما تقتضيه المهمة المنوطة بها . اذ كان عدد محدود منها يقوم برحلات استطلاعية خلال النهار . وكانت الاوامر المعطاة لها في مطاردة الطائرات المعادية بعد اغارتها صارمة . وقد اقتضت الضرورة الاخذ بهذه الاحتياطات للحيلولة دون وقوعها في شراك الطائرات الاسرائيلية التي كانت توفر الحماية للطائرات المغيرة ، واغلب الظن ان هذا التحسب مبني على التجارب السابقة عندما كانت الطائرات الاسرائيلية تقوم بغاراتها على الاهداف المصرية بحماية طائرات الميراج (كما حدث اثناء اشتباكها مع سلاح الجو السوري في ١٣ ايلول ١٩٧٣) .

فلا غرابة في ان تبدو مثل هذه الاجراءات الصارمة كما لـو انها قد حرمت سلاح الجو المصري نوعا ما من اخذ زمام المبادرة الجوية .

وقد ذكرت الاخبار ايضا ان سربا من الطائرات العراقية من طراز « هنتر » ، مؤلفا من ست عشرة طائرة ، كان يقوم بمهمة تقديم الدعم الى القوات البرية ، قد قامت طائراته بأعمال بطولية بروح معنوية عالية ، لكن وسائل الدفاع الاسرائيلية المضادة الحقت بهذا السرب خسائر فادحة . ويقال انه دمر بكامله .

اما قاذفات القنابل المصرية من طراز تي يو ١٦ فلم تقم باي نشاط يذكر باستثناء غارات قليلة في المراحل الاولى من الحرب على المنشآت النفطية « الاسرائيلية » في سيناء وعلى اهداف في ساحلها وعلى الجسور التي اقامها الاسرائيليون عبر القناة في قطاع الدفرسوار ، في السابع عشر من تشرين الاول ، غير ان نتائج تلك الغارات بقيت مجهولة ويروى ان قاذفتين عراقيتين من طراز تي يو ــ ١٦ حاولتا اختراق مظلة الدفاع الجوي الاسرائيلي في مهمة لضرب تل ابيب . لكن الاسرائيليين ادعوا انهم اسقطوا احداهما ، وان الثانية لاذت بالفرار بعد ان القت قنابلها على اهداف غير محددة .

اما طائرات الهليوكوبتر فقد استخدمت في نقل رجال الكوماندوس المصريين الى صحراء سيناء خلال المرحلة الاولى من الحرب واثناء معركة الدفرسوار وضد المدرعات تحت اشراف قيادة مدفعية قطاع الدفرسوار . وقد لحقت خسائر كبيرة برجال الكوماندوس بسبب افتقارهم الى حماية المقاتلات . ولكن ينبغي عدم الاستهانة بالدور البارز الذي لعبه رجال الكوماندوس هؤلاء في خطة قطع مواصلات العدو التي ساعدت على عبور القناة ، لان مصر كانت قد اعتمدت اعتمادا كبيرا على مقدرة هؤلاء على مهاجمة وتدمير منشآت الرادار والقوافل العسكرية ومراكز القيادة المتقدمة ، وعلى

ارسال المعلومات السرية . وقد نفذت بعض هذه المهمات بجرأة خلال الساعات الاولى من الحرب .

اما على الجبهة الشمالية ، فقد ابدى سلاح الجو السوري نشاطا اكثر في المعركة منذ بدايتها مع انه كان يلتزم ايضا التزاما تاما جانب الدفاع . فدخلت طائراته الميغ السورية (ومن ثم العراقية) ، المعركة بحماس بدا متهورا . لكن هذه الطائرات قدمت دعما وثيقا وكبيرا للقوات البرية المهاجمة في مرتفعات الجولان ، وبالاضافة الى ذلك ، ظلت المقاتلات السورية تحلق في الاجواء بصورة دائمة ، السبب في ذلك يعود الى ان مظلة الصواريخ السورية كانت اقل كثافة من تلك التي كانت في منطقة القناة .

ويذكر انه في الثالث عشر من ايلول ، حاول سلاح الطيران السوري التصدي للطائرات الاسرائيلية التي اخترقت الاجواء السورية . وخسر سلاح الجو السوري عددا كبيرا من طائراته ، ففي ذلك الوقت لم تتصد الصواريخ ارض ـ جو للطائرات الاسرائيلية . ويمكن الاستنتاج بأن السوريين تعمدوا ذلك لكي يخفوا عن الاسرائيليين مدى ما كانوا يمتلكونه من هذه الصواريخ ، وكانت النتيجة ان الاسرائيليين فوجئوا جدا بكثافة تلك المظلة غربي دمشق ، وتكبدت طائراتهم خسائر جسيمة .

فعلى الرغم من ان سلاح الجو السوري كان يملك عددا كبيرا من طائرات ميغ ١٧ ، التي لاتضاهي المقاتلات الاسرائيلية ، فان الطيارين السوريين قاتلوا بمهارة ابان المعارك الجوية رغم تهورهم في كثير من الاحيان . وهناك تقارير تفيد بانهم كانوا بعد ان ينفذ الوقود من طائراتهم اثناء بعض الاشتباكات الجوية ينقضون بها على الطائرات الاسرائيلية ويصدمونها على الطريقة الانتحاريـة اليابانية . وكان هذا يعني ضمنا اهمال الاساليب الحربية المتعارف عليها وترك الطيار يختار الطريقة التي تلائمه وذلك علاوة على عدم نضج القيادة والسيطرة على العمليات . ومع ذلك ، يقتضي التنويه بان هذه الاساليب نجحت بالفعل في اسقاط طائرات فانتوم اسرائيلية . وقد وصف قائد سلاح الجو السوري هذه الاعمال البطولية في مؤتمر صحفي عقده بعد الحرب ، بانها تدل على « الروح القتالية في الجو » . ولعل في ذلك شيئا من الصحة .

وتروي بعض التقارير ان الروس زودوا السوريين بسرب من الطائرات ربما كان من طراز اس يو ـ ٢٠ وهي نموذج معدل من طائرات اس يو ـ ٧ ولكنها مزودة باجنحة متحركة ، وتروي التقارير ان بعضها قام بدور دفاعي فوق دمشق ، ويعتقد بأن طياريها كانوا من الروس .

وتردد ايضا ، ان سلاح الجو السوري ، بحكم اقتنائه عددا كبيرا من طائرات ميغ ١٧ اتبع تكتيكا يقضي بتحليق مجموعة من طائرتي ميغ ٢١ تتبعهما طائرتان من طراز ميغ ١٧ اثناء التصدي للطائرات الاسرائيلية المغيرة : اما اثناء تقديم الدعم فقد لوحظ ان الطائرات السورية كانت تحلق بمجموعات مؤلفة من اربع الى ثماني طائرات كان معظمها من طراز ميغ ١٧ .

وعلى نقيض الطيران المصري يخضع جهاز الدفاع الجوي السوري لقيادة سلاح الجو نفسه . ولعل هذا التنظيم اسفر عن تنسيق اوثق وان كان اقل فعالية بين صواريخ الدفاع والطائرات المقاتلة . ولكن لا تتوفر المعلومات حول كيفية عمل هذا الجهاز من حيث تعرض الطائـرات السوريـة لضربـات الصواريـخ السوريـة المضـادة للطائرات . اما سلاح الجو الاسرائيلي ، فعلى الرغم من ان خطأه في تقييم نوايا

العرب واستراتيجيتهم تقييما صحيحا جعله يلتزم جانب الدفاع خلال المراحل الاولى من الحرب ، فانه استمر في الاتكال على اسلحته المتفوقة وخبرته القتالية ومستواه الرفيع في اعمال الصيانة حتى تمكن في النهاية من انتزاع زمام المبادرة من سلاح الجو العربي . وقد القى الاسرائيليون على الجبهة السورية بكل طائرة تحت تصرفهم ليهاجموا بها الطوابير السورية الزاحفة وتكبدوا لذلك خسارة فادحة من صواريخ سام ٦ والمدفعية المضادة للطائرات . وقال الجنرال دايان في هذا الشأن ان سلاح الجو الاسرائيلي خسر خمسين طائرة خلال الايام الثلاثة الاولى (وقدرت المخابرات الاميركية الرقم بحوالي ثمانين طائرة) ، وقد القى الاسرائيليون حتى بطائرات الميراج لتقوم بدعم قواتهم البرية . وقد وصف الجنرال دايان في التاسع عشر من تشرين الاول اوضاع الحرب الجوية في المراحل الاولى كما يلي :

« كان على سلاحنا الجوي وهو يهاجم اهدافا داخل سوريا ان يواجه ثلاث مشكلات : الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات وسلاح الجو السوري . اما سلاح الجو السوري فلم يكن يشكل خطرا على سلاح الجو الاسرائيلي . فحين كانت الطائرات السورية تشتبك مع الطائرات الاسرائيلية كانت الطائرات السورية تمنى بهزيمة منكرة غير ان الصواريخ السورية المضادة للطائرات اثارت في وجه سلاح الطيران الاسرائيلي مشكلة . فكان لا بد من تدمير بعض هذه الصواريخ وربما تدميرها كلها قبل ان يتاح للطائرات الاسرائيلية ان تقصف اهدافها . وكان علينا ان ندفع ثمنا غاليا لقاء الاشتباك مع الصواريخ السورية . وكان من العمليات الناجحة التي قام بها سلاحنا الجوي قصف الطوابير السورية المدرعة التي غزت هضبة الجولان وكانت محمية بصواريخ ارض ــ جو . والان وصلنا الى مرحلة لم تعد تستخدم فيها الصواريخ ضد طائراتنا مما مكننا من مهاجمة الدبابات السورية ليس بمجرد قصفها والفرار بل بمواصلة القاء القنابل عليها على طول طريق القنيطرة دمشق » .

ان فعالية الصواريخ العربية المضادة للطائرات قد اصابت الاسرائيليين بصدمة عنيفة وقلبت استراتيجيتهم الاساسية رأسا على عقب ، تلك الاستراتيجية القائمة على اساس ترسيخ تفوقهم الجوي في ساحات القتال لوقف تقدم القوات العربية وتمكين المدرعات الاسرائيلية من الاقتحام السريع في عمق الاراضي العربية ولم تتح مثل هذه الفرصة لاسرائيل هذه المرة الا حيثما حدث اهمال في جبهة قناة السويس بعد اسبوع من بدء الحرب .

وكان الاسرائيليون قد تلقوا معلومات حول مواقع صواريخ سام ٢ و٣ في منطقتي القناة ودلتا النيل ومعلومات حول صواريخ الدفاع في دمشق . ولكن الذي فاجأهم كان في الدرجة الاولى المهارة التي استعمل بها العرب هذه الاسلحة المعقدة ، وفي الدرجة الثانية الفعالية القتالية التي اثبتتها صواريخ سام ٦ والتي اسقطت الجانب الاكبر من الطائرات التي فقدتها اسرائيل .

ان فعالية صواريخ سام ٦ تعتمد على تعدد اوجه استعمالها فهي ذاتية الحركة ويمكن نقل موقعها خلال دقائق معدودة ، على العكس من صواريخ سام ٢ و٣ التي يجب ان تسحب وراء الجيوش المهاجمة لتقدم مظلة جوية ابان احتدام المعركة ــ وهذا هو الشيء الذي حدث في الجبهة الشمالية حيث لم يكن امام السوريين عائق مائي يحول دون سحب هذه الصواريخ وراء قواتهم . وبالاضافة الى ذلك ، تكمن الميزة الرئيسية

لصواريخ سام ٦ في سرعتها التي تمكنها من اسقاط طائرة تحلق على علو منخفض ، كما يمكن تصويبها بالعين البشرية المجردة مما يعطيها مناعة من اجهزة التشويش الالكترونية في حال استخدامها على هذا النحو . ومع ذلك فان جهاز التوجيه الاساسي فيها هو الرادار ، وفي الامكان تعطيله اذا كانت « طائرة » مهاجمة مجهزة بمعدات تشويش الكترونية .

وقد تعلم الاسرائيليون كيف يستخدمون اجراءات التشويش الالكترونية للتملص من صواريخ سام ٢ و٣ لكن صاروخ سام ٦ لم يستخدم قط قبل هذه الحرب . اما صواريخ سام التي بنيت من قبل فكانت توجه من الارض بواسطة شعاع الرادار ضد الاهداف . اما الصواريخ التي صنعت في وقت لاحق كصواريخ سام ٦ فقد تضمنت اجهزة داخلية تعمل على اللحاق وتغير توجيه الصاروخ تلقائيا في منتصف مرحلة اطلاقه بحيث يتجه الى هدفه .

غير ان اسلوب المناورة الذي تتبعه الطائرة للتملص من الصواريخ له حدود ، تكمن بصورة رئيسية في الطيار نفسه ، لانه اذا انطلق بسرعة فانه لا يحتفظ بكامل وعيه بسبب قوة الجاذبية الارضية : اما الصاروخ فلا يخضع للحدود البشرية ولذلك يمكن ان يتغلب على مناورة الطائرة . اما الطريقة الوحيدة التي تيسر للطيار تفادي الصاروخ فهي ان يعود ليحاول التشويش على رادار الصاروخ بالادوات الالكترونية الموجودة على متن طائرته التي تستخدم الذبذبة ذاتها التي يعمل عليها رادار الصاروخ . وقد تحسب سلاح الجو الاسرائيلي لعملية التشويش ضد صواريخ سام ٢ و٣ : غير ان صاروخ سام ٦ مجـهز برادار محسن يعمل على مدى ترددات قابلة للتغيير فاجأ سلاح الطيران الاسرائيلي .

وكان الاميركيون قد سلحوا المقاتلات التي قدموها للاسرائيليين بصواريخ جو ـ ارض من طراز « شرايك » تنطلق باتجاه شعاع رادار توجيه الصواريخ وتدمر قاعدة الاطلاق . وهنالك نوع احدث من هذه الصواريخ يتضمن جهاز ذاكرة يحتفظ بالصاروخ باتجاه شبكة الرادار حتى اذا اقفل رادار توجيه الصاروخ ومع ذلك ففعالية ، هذه الصواريخ ضئيلة ايضا ضد صواريخ سام الجديدة لان هذه تحتوي على اجهزة رادار ذات ترددات متغيرة . وحتى اذا تغلبت وسائل التشويش الالكترونية على مشكلة الترددات المتغيرة ، فان بالامكان تحويل توجيه الصاروخ الى جهاز تحكم على بعد ذي موجة دقيقة جدا وتوجيهه الى هدفه بالعين المجردة .

ويعتقد بان سلاح الطيران الاسرائيلي قد تحول لفترة قصيرة من اجل المحافظة على نشاطه الفائق الى استخدام طائرات اقل سرعة مثل طائرات سوبر مستير وفوتور وادريغان وخاصة في دعم القوات البرية الاسرائيلية بعد شن الهجوم الاسرائيلي المضاد . ولم تتمكن طائرات الفانتوم والميراج من التحليق في الاجواء السورية والاغارة على دمشق الا بعد تدمير واستنزاف جزء كبير من شبكات الصواريخ السورية المضادة للطائرات . وبعدئذ فقط تمكنت ست من طائرات فانتوم من القيام في ٩ تشرين اول بالاغارة على دمشق والقاء قنابل من زنة ٥٥٠ رطلا عليها بالتحليق على علو منخفض .

وقد استخدم سلاح الطيران الاسرائيلي صواريخ « شرايك » على الجبهتين بكثافة كبيرة . ومع ذلك ، تشير التقارير الى ان نسبة كبيرة من هذه الصواريخ ذهبت سدى على مواقع وهمية كانت منتشرة في مناطق متناثرة من شبكات الصواريخ العربية المضادة

للطائرات وقد لعبت اجراءتت التمويه في هذا المجال دورا فعالا وخاصة في منطقة القناة حيث يقع حزام الصواريخ . فلجأ سلاح الجو الاسرائيلي في بعض الاحيان الى القصف الكثيف اثناء اغارة طائراته على مواقع الصواريخ بتشكيلات كانت تتألف من سربين او ثلاثة اسراب في آن واحد . ومع ذلك ، فلم يكتب دائما نجاح مناسب حتى لهذه الطريقة لان المصريين كانوا قد نشروا صواريخ سام ٦ بين صواريخ سام ٢ و٣ على مساحات واسعة وقد اسقطت المدافع المصرية المضادة التي كانت قد اقيمت بكثافة بين بطاريات الصواريخ عددا كبيرا من الطائرات الاسرائيلية وكان اكثر هذه المدافع الروسية فعالية هي من طراز « زد اس يو ٢٣ » . ولم تتوفر بعد تفاصيل وافية عن استخدام الاسرائيليين طائرات تطير بدون طيارين ضد تحصينات الصواريخ العربية غير ان هذه الطائرات استخدمت على نطاق ضيق في المراحل الاخيرة من الحرب .

وقد نجحت الطائرات الاسرائيلية في فتح ممر لها في القطاع الشمالي من دلتا النيل عبر وسائل الدفاع الجوية المصرية بين بور سعيد ودمياط من الشاطىء الشمالي للبحر الابيض المتوسط واستمرت في عملياتها الهجومية باستعمال هذا الممر لضرب المطارات المصرية . غير ان اعمال القصف الفعلي لم تكن ذات اثر يذكر وعلى كل حال ، فقد نظم المصريون اجراءات فعالة للقيام باعمال الصيانة وعملوا على تنفيذها في غضون ساعات قلائل . غير ان انجح العمليات المضادة لمواقع الصواريخ التي نفذت منذ سنين جرت اثناء الهجوم الاسرائيلي عبر القناة في منطقة الدفرسوار . وقد تمكنت الطوابير المدرعة التي اطلقها الجنرال شارون من التفتيش على مواقع تلك الصواريخ وتدميرها . بحيث تمكنت من تنظيف منطقة واسعة في الضفة الغربية ، ومن ثم تمكن سلاح الجو الاسرائيلي من فرض سيطرة فوق اجواء المنطقة على الرغم من التصدي الشديد الذي ابداه سلاح الجو المصري له .

وتوجد في اسرائيل صناعة طائرات وطنية ارقى وانظم كثيرا من صناعة طائرات عربية مما ضمن لاسرائيل القيام بنشاط جوي عالي المستوى . وقد صرحت مصادر اسرائيلية بان جميع منشآت الصيانة كانت تعمل ليل نهار على نوبات تتألف كل منها من ثماني ساعات . ومع ذلك ، فمما يدعو الى الغرابة ان الطائرات الاسرائيلية القاذفة ـ المقاتلة من طراز « براك » لم تظهر في الجو الا قبل انتهاء الحرب بقليل .

الحرب في البحر

لقد شهدت حرب ١٩٧٣ على نقيض الحروب السابقة عمليات بحرية واسعة النطاق ومستمرة من كلا الطرفين . مع العلم بان الزوارق الصغيرة كزوارق الصواريخ وزوارق الدورية هي التي قامت بمعظم النشاط البحري . وكانت البحرية المصرية هي التي وجهت الضربة الاولى . وقد ساهمت بطاريات المدفعية المصرية المتمركزة على الساحل في بور سعيد وميناء السويس في دعم الجيوش المصرية التي عبرت القناة بينما قامت زوارق الصواريخ بضرب موقع رمانة لاسكات المدفعية الاسرائيلية الثقيلة المتمركزة هناك . وقامت زوارق الصواريخ المصرية بقصف الموقع الاسرائيلي المحصن في رأس برون الواقع في الشمال القصي . وكانت قد انشئت في هذا الموقع محطة رادار قوية لتتعقب تحركات السفن في مدخل قناة السويس في بور سعيد وافادت الاخبار ان محطة

الرادار المذكورة قد دمرت .

اما في خليج السويس فقدمت زوارق الصواريخ المصرية دعما هاما لرجال الكوماندوس التابعين للبحرية في الغارات التي شنوها على موقع رأس سدر وابو رديس (في منتصف الشاطىء الجنوبي لسيناء) ، وقد استخدمت الضفادع البشرية في بلاعيم الى الجنوب لتعطيل اجهزة حفر النفط عن العمل . ولم تلق البحرية المصرية اية مقاومة في السادس من تشرين الاول ولكن العمليات التي قامت بها فيما بعد واجهت مقاومة من زوارق الدورية وزوارق الصواريخ المعادية .

واشتبكت زوارق الصواريخ المصرية في مساء الثامن من تشرين الاول وهي تابعة لمجموعة الزوارق التي هاجمت واغرقت المدمرة الاسرائيلية ايلات منذ ست سنوات بالقرب من بور سعيد ، مع تسعة من الزوارق الاسرائيلية تؤازرها طائرات الهيليكوبتر المسلحة بصواريخ ، ويستفاد من التقارير ان البحرية المصرية قامت باعمال جريئة جدا فاغرقت خمسة زوارق للعدو وخسرت هي ثلاثة .

وفي الايام التي تلت قامت البحرية المصرية بقصف شرم الشيخ ومواقع اسرائيلية اخرى على شاطىء خليج السويس وادعى الاسرائيليون انهم صدوا مجموعة من رجال الكوماندوس المصريين الذين نزلوا الى شاطىء شرم الشيخ بغية تخريب منشآت الرادار هناك .

وقد سجل المصريون انتصارا رئيسيا في خليج السويس خلال غارة ثانية شنوها على منشآت نفط بلاعيم . فزرعوا الالغام سرا في الممرات المؤدية الى المرفأ وكانت هذه المرة الاولى التي تقوم فيها البحرية المصرية بزرع الالغام الحربية في وقت الحرب . وقد ادى ذلك الى اغراق ناقلة نفط تبلغ حمولتها ٤٦٠٠٠ طن مع زورق سحب كان قد هرع لنجدتها عندما اصطدما بالالغام . وبالاضافة الى ذلك ، اصيبت ناقلة نفط تبلغ حمولتها ٢٠٠٠ طن باضرار . وقد تعطلت الملاحة بعد ذلك بالقرب من بلاعيم لان البحرية الاسرائيلية لم تكن تملك كاسحات الغام .

اما في البحر الابيض المتوسط فقد انيطت بالاسطول المصري مهمات دفاعية في الاسكندرية ، للاحتفاظ بالميناء مفتوحا وبممراته سالكة . وبعد ان اذيع ان الناحية الشرقية للبحر المتوسط منطقة محظورة ، قامت الغواصات المصرية بعمليات في المنطقة وقالت انها اغرقت سفينتين تجاريتين اسرائيليتين . وقد وقعت عدة اشتباكات بالقرب من شاطىء دلتا النيل ولم تتمكن الزوارق الاسرائيلية من الاقتراب الا مرة واحدة من الشواطىء المصرية حين قصفت اهدافا في مرفأ ابو قير .

وقام الاسطول المصري في البحر الاحمر بعملية رئيسية وهي فرض الحصار على مدخل البحر الاحمر من مضيق باب المندب (مركز مراقبة التهريب) . وقد انيطت المهمة بمدمرتين رستا بالقرب من عدن واخذت غواصتان مصريتان تجوبان المنطقة الى الشمال من المضيق ، وكان معدل السفن الاسرائيلية العابرة في المضيق ثماني عشرة سفينة في الشهر ولم يسمح بمرور اية سفينة اسرائيلية من هناك حتى رفع الحصار في شهر تشرين الثاني .

اما البحرية الاسرائيلية فقد نشطت ايضا طوال الحرب ، وكان مسرح معظم نشاطها في البحر المتوسط بالقرب من الشواطىء السورية . وقد سجلت انتصارا رئيسيا في الحادي عشر من تشرين الاول عندما تمكنت بمؤازرة سلاح الجو من ضرب

مينائي اللاذقية وطرطوس وقصف صهاريج النفط في بانياس التي تركت طعمة للنيران . وقد افادت الانباء ان طائرات الهيليكوبتر المسلحة بالصواريخ قد استخدمت في هذه العمليات .

ويصعب تقييم مدى الخسائر التي اصيب بها الطرفان في هذه العمليات فالصاروخ المصري السوفياتي الصنع من طراز « ستايكس » له مدى ابعد من الصاروخ الاسرائيلي من طراز « غابريال » . لكن الاسرائيليين يدعون ان زوارقهم الاسرع من طراز « ساعر » الفرنسية الصنع والزوارق التي بنوها من طراز « ريشيف » و « كيشيت » قد برهنت على انها ذات مناورة افضل بحيث اخذت زمام المبادرة في معظم الاحيان .

الفصل الثاني عشر

تعليق على الحرب

لقد كانت الجولة الرابعة من الحروب العربية ـ الاسرائيلية المتواصلة تختلف اختلافا بينا عن الجولات الثلاث السابقة من عدة نواح . ففي الجولة الاولى التي استعر فيها القتال بعد انشاء اسرائيل بفترة قصيرة من الزمن ، لم تكن الحرب حامية الوطيس . اما في سنتي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ فقد اخذ خلالهما الاسرائيليون زمام المبادرة بينما كان زمام المبادرة في حرب تشرين اول ١٩٧٣ في ايدي العرب ، بحيث جاء هجوم العرب ، على نقيض اية حرب سابقة ، مفاجئا تماما للاسرائيليين (على الرغم من انه ليس من الصواب القول ان الاسرائيليين لم يتلقوا انذارا يكشف عن الاستعدادات العربية) .

وفي سنة ١٩٥٦ ، خاض الاسرائيليون بدعم جوي بريطاني وفرنسي حربا في ظل تفوق جوي . وفي سنة ١٩٦٧ ، اسفرت الضربة الاول التي وجهها سلاح الطيران الاسرائيلي الى سلاح الطيران المصري عن اطلاق يد سلاح الطيران الاسرائيلي بحرية في الاجواء المصرية . غير ان الاسرائيليين لم يتمكنوا في حرب تشرين اول من القتال في ظل سيطرة جوية لان العرب كانوا يملكون طاقة لا يستهان بها من وسائل الدفاع الجوي . وكان من نتائج ذلك ان الدبابات الاسرائيلية لم تستطع اقتحام الاراضي العربية بسرعة كما فعلت في الحروب السابقة . حتى ان هذه الحرب بقيت محصورة في رقعة محدودة من الارض بحيث لم تكن في جوهرها حرب حركة بقدر ما كانت حرب استنزاف .

كما ان الاسرائيليين لم يتمتعوا في سنة ١٩٧٣ بمزايا توفر الامدادات لديهم كما تمتعوا في الحروب السابقة نظرا لقصر مواصلاتهم آنذاك . فعلى جبهة سيناء ، كانت خطوط مواصلاتهم الطويلة هذه المرة عبر صحراء سيناء ليست افضل من خطوط مواصلات المصريين . اما على الجبهة الشمالية فقد ازدحم خط مواصلاتهم بسبب عدم وجود اكثر من منفذ واحد لها هو جسر بنات يعقوب . ولكن كان من حسن حظهم انهم تمكنوا من تعويض هذه العقبة من خلال تحديد المصريين لاهدافهم الاستراتجية التي اقتصرت على اقامة رؤوس جسور واسعة في عمق محدود من صحراء سيناء مما اتاح للاسرائيليين ان يحاربوا على جبهة واحدة في آن واحد . وهكذا بعد السابع من تشرين اول تمكنوا من التزام جانب الدفاع فقط في الجنوب مع تحويل الاولوية لمواجهة التهديد المباشر الذي كانوا يواجهونه من الشمال فركزوا معظم قواتهم ضد السوريين بحيث تمكنوا من صد هجومهم ودفعهم الى الوراء . ومن ثم وجهوا اهتمامهم نحو جبهة قناة السويس .

وقد تلقى الاسرائيليون هدية استراتيجية من العرب من حيث تمكينهم من ترتيب اولوياتهم وتجنب مواجهة ازمة على كلا الجبهتين في آن واحد . ويعود ذلك الى عدم وجود هيئة قيادة مشتركةواحدةلكلا الجبهتين مع تخويلها صلاحية اصدار اوامر العمليات على الجبهتين . اذ ان وجود هيئة للتنسيق لا تماثل في شيء وجود هيئة قيادة موحدة . ويتضح ذلك من ان الامر بشن هجوم مصري في جبهة سيناء بقصد اجتذاب قوة الاحتياطيين الاسرائيليين من الجبهة السورية قد صدر متأخرا عن اوانه بما لايقل عن ثلاثة ايام وان هذا الامر لم يكن في طبيعته الا مبادرة تنسيق لا امرا بالمعنى المفهوم للكلمة . ولو كانت لدى المشير اسماعيل صلاحية قيادة العمليات منذ البداية لكانت القيادة العربية المشتركة نشيطة في وضع استراتيجية على كلا الجبهتين في آن واحد منذ البداية بدلا من ان تبدأ في التفكير في وضع استراتيجية بعد نشوء الازمة . ولو كان يشرف على الجبهتين قائد واحد لكان من الممكن ان يشن المصريون هجوما في الوقت المناسب لاجتذاب الاحتياطيين الاسرائيليين من الجبهة السورية قبل ان يضطر السوريون الى الانسحاب من مرتفعات الجولان .

لقد كان العرب يواجهون دائما مشاكل تتعلق بالقيادة والتنسيق . ففي اثناء السلام ، كثيرا ما اتفقوا على خطط لانشاء قيادة عليا وتعيين قائد عام ولكن عندما كانت تقع الحرب بالفعل ، كانت تنشأ بينهم خلافات حول تنفيذ انشاء قيادة مشتركة . ولكن على نقيض ما حدث في الماضي ، شهدت هذه الحرب قدرا كبيرا من التضامن العربي الحقيقي . ففي اثنائها حاربت القوات العراقية والاردنية والسعودية والمغربية تحت امرة القيادة السورية بصرف النظر عن الخلافات العقائدية القائمة بين حكومات هذه القوات . كما حاربت القوات الكويتية والجزائرية والتونسية والسودانية تحت امرة القيادة العامة في القاهرة . ومع تزايد شعبية وهيبة الرئيس السادات تزايداً كبيرا في الاوساط الدولية والعربية ، ربما لم تكن سوريا تمانع في وضع جميع قواتها تحت امرة القائد الاعلى للقوات العربية مع تخويله سلطات قيادية مطلقة . لقد كان انشاء قيادة مشتركة للعمليات تضم وكالة استخبارت متكاملة حريا بان يمكن العرب من تقييم الازمة التي واجهت الاسرائيليين خلال الايام القليلة التي تلت الحرب بسرعة ودقة اكثر . وما كانت اسرائيل لتتمكن من تطويق ذيول تلك الازمة في نهاية المطاف الا من خلال توجيه اهتمامها الى كل جبهة على انفراد . لقد سمعنا ما قاله الجنرال دايان عن تقييمه للوضع في جبهة قناة السويس بتاريخ ٩ تشرين اول حين كان السوريون ما زالوا يحتلون مرتفعات الجولان .

وكان مما قاله الجنرال دايان آنذاك : « ان قواتنا تلتزم جانب الدفاع في جبهة القناة وتقيم الخطوط الدفاعية لوقف تقدم المصريين ريثما يتحول الوضع في غضون الايام القليلة التالية ...

لقد انسحبت القوات الاسرائيلية من خط بارليف انسحابا منظما احيانا وغير منظم في احيان اخرى . وليس هناك خط دفاعي قوي اخر الان واني آمل ان ينسحب معظم الجنود الاسرائيليين الذين كانوا يرابطون في خط بارليف هذه الليلة . غير ان الخط المذكور لم تعد له اية اهمية استراتيجية ونحن لا نستطيع ان نحافظ على اتصال منتظم به ولذلك فقد تخلينا عنه .»

ولهذا الكلام مغزى متعدد الاوجه . ولكن اثنين منهما واضحان . فاحدهما كشف

النقاب للعالم اجمع اننا لم نعد اقوى من المصريين . اما المغزى الثاني فهو انه اذا تعذر علينا ان نجبر المصريين على التقهقر ، فان المصريين سيواصلون تجميع قواتهم ودباباتهم على الجانب الشرقي من القناة . والسؤال التالي الذي يطرح نفسه بالتالي هو انني ارى هناك مرحلتين او ثلاث مراحل : انني اشك مطلقا انه اذا اقدم المصريون بالفعل على شن هجوم بأقل ما يملكون من القوات ــ على الرغم من انني غير واثق من انهم سيفعلون ذلك ــ فسوف نضطر الى حشد قواتنا على طول خطوط جديدة وربما وجدنا ان خطوط مواصلاتنا اصبحت اقصر واكثر ملاءمة من الناحية الطبوغرافية مما يتيح لنا فرصة افضل للاحتفاظ بهذه الخطوط وقد تكون هذه الخطوط في منطقة تقع ما بين ما يسمى بممر متلا وقناة السويس .

وربما ان الطريق اصبحت مفتوحة امام المصريين لعبور القناة باتجاه جنوبي الى ابورديس وباتجاه شرم الشيخ ، فلا بد ان نسأل انفسنا ايضا ما الذي سيحدث اذا حاولنا ان نتجه الى الجنوب وماهي النقطة التي ينبغي ان نتوقف عندها لوقف تقدم المصريين ؟ لقد تحدث قائد سلاح الطيران الاسرائيلي عن ان طابورا من المدرعات المصرية بدأ يتجه نحو الجنوب وقال ان عدده يبلغ ٥٠ عربة ربما كان قسم منها او كانت جميعها من الدبابات التي امكن للطيران الاسرائيلي مهاجمتها . ولكننا لا نستطيع ان نعتمد على سلاح الطيران الاسرائيلي لمنع المصريين من الزحف نحوالجنوب بل حتى لو اننا اقمنا خطوطا دفاعية جديدة ، فانني اشك في طاقة قواتنا على الاحتفاظ بهذه الخطوط ...»

كان ذلك تقييم الجنرال دايان للوضع في ٩ تشرين اول وقد اذاعه في مؤتمر سري عقده مع رؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية اليومية ، وليس بقصد نشره بل لمجرد اطلاعهم على الوضع . (والواقع ان هذا البيان الذي ادلى به الجنرال دايان لم ينشر الا بعد مرور ثلاثة اشهر ، اي بتاريخ ١٥ شباط ١٩٧٤) .

فاذا كان الجنرال دايان المعروف ببأسه الشديد يتكلم بهذه اللهجة ، فقد يصح الافتراض بان الروح المعنوية في القيادة العسكرية العامة في تل ابيب كانت شبه منهارة بالفعل ، وذلك بناء على اساسين يشتمان من ذلك المؤتمر الصحفي : اولهما ان الاسرائيليين كانوا يعتزمون التراجع على جبهة سيناء الى منتصفها ، اي الى التلال المرتفعة في حالة قيام المصريين بشن هجوم عليهم من الضفة الشرقية لقناة السويس وثانيهما ان سلاح الطيران الاسرائيلي كان يركز جل اهتمامه على الجبهة السورية ولم تكن له اية سيطرة في اجواء شبه جزيرة سيناء في تلك المرحلة ، او بالاحرى لم تكن له سيطرة تكفي من تمكينه من صد هجوم مصري من الضفة الشرقية للقناة ولو بلواء واحد فقط (مع العلم بانه تمكن قبل يومين من فعل ذلك) .

ويبدو ان المصريين قد فوتوا على انفسهم فرصة ثمينة خلال يومي ١٠ ــ ١٢ تشرين اول . فلو شنوا هجوما في ذينك اليومين لامكنهم التقدم حتى خطوط الممرات ليس لان مثل هذا الهجوم في العمق كان ضروريا لتحقيق اهداف الحرب ، وانما لان شن مثل هذا الهجوم كان حريا بان يجتذب فورا سلاح الطيران الاسرائيلي والقوات الاحتياطية الاسرائيلية من الجبهة الشمالية الى الجبهة الجنوبية في الوقت المناسب الذي يهيء للقوات السورية شيئا من الفرج .

ولكن من قبيل الدفاع عن المصريين ، ينبغي ان نقول انه لم يكن في وسعهم

الافتراض بان القوات الاسرائيلية قد فقدت اعصابها وخاصة بالنظر الى كل ما قيل عنها خلال السنوات الماضية من انها قوات لا تقهر . ولم يكن في الامكان معرفة ذلك الا من خلال جهاز استخبارات دقيق . ولكن على نقيض الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية التي تتعاون تعاونا وثيقا مع الاستخبارات الامريكية مع تسلمها نسخا يومية عن التقارير المستمدة من استطلاعات القمر الصناعي الامريكي ، لم تكن لدى الاستخبارات العسكرية المصرية الميدانية اية علاقة وثيقة بالاستخبارات الروسية . فعلى الرغم من التزام الاتحاد السوفييتي التزاما كبيرا بتقديم العون المادي الى العرب ، فان علاقاته بمصر ساءت بعد ان امر الرئيس السادات باخراج المستشارين الروس من مصر في تموز ١٩٧٢ . ومع ذلك فقد تحولت تلك العلاقات بين البلدين الى علاقات ودية فيما بعد وتسلمت مصر معدات عسكرية كصواريخ ارض ــ جو من طراز سام ــ ٦ وغير ذلك من المعدات المتطورة . غير ان التعاون بين استخبارات البلدين لم يكن قط وثيقا بنوع خاص بالنظر الى الخلافات العقائدية القائمة بينهما . ومما يدل على ذلك ان المصريين لم يعلموا شيئا من الروس عن عبور القوات الاسرائيلية الى الضفة الغربية من القناة بل لم يعرف الرئيس السادات شيئا عما حدث في منطقة الدفرسوار من الروس الا بسبب وجود رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجين في القاهرة في ذلك الوقت .

وهناك انتقاد آخر يمكن ان يوجه الى جهاز الاستخبارات العسكرية المصرية وهو انه لا يحصل على معلومات غير كافية فحسب ، ولكنه يبدو ايضا انه يتقاعس عن تدقيقها وتوزيعها على الاطراف المعنية . ولعل قسطا من اللوم يقع في ذلك على اجراءات قيادة الجيش المصري كما اتضح بعد عملية الغزال التي نفذها الاسرائيليون .

ولا ينكر ان الاجراءات العسكرية كانت خلال عملية عبور القناة جد فعالة . ففي امر خاص اصدرت القيادة العامة لقادة القوات المصرية خطوطا عامة لكي يسترشدوا بها ويتبعوها وهي تقضي بان يكون قادة الكتائب العسكرية في طليعة القوات المهاجمة ، وهو يتناقض مع الاصول العسكرية المتعارف عليها .

اما القادة العسكريون من رتبة مقدم وعقيد ، فكان عليهم ان يتقدموا القوات المصرية الامامية قبل ١٥ دقيقة من ساعة الصفر . وكان يتعين على الضباط من رتبة لواء ان يكونوا على الضفة الشرقية بعد ٤٥ دقيقة من ساعة الصفر . وكان على قائدي الجيشين ان ينشئا هيئة تكتيكية لقيادة العمليات على الضفة الشرقية من القناة بعد ٩٠ دقيقة من ساعة الصفر . وقد حدث ان نفذت هذه الاوامر القيادية في حالة العبور تنفيذا متقنا بحيث كانت القيادة في كلا مرحلتي الهجوم مباشرة ومشجعة . ولكن ما ان تم انشاء رؤوس الجسور المصرية حتى اصبحت حركة كتائب القوات المصرية بطيئة ومن المرجح ان القيادة المصرية عادت الى اتباع المرابطة في المواقع الذي تعودته القوات المصرية منذ سنوات عديدة . ويتعذر دائما تعيين مقدار الاتصال بين التشكيلات العسكرية او اين كان يجب ان يتخذ القادة العسكريون مواقع قيادتهم اثناء مختلف مراحل المعركة . فهذه المقتضيات تكون متناقضة ، شأنها في ذلك شأن بقية شؤون الحرب . ومن الطبيعي ان يكون افضل مكان يستطيع خلاله ان يتسلم القائد العسكري المعلومات ويقيمها على النحو الصحيح ويتخذ القرارات المناسبة بشأنها في اثناء الحرب الفعلية هو بطبيعة الحال مركز قيادته بالذات . فمن هذا المركز يستطيع ان يقيم الوضع تقييما موضوعيا لجميع وحدات التشكيلات العاملة تحت امرته . غير

انه في الوقت ذاته لا يستطيع ان يحس بوطأة المعركة وسيرها من مركز قيادته المذكور ولا يتمكن من التأثير شخصيا على الروح المعنوية لوحداته الامامية اذا ظل بعيدا عن ساحة القتال . ومن الوسائل التي تجنب القائد المذكور التردد باستمرار على المواقع الامامية والتغيب بالتالي عن مركز قيادته لمدة طويلة هي الاحتفاظ بعدد كبير من الضباط المساعدين وضباط الاتصالات الشخصية على اتصال مستمر بالمواقع الامامية من خلال ترددهم على مركز القيادة وتلك المواقع الامامية بحيث يظلون على اتصال دائم بالتشكيلات الدنيا والعليا . فبهذه الطريقة يتاح نقل كل اخبار التغيرات التي تحدث في الوضع العسكري الى قائد الجيش والفرقة بوقت اسرع من المواصلات الرسمية . وفي معارك منطقة الدفرسوار يشير التأخير في تقييم الوضع على النحو الصحيح وابلاغ هذا التقييم الى القيادة العليا والوقت الثمين الذي ضاع قبل حدوث رد الفعل المصري الصحيح ، الى ان هذا المنهج غير الرسمي في الاجراءات القيادية ربما لم يكن متبعا آنذاك . او لعل نظام الاتصالات بعد ان تم انشاء رأس الجسر الاسرائيلي ، الذي قلنا انه امكن تحقيقه نتيجة للتراخي والاهمال ، كان قد عاد اكثر الى النظام الروتيني الذي كان مألوفا في القوات العسكرية المصرية من حيث التقيد بالرتب والتمييز بينها .

وكان هناك دورس تعلمها الاسرائيليون ايضا من هذه المعارك وكان اخطرها عليهم ان تفوقهم الجوي امكن ازالته بوسائل الدفاع الارضية . وقد يصح هذا القول فقط خلال مرحلة معدودة في الاطار التكنولوجي ، كنظرية سيطرة الدبابات على ساحات القتال . وتقوم الان الجهات العسكرية العالمية بتقييم كلا النقطتين تقييماً وثيقا .

فعلى الرغم من جميع المعونة الفنية المتقدمة التي تلقتها الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية ، فانها اخطأت خطأ جسيما في تقييماتها رغم انها تلقت جميع الحقائق والمعلومات التي كانت بحاجة اليها : فكانت الاستخبارات الاسرائيلية تعلم مثلا ان العرب ، وخاصة المصريين ، كانوا يملكون القدرة على شن هجوم كما توفرت لدى الاستخبارات الاسرائيلية اثباتات كبيرة على قيام العرب باستعدادات عسكرية على كلا الجبهتين . ولكنها مع ذلك كانت واقعة تحت سيطرة افتراضات التفوق العنصري الاسرائيلي وتدني الروح المعنوية لدى العرب بحيث اخفقت في تقييم نوايا العرب . وقد اعتمدت اكثر مما يجب على هذه الافتراضات بحيث ان الاسرائيليين لم يفاجأوا فقط بقوة العرب ، بل انهم رغم تيسر الوقت الكافي لهم للافاقة من تلك المفاجأة تأخروا اكثر مما يجب في تعبئة قواتهم الاحتياطية .

وقد جرت وقائع حرب ١٩٧٣ على مستوى تكنولوجي اعلى من المستوى الذي كانت عليه في اية حرب سابقة . فقد جربت في هذه الحرب انواع متعددة من الاسلحة والمعدات العسكرية لاول مرة . ولهذا فانه من الطبيعي ان يجري تفحص النتائج التي تمخضت عن استعمال مختلف انواع الاسلحة تفحصا وثيقا للانتفاع من دروسها في المستقبل . غير اننا نرى ان نورد كلمة تحذير في هذا المجال . ان التقدم التكنولوجي يمكن ان يتقدم بسرعة ، وفي خضم سرية الابحاث المتعلقة بالاسلحة ، ليس هناك من وسيلة تتيح معرفة الاكتشافات الجديدة في هذا المجال حتى تبدأ الحرب التالية . ولهذا فمن الضروري ان لا يعمد احد الى وضع استنتاجات خاطئة من خلال تجربة حرب استغرقت ١٦ يوماً . ومن قبيل ذلك قد يكون من السابق لاوانه الاستنتاج بان مظلة صواريخ ارض – جو (سام) قد اجهضت الدور الذي تلعبه الطائرات المعترضة كما تراءى

للبعض . صحيح ان صواريخ ارض ـ جو من طراز سام ـ ٦ قد قهرت الفانتوم وان الوسائل الوحيدة التي إفلحت في درء خطر تلك الطائرة كانت وسائل الدفاع الجوي الارضية (كما كان الحال عند رأس الجسر الاسرائيلي في منطقة الدفرسوار) . غير ان الاميركيين عكفوا الان على تفحص صواريخ (سام ـ ٦) التي استولى عليها الاسرائيليون . وقد يستطيع خبراء الابحاث الامريكيون معرفة ترددات هذه الصواريخ وابطال مفعول اجهزة الردار المركبة فيها . ومـــهما يكن من امر ، فان شبكات هذه الصواريخ كتلك التي نصبت في منطقة القناة يمكن ان تقام فقط في مناطق محدودة او عند الحاجة الى وقاية اهداف معينة مثل المدن الاقليمية او المطارات . اما في المناطق الاخرى حيث يمكن استعمال هذه الاسلحة المتطورة ، كأوروبا وروسيا وغرب آسيا ، فقد تستطيع الطائرة المعترضة ان تجد مجالا واسعا للحركة وحرية العمل فوق شبكات تلك الصواريخ . وقد جاء تعرض الدبابات للصواريخ في حرب ١٩٧٣ بمثابة مفاجأة اخرى للاسرائيليين . اذ ان المعروف ان الصواريخ المضادة للدبابات كانت تمر في مرحلة التطوير منذ حوالي عشرين سنة وقد جربت هذه الصواريخ عددا من المرات من قبل في حروب غرب آسيا وفيتنام وفي الحرب الهندية الباكستانية في سنة ١٩٧١ دون ان تؤدي الى تغييرات دراماتيكية في التكتيكات الحربية . اما في حرب تشرين اول ١٩٧٣ ، فقد أعطت هذه الصواريخ نتائج مدهشة لسببين : اولا لنجاح المصريين في استعمال تكتيك هذه الصواريخ في ايدي مشاتهم ضد الدبابات الاسرائيلية . وثانيا لكثافة استعمالها في اثناء معارك الدبابات التي دارت بين الفريقين . ويبدو ان قواد مجموعات الدبابات من عرب واسرائيلين على السواء كانوا يفضلون مهاجمة الدبابات المعادية بالصواريخ اكثر مما كانوا يفضلون مهاجمتها بمدافع الدبابات وقد حققوا في ذلك نجاحا باهرا . فعلى سبيل المثال تقدر الاوساط الامريكية ان العرب قد دمروا عددا من الدبابات الاسرائيلية يقرب مجموعه من ٨٤٠ دبابة وان معظم هذه الدبابات قد دمر بفعل قذائف آر . بي . جي . وصواريخ من طراز ساغر (ميلوتكا) وصواريخ « سنابر » الموجهة . ومع انه لم يكشف النقاب عن عدد خسائر الدبابات السورية ، فقد علم ان نسبة عالية من هذه الخسائر اصيبت بالصواريخ الاسرائيلية على الرغم من ان مدى مدافع الدبابات الاسرائيلية كانت ابعد من مدى مدافع الدبابات السورية ولذلك فقد استعمل الاسرائيليون مدافع دباباتهم اكثر مما استعمل السوريون مدافع دباباتهم في معارك الدبابات التي دارت بين الفريقين .

وبالنظر الى نجاح استعمال الصواريخ المضادة للدبابات اثناء الحرب ، فقد اخذ الدور الذي يتعين على الدبابات ان تلعبه في المستقبل يخضع لتفحص الخبراء تفحصا دقيقا . حتى لقد ذهب عدد لا يستهان به من هؤلاء الخبراء الى القول ان دور الدبابات في الحرب اصبح باليا . وقال المستر ايان سمارت مساعد مدير المعهد الملكي لدراسة الشؤون الدولية في لندن ان نجاح الصواريخ السورية قد خلق لدى جندي المشاة ثقة بانه اصبح يستطيع تدمير دبابة مهاجمة بطلقة واحدة قبل ان يتمكن طاقمها من استعمال الاسلحة التي تحملها الدبابة .

وقد اثبت المصريون بالفعل في الهجمات التي شنتها مشاتهم من مواقعهم في اشتباكات غير متحركة مع الدبابات ان سيطرة الدبابات يمكن تحديها تحديا فعالا . وفي هذه المرة ربما لم تقتصر محاولة السيطرة على مصير المعركة منذ بدئها بين الدبابات

والمدافع المضادة لها على مجرد القرقعة التي تصاحب مثل هذه المعارك ، وانما انحصرت في اجهزة توجيه الصواريخ التي ميزت هذه الصواريخ عن غيرها من الاسلحة المضادة للدبابات بما فيها المدافع غير المرتدة . وكانت احتمالات تدمير الدبابة باول طلقة اكبر بكثير مما كانت عليه في المعارك السابقة ولا بد ان تتعزز هذه الاحتمالات فيما تتحسن اساليب اجهزة توجيه الصواريخ المذكورة .

ولذلك فان من المرجح ان يقتصر دور الدبابات مستقبلا في العمليات الهجومية على العمل ضد اجهزة دفاع ثابتة اوغيرها من الاهداف البرية وان يتحول الى دور توفير معاضدة هذه المهمات او متابعتها اكثر من الدور الطليعي الذي كانت تلعبه في السابق . وهذا يعني حدوث تغيير في اساليب التكتيك الحربية من حيث التعاون بين المشاة والدبابات . اما ما اذا كانت التجارب التي ستجري على اجهزة توجيه الصواريخ ستؤدي الى خلق تأثير كبير في الاستعمال الكلاسيكي للدبابات فهذه مسألة ما زال فيها نظر .

ان المدرعات في حرب سريعة الحركة تسعى الى التحرك لا الى الاشتباك في معارك . وفيما عدا الخروج عن قاعدة استعمال المدرعات الذي ابتكره البريطانيون خلال الحرب العالمية الثانية عندما سعت تشكيلات الدبابات البريطانية الى الاشتباك مع تشكيلات اخرى من الدبابات المعادية ، فان المواجهة بين الدبابات لا تعتبر من مبررات استعمال المدرعات في الحرب . فعندما تلتزم الدبابات بطابعها الاساسي الذي يتميز بالحركة ، فانها تستعمل في الاقتحام السريع في عمق جناح القوات المعادية او الاقتحام فيما وراء خطوطها . وفي سياق قيام الدبابات بهذا الدور ليس من السهل تحديها والتفوق عليها بالاسلحة المضادة للدبابات حتى لو كانت هذه الاسلحة صواريخ موجهة . ولم تتح للاسرائيليين ان يثبتوا صحة هذه النظرية اثناء حرب تشرين اول ١٩٧٣ . ولكن عملية الغزال عرضت لمحة عن امكانات تطبيقها في ظل مظلة جوية وحيز للمناورة والمداورة . ولذلك فحتى اذا تمخضت الدراسات العسكرية عن تغيير تكتيك استعمال المدرعات ، يصح لنا ان نؤكد ان الدور الكلاسيكي الذي تضطلع به المدرعات لم يتخلف عن عجلة الزمن .

ان قسما كبيرا من فضل النجاح الذي احرزه تكتيك الصواريخ التي اطلقها المشاة المصريون في جبهة قناة السويس يعود الى عزيمة وتصميم القوات التي استخدمت تلك الصواريخ وربما كان هذا العامل اكبر عنصر مفاجىء للاسرائيليين . ويقول الاسرى المصريون العائدون ان الاسرائيليين اعجبوا ايما اعجاب بالروح المعنوية العالية والعزيمة الحديدية اللتين تحلت بهما القوات المصرية حتى ان المسؤولين الاسرائيليين عقدوا جلسات تخللتها مناقشات حادة دارت حول التساؤل عما اذا كان افراد القوات المصرية قد تناولوا قبل الحرب حبوبا مهيجة حتى تمكنوا من القتال بتلك الجرأة . وقد استجوبوا رجال الاسعاف والطب المصريين مرات عديدة لمعرفة ذلك .

وليس هناك من شك ان في قيام المشاة بمواجهة الدبابات والاليات الحديدية الاخرى كان يتطلب منهم التحلي بروح معنوية عالية وتدريب ذي مستوى رفيع . فقد كانت هناك احتمالات لان يتعرضوا لاطلاق نيران الرشاشات او المتفجرات المعادية الصادرة من الدبابات حتى ولو اصابت صواريخهم تلك الدبابات . وفي حالة اطلاق قذائف الار بي جي كان على المشاة ان يقتربوا من الدبابة التي يسعون الى تدميرها بضع مئات من

الامتار قبل ان يطلقوا تلك القذائف . اما في حالة القاء القنابل المضادة للدبابات ، فقد كان عليهم ان يقتربوا اليها مسافة لا تزيد على اقدام قليلة وهذا ما فعله المشاة المصريون خلال الساعات الاولى من بدء المعركة وحققوا في ذلك نجاحا باهرا .

لقد اهتم العسكريون المحترفون وطلاب الاكاديميات العسكرية اهتماما بالغا بتفحص الدروس التي تلقوها من الاساليب التنظيمية والتكتيكية التي استعملت في هذه الحرب . ولم يحجب هذا الاهتمام المنجزات الاستراتيجية الرائعة التي حققها العرب .

وسوف يثار الكثير من الجدل حول من من الجانب الاخر حقق نجاحا عسكريا اكبر . فهل كانت اسرائيل في الواقع على وشك احراز نصر عسكري حاسم اخر عندما تم تنفيذ الامر الثاني بوقف اطلاق النار ؟ او هل كانت عملية الغزال مجازفة انتهازية قدر لها ان تحقق نجاحا كبيرا فقط من خلال الوقت المحدد لامتداد القتال بعدها ؟ وهل يقاس النجاح في الحرب بمقياس الاصابات التي لحقت بالجانبين او بمقياس الاراضي التي اكتسبها كل منهما ؟ لعل الاجوبة الصحيحة عن هذه الاسئلة انها لا تزيد في ضيق افقها على ضيق افق الاسئلة نفسها . فلن يتفهم المرء المغزى الحقيقي من حرب سنة ١٩٧٣ من خلال تحريك القوات ولا من خلال الاشتباكات التي وقعت فيها .

اذ ان الهجوم العربي قد نجح في تحقيق جميع الاهداف السياسية الاستراتيجية التي توخاها الرئيس السادات والعالم العربي حين قررانه لم يعد امامه من خيار سوى الحرب . فمن الناحية السياسية ، دلت هذه الحرب الى توليد « الشرارة » التي نجحت في دفع عجلة ردود الفعل المتعاقبة التي كان ينشدها العرب في غرب آسيا . ففيما بين عشية او ضحاها توصل العالم العربي الى وحدة الصفوف والقيادة الفعالة بعد سنوات من فرقة المجتمع العربي واختلاف عقائده السياسية ، اذ لم يتوصل العالم العربي الى مثل هذا التضامن منذ قرون بعد عملية بدر لأنهم من خلال نجاحهم في تنفيذها تمكنوا من استعادة كبريائهم وكرامتهم التي سعوا عبثا الى استعادتهما طوال ما يقرب من عشرين سنة . وحتى السادس من شهر تشرين اول ١٩٧٣ ، يبدو ان جميع تطلعاتهم الى استرجاع الاراضي التي فقدوها في حرب الايام الستة قد بدت نسيا منسيا . اذ ان عدم مبالاة الدولتين العظميين بتطلعات العرب بالاضافة الى الانطباع القائم الذي تكون في نفسية العرب عن عدم امكانية قهر الجيش الاسرائيلي تضافرا على تصوير مستقبل حالك امام العرب يتميز بالعجز التام وتقبل المخططات الاسرائيلية المغرورة امام مستوطنات اسرائيلية على الاراضي المحتلة .

اما الان فان العرب اصبح يتملكهم شعور جديد بالقوة لان حرب تشرين اول لم تؤد الى اعطاء منطقة غرب اسيا اولوية على الازمات الدولية فحسب ، بل مكنتهم من اتاحة ممارسة نفوذ اوسع في الشؤون الدولية من خلال استراتيجية نفطهم . اذ لم يكونوا يشعرون بكامل قوتهم على حقيقتها الا بعد ان مارسوا استراتيجية فرض مقاطعة النفط ممارسة فعلية . وقد ادى ذلك الى انتعاش العرب انتعاشا تجاوز كثيرا النفوذ والمكتسبات العسكرية التي احرزها اي من الفريقين .

وما من الناحية الاستراتيجية ، فان حرب تشرين اول قد ادت الى هدم نظرية

حصانة « عمق اسرائيل » ونظرية « حدودها الآمنة » فمن خلال مهاجمة حصون خط بارليف وتدميرها بسهولة تمكن المصريون من تقويض حجة الاسرائيليين حول ضرورة توسيع حدودها ، فقد اثبتوا انهم حتى في حالة توسيع حدود اسرائيل فان العزيمة العربية لديها طاقة على مهاجمة الاراضي المحتلة وعلى مواصلة تهديد امن اسرائيل .
ولذا فقد اصبح الحل يكمن لا في استراتيجية التوسع وانما في التوصل الى تسوية .
وعلى الرغم من الحجج المضادة التي ساقتها اسرائيل ، فقد اثبتت نتيجة حرب تشرين اول ، اكثر من اي وقت مضى ، ان التوصل الى تسوية في غربي آسيا ليس بعيد المنال .



فهرست



فهرست الخرائط

هذا الكتاب

كتب الميجر جنرال د. ك. باليت هذا الكتاب بعد ان زار الجبهات العربية على اثر حرب ١٩٧٣ . والجنرال باليت من الوجوه التي تعرفها الاوساط العسكرية العربية في كل من مصر وسوريا والعراق والاردن ولبنان، منذ ان عمل ملحقاً عسكرياً لسفارة الهند في القاهرة في العام ١٩٤٩، ومفوضاً لسفارات الهند في العديد من الدول العربية.

وقد واصل اتصالاته هذه حتى بعد ان انتهت مهماته الرسمية . واستفاد من هذه الاتصالات في جمع المعلومات والمعطيات التي ساعدته على وضع كتابه هذا ، والذي يعتبر من افضل وادق ما كتب عن حرب ١٩٧٣ .

ولقد تميز كتاب « الحروب العربية الاسرائيلية الرابعة » بالموضوعية والحياد ، رغم رفض المراجع الاسرائيلية التعاون مع الكاتب، او السماح له بزيارة اسرائيل لمقابلة المسؤولين وجمع المعلومات من مصادرها الاصلية ، على اساس انه من المناصرين للعرب . الا ان ذلك لم يؤثر على موقفه الحيادي الباحث عن الحقيقة المجردة.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١١
بيروت - لبنان

الثمن ٥ ليرات لبنانية
او ما يعادلها